الوادي المعلق في السماء

(رواية)

إلى الذي يعرفُ في أعماق أعماقه أنّه غريبٌ .. إلى الذي يتأمّل النُّجوم باَحثًا عن شيءٍ ينتمي إليه أهديك الوادي المعلّق في السّماء.

الوَادِي المُعَلَّقُ فِي السَّمَاء

(رواية)

مشاري الإبراهيم

مركز دلائل
DALA'IL CENTRE

Dalailcentre@gmail.com

الرياض – المملكة العربية السعودية

ص ب: ٩٩٧٧٤ الرمز البريدي ١١٦٢٥

Dalailcentre@

+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ

مضمون الكتاب يعبر عن رأي مؤلفه

ولا يعبر بالضرورة عن رأي المركز

تصدير :

كانت الرواية ولم تزل من أقوى وسائل نقل الأفكار بين البشر ، لا تحدها حواجز المكان ولا قرون الزمان ، تتمثل بشخصياتها عمقًا تحمل القارئ للغوص في جنباتها بل وجنبات نفسه أحيانًا ، فالرواية كما هي قطعة من نفس الكاتب ، فهي تخاطب أحيانًا كثيرة القارئ أيضًا ، تتحدى ظروفه ، قيوده ، عصره ، فتحمله تارة لعالمٍ كان يحب أن يكون ، أو تهرب به من عالم هو كائن ، أو تهديه بعض الحلول لعالمٍ يعيش فيه ، ولتلك الأهمية الكبيرة لأثر الرواية في النفس ، كانت هذه السلسلة (الروايات).

وفي هذه الرواية يسبح بنا الكاتب في أحداثٍ يحار القارئ فيها بين الحقيقة والخيال ، بين ما يحبس أنفاسه تارة من ترقب الأحداث وجديدها ، وبين التشوق للقفز على النتائج والتفسيرات. رواية تمتزج رموزها بواقعنا اليومي الذي نعيشه ، بل بحياتنا كلها التي وجدنا أنفسنا فيها.

مركز دلائل

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات:

المحتوى	الصفحة

- استِهلالٌ ١٣
- الرَّجُلُ ذُو العِمَامَةِ الخَضْرَاء........................ ١٩
- الرِّحلة إلى الدّرْعِيَّة ٣٤
- سُكُونٌ ! ٤٦
- المُهَاجِرُون........................ ٥٠
- الجبَلُ العَظِيم ٥٥
- الوَادِي السَّعِيد........................ ٦٣
- سَارَة القاصد........................ ٧٥
- رَئِيسُ الأَمْن ٨٨
- الأَجْوِبَة ٩٠
- هِيَ وهُوَ........................ ٩٧
- مَريَمْ ورَمْزِي ١١٤
- التمَّ الشّمْل ١١٨
- سِجِل الوَادِي الوَطَنِيّ........................ ١٢٥
- الاغْتِيَال !........................ ١٥٤
- اشْتَقْتُ لِلْحُلْم الصَّغِير........................ ١٥٦

۞القُفّاز ١٦٢

۞سارَة تبحث ! ١٦٧

۞المَلِك ١٦٩

۞حَفْلَةٌ في الشقّة ١٧٤

۞مَقَابِرُ بَارْبَار ١٨٠

۞المُوَاجَهَة...................................... ١٨٩

۞غُرْفَةُ الأَسْرَار................................. ١٩٤

۞سُلَّمٌ إلى القَصْر ٢٠٧

۞الإِعْلَان....................................... ٢١١

۞المَلِكُ طَارِش ٢٢٦

۞الرِّحْلَة ٢٣٩

۞الوَجْه البَاكِي ٢٤٩

۞الحَكِيْم ٢٥٧

۞الحيَاة الدُّنْيَا ٢٨٢

۞البِدَايَة ٢٨٩

۞ ۞ ۞

اسْتِهْلَالٌ

(١)

من السّهل جدًّا أن يفتح المرءُ قلبه إلى غريبٍ ، تحديدًا إذا غلب على ظنِّهِ أنّه لن يلتقيَ به مجدَّدًا.

ربّما لذلك؛ يجد البعض مُتَنَفَّسًا في الكتابة حيث يصبُّ حبرَ قلبِه على الصفحات البيضاء ، لتتشربها أعين القراء. لكنَّ "سارة القاصد" لم تكن كاتبة؛ ولا صديقة للقلم؛ وكان احتمال تضافر الظروف لتتحدّث مع رجلٍ غريب لن تلتقي به مجدّدًا غير وارد أبدًا .. حتّى كانت هذه الليلة.

(٢)

عادةً ما يعُمُّ المدينةَ السّكونُ بعد منتصف الليل. تتموّج الرّياح وحدها بين الطرقات. تحرّك القراطيس متراقصةً على وبر القطط الضالّة. لكن في هذه الليلة وعند الزُّقاق القريب من منزل سارة ، لم يكن المكان ساكنًا؛ بل أبعد ما يكون عن السكون.

(٣)

مشتْ سارة وحيدةً في الطريق لا يسايرها إلا ضوء القمر ، والنّجوم ، وظلّها.

لم تعتد المشيَ بمفردها في الطرقات. سمعت أباها يحذّرها مرارًا من هذا؛ حذّرها من الخطفة والنشالين والمعتدين ، وكل أنواع الرجال السَّيِّئِينَ. لكن هل يهمُّها هذا الآن؟ مشيها وحيدةً كان آخر همومها.

قبل الليلة ، كانت "سارة القاصد" حُرّة ، حالمة .. المستقبل مفروشٌ أمامها بالورود. أين سمعتْ مقولة: الطريق إلى جهنّم

مفروش بالنّوايا الحسنة؟ لا تتذكر. لكنّ المقولة بدت قريبة جدًّا إلى قلبها في تلك اللحظة.

لم تتصور يومًا أن تتزوّج اختياريًّا من رجلٍ تمقته. لكن قبل لحظات ، ذهبت في الخفاء لتخبر فيروز أنّها وافقت على أن يأتيَ أخوها يزيد؛ ليخطبها من أبيها.

قبل الليلة كانت سارة القاصد حرّة ، أما الآن: ***أنا حيوانة! بل وحمقاء أيضًا! وأيَّة مسبّة أخرى بحرف الحاء.*** قبضت يديها وأكملتْ المسير.

(٤)

مشتْ سارة بمفردها في الطريق لا يسايرها إلا ضوء القمر ، والنّجوم ، وظلّها .. استمرت بالمسير تنظر إلى كل الدروب التي تتخطاها؛ حتى وصلتْ إلى ذلك الزقاق الـمُعْتِمِ ، الذي اجتمع معها فيه ظلُّ رجلٍ غريب.

(٥)

يقول: اسمه سامي؛ سامي الغريب ... الغريب. همست سارة في نفسها ، وهي تتأمَّل اسمه: ***اسمه لائق. لائق جدًّا!***

بعد أن ألقى عليها التحيّة ، استأذن أن يشاركها الطّريق ، لم يبادرها الغريب بالحديث. تفكّرت: ***محترم سامي الغريب هذا. محترم جدًّا!***

مشى الاثنان في الطريق الساكن لا يتحدّث إلا حفيف نعليهما. أكملت تأمّلها: ***"سامي الغريب" .. ما هذا الاسم العجيب!*** ثمّ تفكّرت : ***وإن كان اسمه "سامي الجزّار" ، لا يهم! المهم أنّ وجود هذا المحترم سيهشّ عنّي النّشّالين .. وجوده مطمئن؛ مطمئن جدًّا.***

(٦)

مشى الاثنان في الطريق الخالي لا يسايرهما إلا ضوء القمر ، والنّجوم ، وظلاّهما.

مرّت مدّة منذ التقت به .. ***كم كانت؟ نصف ساعة؟ أكثر؟ أقل؟ لا يهم***. رغم أنه من غير اللائق أن تتحدث إلى رجل غريب دون مناسبة إلا أنّها وجدت نفسها تتحدّث إليه. ربّما لأنّها توقّعت ألا تراه بعد هذه الليلة؟ ***ربّما***. قالت في نفسها.

قالتْ سارة دون تردّد: «أنا لا أومن باللهث خلف السّعادة» قال سامي دون أن يلتفت: «وكيف ذلك»؟ قالت: «السّعي لتحقيق حالة دائمة من السعادة لن ينتج عنه إلا اليأس». ردّد سامي: «اليأس»؟ قالت: «نعم. الحزن والفرح ، والسعادة والألم حالات نتقلّب فيها نحن البشر في هذه الحياة، ثم يأتي الموت ويُنهي كل ذلك». رمقها باستفهام: «وما الرأي إذن»؟ قالت: «الطمأنينة .. السعي نحو الطمأنينة» ، ثمّ مدّت يديها إلى الأمام: «هذا هدفٌ حقيقي يستحق كل ثانية لتحقيقه. أن نرضى بكل شيء ، ونجتهد لتحسين ما لا يعجبنا ثم نتقبله إذا كان خارجًا عن إرادتنا. هذه فلسفة تختلف تمامًا عن السعي نحو السعادة. إنه السعي الحثيث نحو الرضا».

قال سامي متأمّلاً: «الرضا» ثم سكت. قالت سارة: «نعم الرضا». تنهد سامي ولم يعلّق.

مشى الاثنان تحت ضوء القمر لا يسايرهما إلا ضوء القمر ، والنّجوم ، وظلاهُما.

(٧)

عند الزقاق القريب من منزلها ، نسيَتْ سارة أمر زواجها. نسيتْ فيروز ، ويزيد ، وسامي. لم يكن شيءٌ يهمّها الآن .. ما يهمّ الآن هو وقوفها مع هذا الشاب الذي يدّعي أنّ اسمه "سامي" أمام جثّة تلفظ أنفاسها الأخيرة.

سمعت سارة بجرائم القتل في "الحكايا" الخيالية لكنّها لم ترَ جريمة قتل في حياتها قط؛ لذلك كان من الطبيعي جدًّا أن تنسى هرطقات الشاب سامي الذي التقت به للتوِّ. كيف لا وهي تقف أمام رجلٍ مُلقًى وروحه توشك أن تفارقه؟

خطا سامي حتى وصل إلى الجسد المرتجف .. انحنى، ثم احتضن الرجل المطعون .. أخذ يتحسَّسه يحرّكه ببطء يناديه لعله يستفيق. دافعت المطعونَ أنفاسُه ، واستطاع أن يهمس بكلمتين: «إنه منهم» ، ثم فاضت روحه.

دائمًا ما يذهبُ سامي الغريب إلى عوالم أُخرى في أحلامه؛ واليوم سيذهبُ إلى عالمٍ آخر أيضًا ، لكنّه في هذه المرّة ، سيذهب دُون أن ينام.

عند النّظر إلى هذا العالم الفسيح؛ يبدُو أيّ قرار - مهما كبُر - بسيطًا وصغيرًا .. صغيرا جدًّا. لكن بالنّسبة لسامي الغريب كان قرارُ تلبية دعوة "الحكيم" كفيلاً بأن ينقُلَهُ إلى عالم آخر.

الفصل الأول: الرَّجُلُ ذُو العِمَامَةِ الخَضْرَاء

(١)

تسكُنُ أُسرةُ "الغريب" في مدينة الرّياض في الشقّة رقم: (٤٢) ، عمارة الهدى ، في حيّ المربّع . السّيّد "سامي الغريب" - على خلاف اسمه الأخير- رجُلٌ تقليديٌّ: يعملُ في إدارة المحاسبة بوزارة الشُّؤُون البلديّة والقَرويّة. عدا الغُمُوض الّذي اكتنف حادثة والدته "سامية العقيق" كانت أيّامُهُ تمُرُّ برتابة لا سحر فيها ولا جنُون.

لم ينم سامي جيّدًا تلك اللّيلة؛ أفاق على صوت المُنبّهِ وحيدًا في غُرفته. مدّ ساقيهِ الطّويلتين؛ حتّى خرجت قدماهُ من تحت الغطاء ، مرّر يدَهُ على شعره الكثيف الأسود ، ثُمّ على عينيه العسليّتين ، حتّى وصل إلى أنفه الّذي كان يُسمّيهِ أصحابُهُ: (الدّرع)؛ لكثرة اللّكمات الّتي تلقّاها أنفُهُ عندما كان يتعاركُ في المدرسة.

ألقى نظرةً إلى النافذة حيث أعلن ضوء الصباح بدء يومٍ جديد. «لم يتغيّر شيء» قالها سامي بصوتٍ مسموع. كان يريد أن يواصل نومه إلا أن غيابًا خامسًا في هذا الشهر لم يكن مقبولاً أبدًا.

نظر إلى الأثير مستشعرًا الفراغ الغائر في صدره. كان الفراغ يبتلع كل شيءٍ يرنو سامي تجاهه: تخرّج ، عمل ، إنجازات ، مقتنيات ، رحلات. مهما عمِلَ بقي يشعر بحنين. لكن ... إلى

ماذا؟ لم يزل هذا الشعور يلاحقه منذ صغره، وازداد أكثر بعد حادث والدته.

حكَّ سامي كتفه الأيمن. تحديدًا، حَكّ الشامة الصغيرة التي وُلِد بها، كانت دائرية الشكل، تشبه الرمّانة الصغيرة. عندما كان صغيرًا أخبرته أمه أن مَلَكًا رسم الشامة علامةَ أنّه سيكون ذا شأن. لكن الطفل يكبر، وقصور الأحلام الرملية تمسحها أمواج الواقع.

(٢)

دخل سامي بهوَ مقرّ عمله. نظر إلى حَوْضِ الأسماك الذي يحوي سمكة ذهبية واحدة فقط. لطالما أثار هذا الأمر سخرية زملائه قائلين: ألا تملك الإدارة مالاً؛ لتشتري سمكة أكبر حجمًا! لكن ما أثار سخطهم - وليس سخريتهم هذه المرّة - أنّ السّمكة ماتت منذ خمسة أيّام ولم يغيّرها أحد. توقّف سامي للحظات أمام الحوض ونظر إلى السمكة تطفو ميّتةً على سطح الماء. أخذ نفسًا ثم أكمل طريقه.

مرَّ يومه برتابة كما هو الحال في إدارة المحاسبة. كان يصارع النوم. لم تُسْعِفْهُ أكوابُ القهوة الثلاثة التي احتساها. بعد الثّالث أدرك أنَّ البقاء لا فائدة منه.

استأذن مديره "لؤيَّ المسرحي" في أن يخرج قبل انتهاء الدوام .. وافق لؤي بدوره دونما تردد تفهّمًا لظروفه .. ظروف سامي الأخيرة غيّرت الكثير.

خرج سامي من مكتبه عند الحادية عشرة صباحًا ولم يُنجز حتّى نصف المعاملات على مكتبه. أعلن المصعدُ وصوله إلى الطابق الأرضي .. الناس حوله كُثُر: من المراجعين وموظّفي الوزارة والعمالة .. كلٌّ مشغول بإنهاءِ مهامّه. مشَى سامي يتفكّر في حالِهِ

مُطأطئ الرأس.

لم يكن هكذا دائمًا ، فقد عُرِف بجرأته وفقدانه للتوازن من حين إلى آخر. توقّفت أمّه عن إحصاء عدد المرّات التي كاد أن يُفصَلَ فيها من مدرسته بسبب تطاوله على معلّم .. غالبًا ما كان تطاوله نتيجة رفضه لظلمٍ وقع عليه أو على أحد أصدقائه. «ابني نبيل ، لكنه متهوّر»؛ هكذا كانت والدته تقول.

نظر سامي إلى حَوض السّمك من بعيد ليحيّي السّمكة الميّتة قبل خروجه .. كانت كما هي بلا حياة ، تطفو على سطح الماء. لم يمر سوى أقل من لحظةٍ حتى شدَّ انتباهَهُ أمرٌ آخر. خطا رجلٌ خطوةً ، وحال بين سامي والحوض. كان الرجل داكن البشرة؛ ذا جلبابٍ أبيضَ فضفاضٍ وعمامةٍ خضراء ، امتدّت نُدبةٌ من أسفل عينه اليمنى مرورًا بخدّه مجاورةً للحيتة الكثّة بُنيّة اللون ، حتى لامست شَفته العُليا.

وقف الرجل دونما حركة ينظر إليه. ارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ صغيرةٌ. بادله سامي ابتسامة بابتسامة ، وأمالَ رأسه ثم أكمل طريقه. وقبل أن يحوِّلَ سامي نظره تمامًا خيلَ إليه أنّ السّمكة في الحوض بدأت تتحرّك. ***أحتاج أن أنام!***

(٣)

فاجأتْه موجةُ الحرِّ حالما خرج من المبنى. قطّب سامي حاجبيه مباشرةً ، قائلاً في نفسه: ***وكأن ذلك سيحميني من حرّ الصيف!***

توجّه سامي إلى المواقف ، وسار حتى وصل إلى سيّارته. أدارها متوجّهًا إلى طريق الملك فهد. قبل أن يخرج من المواقف رأى الرجلَ ذا العمامة الخضراء واقفًا يبتسم إليه ابتسامته الأولى نفسها. لمعت عينا الرجل اللوزية مع أشعّة الشّمس ، ثم التفتَ إلى

الأمـام ، وأكمـل مَشـيه. حـرّك سـامي السّـيارةَ ، وخـرج مـن مواقـف الوَزارة.

لم يكن سامي يطيق شوارع الرياض فترة الظهيرة .. ازدحامٌ شديدٌ يصيب كلَّ الطرقات. توجّه جنوبًا على طريق الملك فهد حتى تقاطع مع شارع خريص ، ثم دلف شرقًا نحو شارع الضباب حيث كان الزحام أشدَّ وطأةً.

عنـد إشـارة تقـاطع شـارعي الضبـاب وخـريص تنهّـد سـامي. مهمـا دفـع مكيّـفُ سـيّارته هـواءً بـاردًا فـإن الحـرارة دائمـًا تجـد طريقها بين جنبات سيّارته القديمة.

اخضـرّت الإشـارة ، وبـدأت السـيّارات تتحـرّك ببطء. في تلك اللحظـة شـعر أنَّ شـيئًا مـا يراقبـه. التفـتَ إلى محطّـة الوَقـود عـن يمينـه بعـد أن قطـع الإشـارة. لم يُصَـدِّقْ مـا رأى: إنـه الرجـل ذو العمامة الخضراء ينظر إليه بابتسامته ذاتها!

بعد أن رأى الابتسامة للمرّة الثالثة الآن – والتي بدت وكأنّها تحمل معنًى أعمق – تسلل إلى قلبه خوفٌ مفاجئ .. ***هل كان هذا الرجل يقف هنا منذ مدّة؟*** أوقف سـامي سيّارته في وسط الشارع مدهوشًا. زمّرت سيارة خلفه بصوتٍ عالٍ لكن سامي لم يبالِ.

التفت سامي عن يمينه مرّة أخرى ليرى الرّجل ذا العمامة مـن جديـد. استقصـى المحطّـة بعينيـه لكنـه لم يـره. كـأنَّ الأرض انشـقت فابتلعتـه! مـاذا؟! قـال "سـامي الغريـب" لنفسـه. ***لكـن .. يستحيل!***

كيف لهذا الرَّجل – نفسه – أن يتنقَّل بهذه السّرعة الفائقة!

وهل كان ينتظره ، أم يَتَتَبَّعهُ؟

وما معنى هذه الابتسامة؟! ومَنْ يكون؟! وكيف!!

جاءتْ صرخةٌ من شماله لتوقظه من حيرته: «هو شارع أبوك»؟! حرّك سامي سيّارته ، وتجاوز الرجل غير آبهٍ لصرخاته. ظلّ سامي يتلفّت عند كلٍّ تقاطع بعده باحثًا عن الرجل دون جدوى.

وصل سامي إلى عمارة الهدى عند الساعة الثانية عشرة إلا خمس دقائق ظُهرًا. ركن سيّارته في الموقف ، وجلس يتفكّر فيما حدث. استقرّ على أبسط تفسيرٍ ممكن: الرجل ذو العمامة الخضراء - بكل بساطة - أخذ طريقًا أسرع.. ***كل ما حدث هو عبارة عن صدفة .. صدفة لا أكثر .. !***

لحظة دخوله المصعد نسي سامي الرجل ذا العمامة الخضراء وسلّم نفسه للمشكلة الأهم التي تنتظره في الطابق الرّابع.

(٤)

خرج من المصعد متوجّهًا إلى شقّته ، متجاوزًا الشقّة رقم: (٤١). شقّة جاره المصري "رمزي حافظ" وزوجته "مريم أبو النّجا". استنشق سامي الرائحة التي (ملأت) الرواق: ***ملوخية مريم*** ، هكذا قال سامي لنفسه!

أخرج مَيدَاليّته من جَيّبِ ثَوْبِه .. وضع المفتاح في الباب .. أدار القفل ثم دخل الشقّة . وجدها كما تركها. أشعّة الشّمس كشفت عن ذرات الغبار المتناثرة على مسطّحات شقّته. الوسادات الملوّنة غير المرتبة على "كنبة" غرفة الضيوف بدت باهتة لم يتغير مكانها. هي كما هي منذ شهور.

كوب القهوة والجريدة المفتوحة التي كان يقرؤها قبل ثلاثة أيّام ما تزال على طاولة الطعام. أصاب الشقة ركود بعدما صار الذي صار قبل ستة شهور.

مرّ على غرفة شقيقته الصغيرة "سلمى". لم تنم في غرفتها

منذ فترة. دُميتُهَا الصغيرةُ كانت مُلقاةً على ظهرها قرب الأنابيب الطبية التي ملأت جانبي سريرها. تجاوز غرفة سلمى، ووقف للحظات عند غرفة والدته. لم يقوَ على فتح بابها.

أطرق برأسه .. إن أجمل ما يمكن أن تُهديه لك الأيّام أن يتوافق رحيلُك عن هذه الدنيا مع رحيل أمّك. توصّل سامي إلى قناعة بأنَّ والدته فعلاً رحلت .. لا فائدة من البحث أكثر، فقد اختفت قبل ستة أشهر دون أن تترك أي أثر.

ومع ذلك، وجد سامي نفسه يقول: ***لو كانت أمّي هنا*** ... جاءته هذه الفكرة رغمًا عنه كما كانت تأتي والدته عادةً إلى فِكره دون سابق إنذار.

دخل غرفته ووقعت عيناه على صندوق والدته: أحمر اللون في أعلاه دائرة بيضاء. كانت تستخدمه دائمًا لترك رسائل لسامي عندما تخرج من المنزل. بعضها محض رسائل تخبره أين ستذهب، وأخرى تخبره فيها كم تحبّه. تذكّر سامي ذهابه إلى الصندوق أوّل ليلة عندما اختفت والدته آمِلا أن يجد رسالة تخبره فيها أين ذهبت. فتحه، لكنه كان خاليًا كما هي الشقة الآن: خالية وباردة.

ذهب إلى سريره ثم أدار المكيِّفَ، وأخلد إلى سُبات عميق.

انتابتّه أحلامٌ غريبةٌ عن ذاك اليوم المشؤوم الذي اختفتْ فيه أمُّه. طلبتْ منه أن يأتيَ معها لكنّه رفض .. طلبت منه أن يأتي لمقابلة (الحكيم). قال سامي: «إن الأطباء هم مَن بيدهم علاج "سلمى"، أي شيء آخر غير العِلم سيكون مضيعة للوقت»! في المقابل عَذَرَ سامي والدته. من الطبيعي أنْ تبذل الأمُّ أي شيء، بل كل شيء، لأجل طفلتها.

«أنت لا تفهم يا سامي. هذه المرّة مختلفة. هذا الحكيم

مختلف». اغرورقت عيناها. ملامح محيَّاها بدأت تختفي شيئا فشيئا من ذاكرته. تركها تذهب .. وذهبت ... ثم لم تعد أبدا.

في كابوسه؛ حَلم أنّ الشرطة وجدوا جثّتها ، لكنهم في الواقع لم يجدوها. وسامي في الواقع فقد الأمل. ستة أشهر تبدو قصيرة ، لكنّها طويلة جدًّا إذا ما امتلأت بالألم. وهكذا كانت الأيّام التي تلت اختفاءها: مؤلمة ، متعبة ، صعبة. استحيى سامي أن يُخبر أحدًا بأنّه فقد الأمل. كتم ذلك عن الجميع ، وعن نفسه أحيانًا. إذ تلوح من حين إلى حين بارقةُ أملٍ ، قبل أن تصفعه الحقيقة مجدَّدًا كلّما عاد إلى شقّته الخالية.

(٥)

استيقظ سامي على صوت هاتفه المتنقّل يرن. بعينٍ واحدة استرق نظرة إلى الشاشة «د. محمد الفرهاد يتّصل». أغمض عينه وأعاد رأسه إلى الوسادة. لوهلة كاد أن يستغرق في النوم ، لكنه نهض فزعًا بعد أن استوعب مَن المتّصل. «أهلاً دكتور». جاء الصوت من الطرف الآخر: «سِيستر ، مممم ، تِل ذا دايركتور ممم آي نيد تو كانسل فـ..» ، نادى سامي: «دكتور محمد»؟ أكمل الدكتور حديثه إلى الممرضة ثم قال: «أيوه .. السلام عليكم سامي .. مممم سامي .. وصلتنا نتائج فحوصات الأخت .. مممممم» ثم سمع سامي صوت تقليب الصفحات قبل أن يكمل الدكتور: «الأخت سلمى .. نعم».

همس سامي: "*يا ربّ*" ، ثم قال بصوتٍ مسموع: «أيوه»! أخذ الدكتور محمد الفرهاد نَفَسًا ، وقال: «الفحوصات أوضحت أنها مممم ما استجابت للمحاولات العلاجية الأخيرة .. بل يؤسفني أن أقول أنَّ حالتها ...».

شعر سامي أنَّ قلبه قد هوى من جبلٍ سحيق. لم يقل شيئًا.

ومضت أمامه صورٌ شتى: لسلمى؛ أمّه؛ مقبرة؛ بكائه ، ولسببٍ لم يستطع تفسيره رأى صورةَ الرّجل ذي العمامة الخضراء!

اخترق صوت الدكتور محمد الفرهاد تلك الصّور: ‹‹أستاذ سامي ، لا يوجد شيءٌ آخر يمكننا القيام به للابنة سلمى››. "الابنة سلمى". أوّل محاولة لإظهار التعاطف. بحث سامي عن الكلمات وبعد برهة ، قال: ‹‹ألا يوجد شيء يمكنني فعله؟ ماذا عن الذهاب إلى مستشفى في الخارج››؟ أجاب: ‹‹أستاذ سامي ، يعني ، مممم ، ابنتكم في مستشفى التخصصي ، يعني ، أحد أفضل مستشفيات المنطقة ، لن تجد شيئًا إضافيًّا في الخارج. مممم أنصح أن تبقى مممم سلمى لدينا لإجراء فحوصات بسيطة ، ثم تنقلها إلى المنزل. حالتها تسوء ووقتها قصير››.

قال سامي: ‹‹سآتي للمفاهمة››. قال الدكتور: ‹‹حسنًا ، سِستر ميك شور ذات وي ساين ذا..››. زفر سامي ، ونادى: ‹‹دكتور ، هل أنتَ معي››؟! قال الدكتور: ‹‹أوه ...عفوًا عفوًا سامي. بإمكاننا مناقشة الترتيبات المنزلية اللازمة ، كما سنوفّر لك الأدوية المهدّئة اللازمة. لكن مممممم لا داعي أن تأتي للزيارة الآن ، سلمى نائمة تحت تأثير المخدّر ، وسنقوم بفحوصات إضافية .. بإمكانك زيارة الابنة سلمى بعد ساعتين›› ، ثم أغلق السمّاعة.

تشوّش عقل سامي تمامًا. لم يعرف كيف يتصرّف. ما الذي يستطيع فعله إذ لم يكن هناك ما يمكن فعله أساسًا؟! لا يملك سوى أن يذهب إلى زيارتها كما يفعل دائمًا.

غريبٌ كيف يتعايش المرء مع المصائب. أول الأمر كان سامي يقضي أغلب وقته في المستشفى سواء كانت أخته نائمة أم لا. حاول القلب أن يخدّر مشاعره ، فصار سامي يقضي وقتًا طويلاً عندها ، إلا أنّه عاد إلى العمل ، وصار ينام العصر في شقّته قبل الذهاب إليها. يستمر القلب في عملية التخدير: صار يلعب بهاتفه قليلاً؛

يستقبل المكالمات شيئا فشيئا بدلاً من تخصيص كلٍّ وقته للدعاء والتمنّي. لكن هذه كلّها شكليات. تبقى الروح مكسورة تنتظر اليوم الذي تسمع فيه الأخبار السارة لتلتئم .. اليوم لم يكن ذلك اليوم.

قامَ من سريره حائرًا. إلى أين يولّي وجهه؟ كان يودُّ أنْ لو بكى في حُضن أمه ، ولكن...

لم تكن "سلمى" محض أخت. كانت أخته ، وصديقته الصغيرة ، وحياته. عندما تنظر إلى الأعلى: إليه ، بعينيها العسليتين وبابتسامتها الصغيرة ، كل هموم الدنيا كانت تختفي. دهشتها كانت دهشته ، وفرحتها تفرحه ، وآلامها تؤلمه. حاول أن يتمالك نفسه ، وأخذ نفسًا عميقًا متقطّعًا. دمعةٌ واحدة استطاعت أن تشق طريقها على خَدِّه المحمرّ.

(٦)

رنَّ جرس الباب الذي حاكى زقزقة العصافير. توجَّه سامي ببطءٍ نحو الباب ، وخمَّن هُويّة الضيّف. نظر من عين الباب وإذا به الشخص نفسه الذي توقّعه. فتح الباب ، وقال بنبرةٍ حاول أن يغذّيها بنوع من الترحيب: «أهلاً وسهلاً بالجار».

إنْ كان سامي يُعدُّ طويلاً في عُرف السعوديين فإنَّ جاره "رمزي حافظ" كان شيئًا آخر تمامًا. كان سامي يضطر أن يرفع رأسه قليلاً كلما تحدّث إليه. وكما كان ذلك طوله كانت بقيّة ملامح وجهه كبيرة: عيناه السودوان ، عميقتان وواسعتان؛ رموشه في غاية الطول؛ فمه الواسع كان عاملاً مهمًّا في الكشف عن أسنانه البيضاء الكبيرة. وأخيرًا أذناه: كانتا كبيرتين وبارزتين ، ومُلهِمتين جدًّا لزملائه إذا ما أرادوا أن يسخروا منه.

صافح "رمزي" "سامي" بيمينه وهو يحمل حافظةَ طَعام بيساره ثم قال: «أخبارك يا جميل»؟ قالها رمزي بابتسامته

العريضة التي كان يتخيّل سامي أن بإمكانها أن تعكس نور "الأبجورة" المجاورة! «ماشي .. كيف حالك وحال المدام»؟

تنهّد رمزي وقال: «مريم مشغولة بتبخير شقّتنا برائحة طبخها كعادتها». سأل سامي: «ملوخية»؟ ضحك رمزي ، وقال: «وصلك البخور إذن؟! ممتاز؛ ولنتأكد أن يستشري هذا العبق اللذيذ في جنبات شقتكم ، هذه الحافظة من مريم». مدَّ رمزي الحافظة بيديه ، وأخذها سامي بدوره ، وقال: «هيّا تفضّل ، سأعدّ لك كأسًا من الشاي» ودخل الاثنان الشقّة.

تلفّت رمزي إلى المسكن البالي؛ لم يستطع أن ينتظر أكثر من لحظات بسيطة حتى قال – بلهجته المصرية الساخرة – : «لا مؤاخذة .. حصل زلزال»؟ لم يعلِّق سامي ، لكنه اكتفى بابتسامة. أزاح سامي بعض الأكياس عن طاولة الطعام المتّسخة ، ووضع عليها الحافظة. لم يتصرّف رمزي كضيف؛ فمنذ اختفت أم سامي كان رمزي يزور سامي باستمرار. كانت مريم أيضًا تحضّر الطعام والقهوة وتهتم بسلمى من وقت إلى آخر. توجّه رمزي لُيحضر "الكاسات" ، وبدأ سامي يُحضّر الماء الذي سيغليه.

بدأ رمزي بالترتيب دون أن يستأذن. قال دون أن يلتفت إلى سامي: «ما يصحّش كده»! حاول سامي أكثر من مرّة أن يثنيه عن الترتيب إلا أن رمزي كان يرفض بشدة ، قائلاً بتلقائية: «لا بد أن نبقي المكان مؤهّلاً للعيش فيه». أغلق رمزي دُرّجًا كان قد أخرج منه ملعقتين صغيرتين ، ثم أكمل: «لا تنسَ أن سلمى تعيش هنا أيضًا».

سلمى. ماذا سيفعل؟ لم يزل سامي مصدومًا من المكالمة ، لكن ظهور رمزي في هذا التوقيت شغله عن العودة إلى دوامة الأفكار السوداء.

يظنُّ البعض أنّ الضيوف في فترات العزاء ثقيلون؛ يأتون ويطيلون المكوث والنّاس يبكون فقيدهم؟ لكنّ هؤلاء الضيوف الثقيلين يلعبون دورًا مهمًّا في شغل ذوي المفقودين. وهذا الإشغال مهم ليتمكّنوا من التعامل مع هذا الواقع الجديد.

رِفقُ رمزي ومريم بسلمى كان فريدًا. السبب الرئيس - في تقدير سامي - يعود إلى قلبيهما الكبيرين؛ والسبب الثاني القوي أيضًا يعود إلى أنّهما لم يُنجبا طفلاً بعد سنوات طويلة من الزواج.

تحيَّر سامي إن كان عليه إخبار رمزي بمكالمة الدكتور. انتظر أن يغلي الماء بصمت. من الأمور النادرة - والتي كان يحبّها سامي جدًّا في عَلاقته مع رمزي - أنّ كليهما كانا لا يشعران بحرج إن لم يتحدّث أحدٌ بشيء. لم يتضايقا إن فرض الصمت نفسه.

وضع سامي الملوخيّة واللبن لنفسه والشاي لرمزي ، وانشغل كلٌّ بالذي أمامه .. لا حوارات .. الحوار الوحيد الذي جرى هو حوار ملعقتي سامي ورمزي: ملعقة رمزي تقرع كأس شايِهِ الزجاجي ، وملعقة سامي تضرب قاع صحن الملوخيّة.

ارتشف رمزي بضع رشفات ، ثم قام ومشى إلى الصالة التي كانت مفتوحةً على المطبخ. أزاح الجريدة القديمة وبعض الأوراق وكان يستعد لرميها في القمامة قبل أن يقول بنبرةٍ متسائلة: «سامي .. أتريد أن أرميَ هذا المظروف المغلق»؟ ابتلع سامي لقمةً من الملوخيّة ، ثم قال بنبرة مستغربة: «أي مظروف»؟! أشار رمزي بسبّابته اليُمنى إلى يده اليُسرى التي كانت تحمل مظروفًا أصفر ، ثم قال: «هذا».

اعتدل سامي في جلسته مسندًا ظهره إلى الكرسي. نظر بعينين فاحصتين ، ثم قال: «لم أرَ هذا المظروف من قبل .. أين وجدتَه»؟ أجابه رمزي مشيرًا إلى الطاولة: «هنا على الطاولة عند الجريدة المفتوحة»! لكن سامي كان آخر من جلس عند الطاولة

وهو مَنْ وضع الجريدة هناك. لم يتذكر سامي بتاتًا أنه أخذ أو وجد أي مظروف.. ***يستحيل أن يكون المظروف هناك من قبل؟!*** مدّ سامي يده من بعيد وقال: «أشوف»!

خطا رمزي بضع خُطوات ، ثم أعطاه إياه. قلَب سامي المظروفَ مرتين؛ لا مُرسِل ولا مُرسَل إليه .. فتح المظروفَ ووجد رسالةً من ورقة صفراء كأنّها رقعة فرعونية قديمة. وقف رمزي خلفَ سامي الذي جلس ليقرأ الرسالة. كُتِبَ بالخطّ الكوفي:

«إلى السيّد سامي ..

وصلنا طلبكم الذي يفيد برغبتكم في لقاء الحكيم. نفيدكم أن البوّابة ستكون متاحةً للمرور في يومين من هذا العام في مدينة الدرعية. سنكون متواجدين من زوال الشمس وحتى غروبها في التواريخ المذكورة أدناه:

١. ثالث يوم خميس من شهر ربيع الآخر.

٢. ثالث يوم خميس من شهر شوّال.

ستجدون العنوان المفصّل في هذه الرّسالة؛ إذا قرأتها على وجه القُرص الذي يأتي إذا انفكّت الظُلمة.

أخيرًا نود أن نؤكّد: إن دخولكم بالخيار، وما بعده ليس كذلك.

وتقبّلوا تحيّاتي..

الشريف الحذفاني.

المدير المكلّف – إدارة التنقّل.

مكتب الحكيم».

قَلَّب سامي الرسالةَ في ذهول بحثًا عن تكملة .. عن عنوان مفصَّل .. عن إضافة .. ***أي شيء!*** شعر أن الرسالة انتهت فجأة. أمواجٌ من الأسئلة اجتاحته. قطَّب حاجبيه ، وقال: «"**إذا انفكّت**

الظُّلمة؟!" أية ظُلمة؟ "**دخولكم بالخيار ، وما بعده ليس كذلك**"؟! ما "بعد" ماذا؟! و"ليس" كماذا»؟!

تبادل سامي ورمزي الورقة الصفراء وقرآها مجدّدًا حوالي أربع أو خمس مرّات. وضع سامي الرسالة على الطاولة وتأمّلها أكثر قبل أن يقف دون إنذار. ومع وقوفه المفاجئ ارتطم فخذه بالطاولة؛ فاهتز كأس اللبن الذي كان يشربه وسقطت قطرة على أعلى يمين الرسالة.

لم يبالِ سامي ، وأشار إلى الرسالة بسبّابته: «مهلاً .. الموعد الأوّل هو ثالث يوم خميس من شهر ربيع الآخِر قبل غروب الشمس». تأمّل التّاريخ للحظات ، ثم انطلق إلى مكتبه ، وأخذ مجموعة أوراق من ضمنها نسخة من بلاغ الشرطة. دوّن تاريخ بلاغ اختفاء والدته ، ثم التفت إلى "روزنامة" على مكتبه. أخذ يقلّبها حتّى وقف عند...

وكأن قلبه عاد إلى العمل في تلك اللحظة ، أحسّ سامي بدقّات قلبه .. دقّات قويّة تضرب صدره الذي عشعش فيه السكون منذ شهور.

جاءه رمزي ونادى: «ما بك»؟ قال سامي وعيناه تُحدِّقان في الورق: «رمزي! أتعلم متى اختفت والدتي»؟! وقبل أن يجيبه رمزي قال سامي: «ثالث يوم خميس من شهر ربيع الآخِر! إنه اليوم نفسه الذي اختفت فيه أمي! .. الموعد الأول نفسه ، المذكور في الرسالة» ، قال رمزي: «دعني أرى». ناول سامي رمزي بلاغ الشرطة الذي تفحّصه ثم قال: «لكن البلاغ مسجّل في يوم الجمعة» ، قال سامي: «نعم. البلاغ كان بعد يوم من اختفائها».

قال رمزي: «هل تعتقد أن الرسالة حقيقية»؟ أجابه سامي مشدوهًا: «وما عساها أن تكون إذن؟ رمزي ، الرسالة تتحدّث عن

آخر محطّة معروفة لأمي .. الدرعية»!

تأمَّل سامي للحظات ، ثم قرأ الرسالة من جديد ، ثم قال دون مقدمات: «إنّه اليوم»! أشار إلى الرسالة ، وأكمل: «قالوا: إنّهم سيتواجدون مرّتين في السنة ، والموعد الثّاني يوافق اليوم ، ثالث خميس من شهر شوّال قبل غروب الشمس»!

نظر سامي إلى السّاعة التي كانت تشير إلى الرابعة عصرًا. التفت إلى رمزي ، وقال: «لا وقت للاتّصال بالشّرطة ، ولن يصدّقونا على أية حال» نظر مجدّدًا إلى السّاعة ، ثم أكمل: «فلنذهب الآن ، ليس لدينا وقت».

أجابه رمزي: «الرسالة تقول: "الدرعية" من غير تفصيل .. ما رأيك»؟ شيءٌ ما بداخل سامي أراد أن يذهب .. أمل لقاء أمّه كان أقوى من كل الشكوك. قال بحزم: «لنتحرّك ، وسنحلّها في وقتها».

أجابه رمزي: «إذًا هيّا بنا».

تحرّك الاثنان ، ثم قال رمزي: «ماذا تتوقع أن نجد هناك»؟

قال سامي بلهفة: «لا أعلم. أي معلومة عن أمي ، أو ...» ، ثم سكت.

قال رمزي: «أو ماذا يا سامي»؟ أجابه سامي: «لا شيء» في حين كان يريد أن يقول: «ربّما نجد طريقةً لمساعدة سلمى». لم يعرف سامي سبب خجله. هل كان لأنّ هذا يعني أنّه بدأ يؤمن بهذه الخرافات؟ بهذا الحكيم؟ أم خجلاً من عدم ذهابه مع أمّه قبل ستة أشهر؟ قال رمزي: «فلنذهب بسيّارتي هيّا».

فتحا الباب ووجدا سيّدة نحيلة ، متوسّطة الطول كانت على وشك طرق الباب. بمجرّد أن واجهتهم اختفت عيناها الخضراوان

الواسعتان خلف وجنتيها على إثر ابتسامة عريضة ارتسمت على محيّاها. توسّط وجهها الدائري أنفها الدقيق وحبّات نمشٍ متناثرة ، قالت مريم زوجة رمزي: «إيه رأيك بالملوخيّة يا سامي»؟ أجابها وجه سامي القلِق ، وقال رمزي بعُجالة: «أفضل ملوخيّة أكلتها في حياتي ، لكن علينا الذهاب الآن ، وسأشرح لكِ القصّة لاحقًا».

ترددت مريم قليلاً ، إلا أنّها ألقت نظرة أخرى فاحصة على سامي ، وقالت: «عمومًا ، لقد خرجتُ لأطمئن على الملوخيّة». ثم نظرت إلى زوجها ، وأكملت: «لقد نسيت مفتاح الشقة ، هل لك أن تفتح لي الباب»؟

امتعض رمزي ، ثم أدخل يده في جيبه الأيمن ، فقالت مريم بسخرية: «لا تتأفف .. أرجوك .. لو أنّ هناك جائزة لأسوأ ذاكرة لكان الكأس باسمك في صدر مجلسنا»!

أخرج رمزي يده خالية من غير شيء. تحسس جيبه الأيسر وجيبه الخلفيّ: لا شيء أيضًا ، فقالت مريم بنبرة المنتصر: «لقد نسيتها أنت أيضًا»! ***مناوشات هؤلاء الاثنين لا تنتهي***. تساءل سامي في نفسه يائسًا: ***ألا يتعبون***؟!

التفت رمزي إلى سامي ، وقال: «مفاتيحي داخل شقّتي أيضًا؛ يا مريم ، قلتُ لكِ...» قاطعه سامي: «سنذهب بسيّارتي ، هيّا». هزّ رمزي رأسه إيجابًا ، وقال لزوجته: «لا وقت لانتظار حارس العمارة كي يفتح الباب ، تعالَي معنا». توجّهوا إلى المصعد ، وقبل أن يغلَق بابه التفتت مريم إلى سامي وقالت بلكنتها المصرية: «ما اُتليش ، يعني رأيك إيه في الملوخيّة»؟! وأُغلق الباب.

الفصل الثاني: الرِّحلة إلى الدّرْعِيَّة

(١)

استقل الثلاثة السيارة ، وكان أوّل مَا همس مكيِّفها الذي بدأ ينفث الهواء الحار قبل أن يصير باردًا شيئًا فشيئًا. كانت العمارة في وسط الرياض ، أما الدرعية فتقع في شمال غربها؛ مما يعني أن عليهم أن يأخذوا طريق مكّة في اتّجاه الغرب ، ثمّ طريق الملك خالد في اتّجاه الشّمال. قد يقطعون هذا الطريق في حوالي ثلاثين إلى خمسين دقيقة حسب الزحام.

خرج سامي من مواقف العمارة السفلية ، وتوجّه نحو طريق مكّة السريع. تقافزت السيارة على الأسفلت المهترئ تُسابق الزمن. لم يزل متعجبًا – وهو يدير عجلة القيادة إلى اليسار داخلاً الطريق السريع – هل يعيشُ حُلمًا؟ ***ربّما لا أزال نائمًا على سريري .. ربّما لم يكلّمني د. محمد الفرهاد .. ربّما سلمى بخير .. بل ربّما تعافت! أو ... أو ربّما أمّي لم تختفِ والأشهر الماضية ما كانت سوى كابوس سيِّئ؛ سيِّئ جدًّا!***

ما هذه الرسالة التي لم يلحظها إلا في نفس اليوم المزعوم الذي ينتظره فيه "الحكيم"؟ لا شك أنه يحلُم. أغمض عينيه وفتحهما ، لكن لم يزل زحام طريق مكّة أمامه. دافع هذه الأفكار بالقشة الوحيدة التي كان يتمسَّك بها: قشّة الأمل .. أمل لقاء أمه ، وأمل شفاء أخته.

قاطع رمزي هواجسه وبدأ يشرح لمريم ما حدث. عندما انتهى قالَتْ: «حسنًا لكن ... الدرعية ليست صغيرة ، إلى أين تنوون الذهاب بالضبط»؟ التفتَ رمزي إليها ، وقال: «لا نعلم.

التعليمـات غـير واضـحة››. مـدّت مـريم يـدها ، وقالـت: ‹‹اديِّـني الرسالة››!

قـرأت الرسـالة: "سـتجدون العنـوان المفصّـل في هـذه الرّسـالة إذا قرأتهـا علـى وجـه القُـرص الـذي يـأتي إذا انفكّـت الظُّلمـة" ، ثم قالت وكأنها تسأل نفسها: ‹‹هممم ... متى تذهب الظلمة››؟

قـال سـامي بعـد لحظـات: ‹‹إذا جـاء النـور ، ألـيس كـذلك››؟ أعـادت مـريم الجملـة: ‹‹سـتجدون العنـوان المفصّـل في هـذه الرّسـالة إذا قرأتهـا علـى وجـه القُـرص الـذي يـأتي إذا انفكّـت الظُّلمـة››. أكملت مريم تساؤلها: ‹‹وما القرص الذي يأتي إذا جاء النّور››؟

أطـرق رمـزي برأسـه وبعـد لحظـات قـال سـامي بحماسـة: ‹‹الشمس››! ثم سأل رمزي بعدها: ‹‹تفسير الرسالة إذن أننا سـنجد العنوان على الشمس .. هذا غير منطقيٍّ››.

أرادتْ مريم أن تكرر تشكيكها في الرحلة كلها ، كانت تـود أن تقول: ***لماذا لا يكون كل هذا مجرّد مزحة ثقيلة؟*** إلا أنهـا عضّـت علـى لسانها وسكتت؛ وسرعان ما ذهبت هـذه الفكرة حتى أتت أخـرى. قالـت ببطء: ‹‹رمـزي .. الرسـالة لم تقـل أننـا سـنجد العنـوان علـى الشـمس .. قالـت أننـا سـنجد العنـوان: "إذا قرأتهـا علـى وجـه القُـرص".. ممـا يعـني أن الرسـالة يجـب أن تُوضـع علـى الشـمس›› ، ثم قالـت بحماسـة: ‹‹سـامي أوقـف السـيّارة››! قـال سـامي: ‹‹مـاذا تريدين››؟ قالت: ‹‹حتشوف››!

برغم أنهم كانوا يسـابقون الـزّمن أوقـف سـامي السـيارة عنـد طريـق الملـك خالـد بقُـرب سـور جامعـة الملـك سـعود. نزلـت مـريم ورفعت الرسالة حتى صارت بينها وبين أشعّة الشمس.

صرخت مريم: ‹‹تعالوا بسرعة››!

نـزل سـامي ورمـزي ، ثم أكملـت مـريم: «كنـتُ وأخـواتي نكتـب بالليمون على الورق .. نسمّيه الحبر السحري ، ثم مع الحرارة تبدأ الحروف بالظهور .. أظن أن الآلية مشابهة هنا ، انظُرا».

اخترقت أشعّة الشمس الورقة وبدأت تتشكّل حروف أخرى تحت توقيع شريف الحذفاني. أخذ الثلاثة يتأمّلون الحروف التي كانت تطفو على الرسالة كما تطفو الجثث الغارقة. بدأ رمزي بالقراءة:

«توجّه إلى المكان الذي ينتهي فيه ما ينقص بازدياده؛

ثم اتبع بحذر، ما كان اسمه مثل لونه؛
إذا تعدّدت السّبل؛ اخرج من الباب الذي يستحيل فتحه؛
وتحرّك بعدها نحو ما تبدأ السّلام به؛
دكّان بين الدكاكين مرادك؛ كما كانت تكتب الأسماء كتبنا اسمه»!

سكت الثلاثة؛ وتأملوا الحروف مرّة أخرى .. مزيد من الطلاسم. التفت سامي إلى رمزي ونظر إليه دون أن يقول شيئًا في حين قرأت مريم الرسالة مجدّدًا. لم يجد أيٌّ من الثلاثة كلمةً تعبّر عمّا يدور في خلدهم. منظر الشمس الذي دنا إلى المغيب أيقظ سامي ، وقال بحسم: «لا وقت لدينا .. هيا».

(٢)

أدار سامي مقود السيارة ، وأكملوا السير شمالاً. بحماسة حاولوا تفكيك الطلاسم من جديد ، قال رمزي: «لم أرَ دعوة بهذا الشكل من قبل. قل لنا يا شريف يا حذفاني أنّك لا تريد أن نحضر وأرِحنا» ، ثم قال: «حسنًا أين نذهب»؟ قالت مريم ساخرة: «سهل جدًّا .. **إلى المكان الذي ينتهي فيه ما ينقص بازدياده**»، قال سامي: «لحظة! هذه أحجية قديمة: أليس الجواب

هو الحُفرة»؟ قالت مريم: «لا. الحفرة كلّما أخذْتَ منها كبُرتْ. تلك أحجية مختلفة» ، قال رمزي متأمّلاً: «الشيء الذي ينقص بازدياده ...».

حاول الثلاثة معرفة الجواب دون جدوى.

(٣)

لم يكن الطريق مزدحمًا. كانت البيوت عن شمالهم ساكنة. بيوت لم يُرسل إليها (الشريف الحذفاني) رسالة. بيوت خَلَتْ من أوهام علاجٍ عند حكيمٍ مجهول. عادت الأفكار تغزو ذهن سامي. ***هل سأجد أمّي عنده؟ أم*** ... عاد الطريق ليأخذه من أمواج الأفكار المتلاطمة إذ وصلوا مشارف "الدرعية". قال سامي: «هناك مدخلان للدرعية ، الأول: يأخذك إلى الدرعية القديمة ، والثاني: إلى الحديثة». علّقتْ مريم: «وأيّهما نأخذ»؟ أجابها سامي: «لديَّ إحساس أن وِجهتنا يجب أن تكون إلى الدرعية القديمة» ، سأل رمزي: «هل أنت متأكد»؟ أجابه سامي: «لا .. لكن علينا أن نتخذ قرارًا ، وأنا أقول الدرعية القديمة». قبل أن يعلّق رمزي أدار سامي مقود السيارة ودخل إلى الدرعية القديمة ، قال رمزي بتعجّب: «لماذا فعلت ذلك؟! اصبر قليلاً»! قال سامي وعينه على الطريق: «الوقت يداهمنا ، و.. لا أعرف ... الدرعية القديمة مكانٌ تراثيٌّ يتماشى مع الهوية المجهولة التي نتعامل معها».

أشارت مريم إلى لوحة إرشادية وقرأتها بصوتٍ مسموع: «البلدية؛ المقبرة؛ البجيري؛ مركز الأحوال المدنية؛ سد العلب ... إلى أين الوُجهة الآن»؟ قال سامي: «لحظة! مريم ، اقرئي السطر الأول من التعليمات»؛ قرأت مريم: «**توجّه إلى المكان الذي ينتهي فيه ما ينقص بازدياده**».

أكمل سامي وهو يشير إلى اللوحة الإرشادية: «حسنًا أية

الأمكنـة ينتـهي فيـه مـا يـنقص بازديـاده»؟ قـال رمـزي بحماسـة: «وجدتُها. العُمُر ينقص كلما ازداد؛ فكلما كبرتَ في العمر قارَبَ على الانتهاء. وإذا انتهى ... يعني أنّك مُتَّ؛ فالإجابة ، هـي: مكان الموت؛ المقبرة».

(٤)

ترقّب الثلاثة حتى اقتربوا من المقبرة. تحوّلت الشوارع إلى أزقّة ضيّقة. سور المقبرة يحفّهم عن اليمين ، وبيوت الطين القديمة تحفّهم عن الشمال. كان انتباه سامي منصبًّا على أن يمرّ بسلامٍ من هـذا الطريق الضيّق. انشغل رمـزي ومـريم بقـراءة الكتابات العشـوائية الـتي كسـت سـور المقبرة؛ لعلّهما يجدان إشارة تساعد على فكّ الشفرة التي بين أيديهم.

ركن سامي السيارة عند باب المقبرة التي كانت خالية .. لا معزّين ولا بواكي ، قال: «لم يمت أحدٌ اليوم فيما يبدو». وقفوا عند بوابة المقبرة ، وفي تلك اللحظة تذكّر سامي أن النساء ممنوعات من دخول المقابر. تلفّتَ سامي لكن لا حارس ولا مراقب موجود.

تخطّى الثلاثة بوابة المقبرة ، ودخلوها ببطء. كانت مقبرة كبيرة لم يكسها سوى لون التراب. طلب سامي الرسالة وقرأ التعليمات من جديد ، وقال: «ثم اتبع بحذرٍ ما كان اسمه مثل لونه .. أعتقد أن المقصود: (البرتقال)؛ فاسمه مثل لونه؛ لكن مَنْ يزرع برتقالاً في مقبرة؟ بكل تأكيد المقصود شيء آخر. لا شك في ذلك».

لم يُجبه أحدٌ؛ مشى الثلاثة بين القبور يبحثون عن حل اللغز. تناوب على الرسالة كلٌّ من رمزي ومريم وسامي: عينٌ على الرسالة ، وعينٌ على الشمس التي بدت وكأنها تَغْرُبُ في عين حمئة

أسرع مما ينبغي.

كانت أعينهم تتلقّف كل شيء: الألواح الطينية على القبور ، السور المهترئ ، خزّان الماء الذي علاه الصدأ. كان كلُّ شيءٍ ساكنًا ، لا طيور تزقزق ، ولا غبرة تتحرّك ، ولا مُعزّين يبكون. شعر سامي أنَّ الرياح أخذتْ شهيقًا وكتمت أنفاسها تترقّب ما الذي سيقومون به.

توقَّف سامي فجأةً فارتطم به رمزي الذي كانت عيناه مُسْلَطتين على الرسالة. نادت مريم: «هيه .. ماذا دهاكم»؟ اتّسعت عينا سامي ، وقال بصوتٍ خافت تملؤه دهشة: «كنتُ مخطئًا» ، قالت مريم: «لا بأس يا سامي .. على الأقل حاولنا. لم تكن هناك مبررات واضحة لتصديق أن هذه الرسالة حقيقية ، لنرجع الآن إلى الشقة و...» ، قاطعها رمزي ، وقال: «حبيبتي ، ما رأيك أن تغلقي فمكِ الجميل قليلاً وتفتحي عينيكِ؟ انظري»! وأشار رمزي مشدوهًا إلى ... إلى نبتة ملتصقة بسور المقبرة. كانت أوراق النبتة ذابلة ومغبرة. لكن ... بين الأوراق بَرَقَتْ فاكهة برتقالية دائرية ناضجة! كألعابٍ نارية ، تفجّرت مشاعر مختلفة في صدر سامي؛ إثارة ودهشة وحيرةٌ ملأت كيانه. أما الأسئلة فكانت تهدر هدرًا. لا يمكن أن تكون هذه خدعة. لا يمكن!

اقترب من البرتقالة ، وما زاد دهشته أنّها كانت نظيفة لامعة! اقترب سامي وقطفها. أدارها في كفّه. لم يرَ أية علامة أو رمز. قاطع رمزي تأمّل سامي ، وقال: «انظروا .. انظروا إلى ركن السور» ، وأشار إلى حيث التقى سور المقبرة الشرقي والشمالي على بُعد عشرة أمتار عن شجرة البرتقال. قال سامي: «لا أرى شيئًا .. الزاوية مغلقة» ، قال رمزي بصبرٍ مصطنع: «اقترب وألقِ نظرة أخرى».

عندما نظر سامي مرة أخرى لم يرَ إلا ما رأى أول مرة: ركن

السّور. ولكن عندما اقترب الثلاثة وجدت مريم وسامي زاوية منبلجة قليلاً ظَهَرت لهما - حيث كان ينبغي أن يكون ركنًا - بوّابة تفضي إلى ممرٍّ ضيق.

(٥)

نظر الثلاثة إلى بعضهم البعض في حَيرة. لم يذهب أحدهم إلى هذه المقبرة من قبل لكن ... هل كان هذا الزقاق موجودًا من قَبل؟ عرضُ الزقاق كان ضيقًا بالكاد يكفي لشخص. قالتْ مريم: «فلنتريّث ونفكّر قليلاً؛ نحن في مقبرة ولا نعلم إلى أين سيأخذنا هذا الطريق».

نظر سامي إلى الممرِّ من جديد: كان خاليًا من أي شيء. السماء مكشوفة من فوق الممر ، قال رمزي: «لعله يأخذنا إلى منطقة أخرى في الدرعية».. بمزيجٍ من السخط والسخرية مدّتْ مريم يديها تجاه الزقاق وقالت لزوجها: «إن كنتَ متفائلاً فلِمَ لا تذهب أنتَ أولاً»؟! أجابها رمزي: «ولمَ لا؟ هَيًّا»..

دخل رمزي أولاً ، وتبعه الباقون. انعطف الزقاق يمينًا فشمالاً حتى اصطدموا بجدارٍ انقسم عنده الطريق إلى اتّجاهين: اليمين والشمال. مرّة أخرى كان موعدهم مع إشارة أخرى من ثمرتها البرتقالية التي وجدوها هذه المرّة عند الشق الأيمن من الطّريق. اتّجهوا نحوه ، ومشوا قليلاً قبل أن ينقسم الطريق مرة ثانية ، ثم ثالثة ، ورابعة ، وخامسة. استمرّوا يتبعون الثّمرة ، واستمرّ الطريق ينقسم ، حتّى توقّفوا عن العدِّ.

ازداد الطريق ضيقًا ، وبدأ سامي يشعر بالاختناق المصحوب بشيء من الدَّوار. لم يكن سامي يحب الأماكن الضيقة. كان يعاني دائمًا إذا ركب طائرة أو سفينة أو مصعدًا كهربائيا. تسارعت نبضات قلب سامي ، ثم - وكأن الزقاق استجاب له- أفضى بهم

الطريقُ أخيرًا إلى ساحة مربّعة فسيحة.

امتلأت الجدران بالأبواب مختلفة الأنواع والأشكال والألوان؛ بعضها من حديد ، وأخرى من خشب. بعضها حمراء اللون ، وأخرى صفراء ، وزرقاء ، وبيضاء ، وسوداء. بعضها به فتحة صغيرة من أعلاها ، وأخرى من أسفلها. وجدوا بابًا مفتوحًا ، وبابًا عليه أرقام ، وبابًا عليه قفلان ، وآخرَ دون قفل.

قالت مريم متضجّرةً: «يا سلام»!

نظر رمزي إلى السماء ثم إلى ساعته ، وقال بقلق: «الوقت داهمنا .. ليس لدينا تقريبًا سوى نصف ساعة». أخذت مريم الرسالة. قرأتها ، ثم رفعت رأسها ، وقالت: «الرسالة تقول: إن الباب الصحيح هو الباب الذي يستحيل فتحه»!

توجّه رمزي نحو أوّل بابٍ عن يمينهم – والذي صُنِع من حديد – حاول فتحه إلا أنه كانَ مقفلاً بإحكام. قبل أن يُعلن أن هذا هو الباب المرجوّ ، حاول سامي فتح الباب الذي يليه. كان مصنوعًا من خشب وعليه أربعة أرقام ١٩٨٤. حاول أن يدفع الباب؛ فلم يُفتَح ، ثم حاول أن يسحبه دون جدوى!

أسرعوا محاولين مع بقية الأبواب. كلّما حاولوا فتح باب وجدوه مقفلاً. توقفوا ليلتقطوا أنفاسهم ، ثمّ قالت مريم ما كان يدور في بال الجميع: «حتّى لو وجدنا الباب الصحيح؛ فالرسالة تقول: «مِن الباب الذي يستحيل فتحه؛ فكيف نفتحه إذا وجدناه»؟! قال رمزي: «أبواب الخشب بالإمكان كسرها أليس كذلك؟ في حين لا يمكن كسر الحديدية .. هل نحصر بحثنا في الأبواب الخشبية»؟

لم يُجبه أحدٌ. ازداد سامي قلقًا مما جعل التفكير أصعب وأصعب. وَمَضَتْ صورٌ مختلفة: أخته ، أمّه ،الدكتور محمد الفرهاد

و.. الرجل ذو العمامة الخضراء. قال رمزي بعد لحظات: «ماذا عن هذا الباب المفتوح»؟ ثم اقترب إلى الباب حتى واجهه. لحقه سامي ومريم ، ونظروا إلى ما كان خلف الباب. وجدوا جدارًا يبعد قُرابة المتر من الباب. أدخل سامي رأسه ليجد ممرًا طويلاً يمتدّ إلى اليمين والشمال. قالت مريم: «هذه حيلة .. هذا الباب هو الوحيد المفتوح. لنقرأ الرسالة من جديد» ، تساءل سامي: «لو تأمّلنا بقية الأبواب لوجدنا أن هناك صفة مشتركة: جميعها مغلقة. لكن هناك شيئًا واحدًا في هذا الباب مختلف تمامًا عن البقية». قال رمزي – وكأنه يُكمل كلام سامي – : «الشيء الوحيد هو أن هذا الباب مفتوح».

قالت مريم بتضجّر: «لكن الوصف يقول: الباب يستحيل فتحه»! أجابها سامي وهو يتأمّل: «صحيح. لكنني أشعر أن هذا الباب هو المعنيّ».

فتحت مريم فمها لتجيبه ، إلا أن رمزي سبقها وقال – وهو يمسك الباب المفتوح – : «هذا هو الباب»! قالت مريم: «ولِمَ»؟ أجابها رمزي: «هل يمكنكِ فتح بابٍ مفتوح أصلاً»؟ قبل أن تجيبه سبقها سامي هذه المرّة: «يستحيل! يستحيل فتح باب مفتوح أصلاً! هيا هيا» سكتت مريم لتستوعب.

قال رمزي: «يمينا أم شمالا»؟ قالت مريم – وهي لا تزال تحاول استيعاب أحجية الباب المفتوح – : «سهلة. نتحرّك نحو اليمين. الرسالة تقول: **تحرّك بعدها نحو ما تبدأ السّلام به ..** ونحن نبدأ السلام باليمين. استطعتُ معرفة جواب هذه الأحجية منذ أن كنّا في السيّارة» ، قال رمزي بسخرية: «جميل . ذكّريني أن ألصق لكِ نجمة». هنا تدخّل سامي: «لا وقت ، فلنتوجه إلى اليمين».. مشوا بعجالة .. وتمتمت مريم: «آه .. فهمت الآن .. الباب مفتوح؛ فكيف نفتحُ بابًا مفتوحًا أساسًا» ، قال رمزي ببرود:

«حمداً للّه على سلامتك»!

(٦)

وصلوا أخيراً إلى نهاية الزُّقاق . وجدوا أنفسهم في وسط ساحة ترابية مليئة بالدكاكين . توسّط الساحة حوضٌ من طين خالٍ من ماء . كلّ الدكاكين برغم تنوّع حجمها وشكلها كانت مغلقة . نظروا مِنْ حولهم:

"دكّان جعفر الداود لبيع أسعد أنواع الأكفان" ، "عبدالعزيز الساعاتي لتعطيل الساعات الصالحة" ، "الأجل الداني للوصل المحدود" ، " دار عجزة القيروان لإيواء الأطفال" ، "صرّاف العاجرة-نوفر خدمة عدم استرداد مالك" ، "العطّار عبّاس السامي لأجود النباتات الضارّة".

قال رمزي مشدوهاً بلهجته المصرية: «بيستهبلوا»!

دار الثلاثة بحذرٍ حول أبواب الدكاكين ، أخذت أحذيتهم تنفث الغبار مع كل خطوة. قالت مريم بتأمّل: «"دكّان بين الدكاكين مرادك؛ كما كانت تكتب الأسماء كتبنا اسمه"! كيف كانت الأسماء تُكتَب»؟

قال رمزي بقلق: «لا أعلم .. لكن لدينا دقائق معدودة قبل مغيب الشّمس». فجأة تذكّر سامي شيئاً وارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة. أشار سامي إلى مبنًى من طين ، وقال: «هناك .. هذا الدكّان مرادنا».

قال رمزي: «ولماذا تظنّ أنّ "الأجل الداني للوصل المحدود" هو المكان»؟ أجابه سامي – وقد بدأ يمشي ببطء نحو الدكان – : «لأنه الدكان الوحيد الذي لا تحتوي حروف اسمه على نقاط».

نظرت مريم ورمزي إلى بعضهما البعض بحَيرة. قال سامي:

«انظرا إلى أسماء جميع الدكاكين: كل الأسماء تحتوي على حروف منقوطة ، إلا محل الأجل الداني ، نقطة الجيم ونقطة النون ونقطتاً الياء ممسوحة. انظرا» وأشار إلى لوحة الدكان ، ثم أكمل: «العرب قديما لم يكونوا يضعون النقاط على الحروف؛ لذلك (الأجل الداني) مرادنا»..

لم ينتظر سامي تعليقًا من رمزي أو مريم وأكمل المشي.

وصل عند باب الدكان المغلق. كان خشبيًّا مطرّزًا باللون الأخضر والبنفسجي والأحمر. أحس سامي بهواءٍ بارد يخرج من جنباته.

وجدوا لوحة مُغبَّرة على باب. مسح سامي اللوحة بكمّه وقرؤوا ما كُتب: «استحضر مرادك ثم اطرق الباب ، فإذا دخلتَ ونجحتَ حقّقتَ مرادك» ، قال رمزي: «نجحت؟! نجحت في ماذا»؟! لم يُجبه أحد. التفتَ سامي وقال: «ما رأيكما هل ندخل»؟ قالت مريم: «فلنتمنَّ أولاً». تفاجأ سامي ورمزي. كانت مريم أكثرهم تشككًا طوال الرحلة ، فما بالها توجّههم إلى التمنّي؟ لكن الوقت قد تأخّر ولا مجال للتعليق.

تهامس رمزي ومريم ولم يقل سامي شيئًا. قال رمزي: «هاه؟ جاهز يا سامي»؟ قال سامي: «لحظة». سكت سامي يتأمّل: ***هذا جنون ! لن أطلبَ من كائنٍ وهمي شيئًا. سأجد أمّي بنفسي***. قال رمزي: «لا وقتَ لدينا يا سامي. ستغرب الشمس!». نظر سامي إلى رمزي وقال: «فلندخل». قال رمزي: «هل استحضرتَ مرادك»؟ لم يُجبه سامي ، لكنه مدَّ يده ببطء ، ثم طرق.

بعد أن أرخى يده انطلق صوتُ أذان المغرب معلنًا غروب الشمس. وقف الثلاثة يترقّبون. حالما انتهى المؤذّن بدأت أصوات همسات تعلو من داخل الدكّان ، ثم انفتح الباب بقوّة. وجدوا أمامهم الرجل ذا العمامة الخضراء: جاحظ العينين مبتسمًا! وقبل

أن يقول أحدهم شيئًا احتضن الرجل سامي ، وجرَّه إلى الداخل. بعدها لم يرَ سامي شيئًا سوى السّواد.

الفصل الثالث: سُكُونٌ !

(١)

شيئًا فشيئًا؛ بدأ سامي يستعيد وعيه. أحسّ بشيءٍ لزجٍ يلامس أطراف أصابعه. فتح عينيه وأدرك أن هذه المادة اللزجة تحيط به من كل الجهات. انتقل - في لحظة - من سكون السُّبات إلى هلع القلق. فتح فمه ليستنشق وبدلاً من دخول الهواء ابتلع جزءًا كبيرًا من ذلك السائل.

رفع ظهره هلعًا ليجد نفسه قد كسر سطح السائل. أخذ شهيقًا قويًّا ، واضطرب صدره وهو يلتقط أنفاسه. مسح السائل من عينيه ثم تلفّت حوله. لم يصدّق سامي ما رآه. أغمض عينيه لعلّه كان يحلم. أعاد فتحهما: لكن .. لا شيء سيختفي لمجرد أنك لا تريد أن تراه.

(٢)

كان سامي مستلقيا في حفرةٍ قاعها من طين لا يكاد يصل عمقها إلى نصف متر. نظر إلى الحفرة ووجدها متشكّلة على هيئة جسده؛ فهناك مكانٌ مخصص لليدين والقدمين والرأس ووسط الجسد! عند الرأس امتدت قناة صغيرة من السائل بخط مستقيم حتى اختفت تحت حائطٍ أسود مصنوع من حَجر غير متساوٍ.

كان سامي في وسط حُجرة صغيرة متكوّرة السّقف. تأمّل الحجر الأسود مختلف الأحجام الذي يكسو بطن هذه الحجرة. تلمّس الأرض بما فيها من تراب وحصى ثم تمتم: «أين أنا»؟!

كان عَاريًا تمامًا كيوم ولدته أمّه. وضع يديه على الأرض ورفع نفسه. شعر بدوارٍ وضعفٍ عند قدميه. خطا خطوتين ثم وقع أرضًا. أسند يديه على الجدار ووقف مجدّدًا.

تأمّل المكان مرّةً أخرى ولسان حاله يتساءل: ماذا يجري؟

رأى عند مخرج الحجرة ثوبًا أبيض معلّقًا. اقترب منه وهو يرتكز على الجدار. تفحّص الثّوب للحظات والأسئلة تدور في رأسه ثم لبسه.

(٣)

خطا سامي خارج الحجرة ليجد ممرًّا طويلاً مظلمًا يمتد يمينًا وشِمالاً. عن يمينه: أضاءت شُعلةٌ آخر الممر؛ وعن شِماله: ظلام دامس.

لوهلةٍ شَعَرَ أنّه رأى عمامةً خضراء في وِسط الظلام الدامس. سرت قشعريرة في ظهره. نظر مرّة أخرى إلى يمينه لكنه أمعن نظره هذه المرّة.. ***هل اقتربتْ الشّعلة؟!*** حدّق بعينيه .. كانت الشعلة تقترب!

عاد بضع خطواتٍ إلى الحجرة ليحتمي بها. لم يكن يعلم لماذا ، لكنّها كانت في تلك اللحظة أكثر شيء مألوف له. انتظر للحظات ثم أطلّ برأسه فوجد الشّعلة قد اقتربت أكثر!

استرق سامي النظر ترقبًا. صوت الخطوات كان يعلو شيئًا فشيئًا. كلّما ارتطمت خطوة بالأرض شعر بقلبه يرتطم بصدره. في اللحظات الأخيرة أسند ظهره إلى مدخل الحجرة ولم يجرؤ على النّظر.

(٤)

توقّفت الخطوات قُبَيْل مدخل الحجرة. خُيِّل إلى سامي أن الكائن - ***أو ربّما الوحش*** - يستطيع سماع نبضات قلبه من شدّة ضربه. لم يتجرّأ أن يلتفت ..

(٥)

بعد برهةٍ بدتْ كأنها الدهر كلّه سمع الكائن يقول: ‹‹عفوًا››.

نبرة الصّوت كانت مفاجئة تمامًا. اتسّعت حدقتا سامي. نادى الكائن مجدّدًا: ‹‹عَفوًا››. كان الصوتُ .. صوت طفلة!

مدّ سامي رأسه من خلف المدخل ليجد الصّورة تطابق الصوت: طفلة لا يبدو أنها تجاوزت التاسعة. لبست قماشًا أبيض وصل إلى ركبتيها وكشف عن ساعديها؛ وحملت خشبةً تعلوها شُعلة. شعرها الكستنائي كاد يلامس خَصرها من طوله.

خطا سامي خُطوة خارجًا من الحجرة. وقف أمامها ، ونظر إليها للحظات ثم سألها: ‹‹مَنْ أنتِ››؟ نظرت إليه باستغراب وقالت: ‹‹أنا››؟! ثم – وكأنها تحدّث نفسها – أكملت: ‹‹لم يسألني أحدٌ هذا السؤال منذ زمن››! ثم قالت بشكلٍ عابر: ‹‹أنا ياسمين . تفضّل معي››. أدارت ياسمين ظهرها قبل أنْ يسأل سامي أي سؤال آخر. بدأت تمشي نحو المكان الذي جاءت منه ابتداءً.

نظر سامي إلى الخلف مرّةً أخيرة: إلى تلك الحجرة الصغيرة ، إلى الحفرة التي كانت على هيئته ، ثم نظر إلى ياسمين من جديد ، ولحقها.

(٦)

مشى الاثنان بصمت لا تتحدّث سوى أقدامهما الحافية التي ارتطمت بالأرضية الحجرية المبللة. برغم ظُلمة الممر لاحظ سامي أنَّ الممر امتلأ بالحجرات يمينًا وشمالاً. لم يستطع أن يرى ما بداخلها ، لكن خُيِّل إليه أنه رأى أجسادًا داخل حُفر شبيهة بحفرته. سأل: ‹‹ما هذه الحجرات››؟! أجابته دون أن تلتفت: ‹‹هذه مساكن›› ، ثم – وكأنّها تستدرك – قالت: ‹‹مساكنكم››! أشار إلى

نفسه وقال: ‹‹مساكنُنا"››! ثم أشار إليها وقال: ‹‹ومَنْ أنتم››؟!

قالت دون أن تجيبه: ‹‹آه ، لقد وصلنا››.

وصلا إلى باب حجريٍّ كبير ، مقوَّس من أعلاه ، زاخر بالزخارف والرموز غير المفهومة.

دخلتْ ياسمين ، فلحقها ، ثم أُغلِقَ الباب. وجد سامي نفسه في قاعة كبيرةٍ تكفي مئات الأشخاص. نظر إلى سقف الحجرة الذي كان شديدَ الظلمة والارتفاع وكأن لا سقف لها.

نظر إلى داخل الحجرة التي كانت خالية. أحاطت بالقاعة أبوابٌ أخرى تشبه الباب الذي دخل منه.

شعر فجأةً بحركة خلفه. التفت وإذا بنفس الباب الذي جاء منه يُفتح. دخلت طفلة أُخرى تشبه ياسمين كثيراً من حيث تركيبة الجسم واللباس. لحقها شخصان: أحدهما طويل ذو أذنين كبيرتين والأخرى متوسطة الطول منمّشة الخدّين تمسك بيده. كانا أيضاً ينظران إلى الأعلى مشدوهين ، ثم التقت أعينهما بسامي!

قبل أن ينبس أحدهم ببنت شفه؛ شعر سامي بشيء ما يلمسه من الخلف ، ثم عاد كلُّ شيءٍ إلى السّواد.

الفصل الرابع: المُهَاجِرُون

(١)

فتح سامي عينيه ليجد نفسه مستلقيًا على أرضٍ رطبة. أضاء القمر المكان ، وكشف عن نخيلٍ باسقات كالرماح تطعن السماء. اعتدل في جلسته. ***ما .. ما الذي يحدث؟!*** تلمّس وجهه ثم صدره بيده اليسرى ، لعله يطمئن على نفسه بهذه اللمسات. أحس أن يده اليمنى كانت تقبض على شيء. نظر إليها وإذا بورقة مطويّة: لونها يشبه لون الرسالة التي جاءت من عند الحكيم. همَّ سامي بقراءتها لولا إحساسه بسائلٍ حارٍّ يحرق مريئه. دمعت عيناه ثم التفتَ إلى اليمين وتقيّأ.

(٢)

عندما هدأ سامي ومسح عينيه بدأ يسمع أصواتًا. التفتَ سامي واتّسعت عيناه: بضعة عشر جسدًا مُلقًى من حوله في ساحة دائرية الشكل. على إطار هذه الساحة حفّتهم الصخور ، ومن وراء الصخور نخيل على مدّ البصر.

توسّطت هذه السّاحةَ بقعةٌ مائيةٌ صغيرةٌ ، اختلطت حوافها بتراب الأرض ، مساحتها ربّما متران ، أو متر ، أو ربّما أقل من ذلك. تبيّن له أنّه لم تكن لديه مشكلة في تقدير المساحة ، وإنّما البقعة كانت تنحسر حتى اختفت.

وقف سامي وبدأ يتأمّل وجوه الأجساد المترامية: في يدِ كلٍّ منهم ورقة تشبه تلك التي كانت في يده. اختلطت مشاعر سامي بين ذهولٍ وخوفٍ ورغبةٍ ملحَّة في معرفة سبب كل هذا. كرّر السؤال في نفسه: ***ما الذي يحدث؟!***

(٣)

تلفّت حتى وجد رمزي ومريم واقفين يتهامسان. لبس رمزي ذات الثياب البيضاء التي لبسها سامي ، في حين لبست مريم حجابًا أبيض من القماش نفسه.

حالما رأوا بعضهم البعض احتضن رمزي سامي ثم أمسك بكتفيه وقال: «هل أنت بخير»؟ أجابه سامي: «نعم ، ماذا عنكما»؟ قالت مريم: «نحن بخير»!

سكت الثلاثة قليلاً لتترتب الأفكار المتلاطمة التي اجتاحتهم. داهم سامي خليطٌ بين الشعور بالذنب والامتنان في آنٍ واحد؛ فقد أدخل رمزي ومريم في ورطة لا يستطيع استيعاب أبعادها بعد.

بدأ النّاس من حولهم يستفيقون. تحسَّس سامي جيبه ثم أخرج الورقة. قال لصاحبيه: «هل وجدتما ورقة عندما أفقتما أيضًا»؟ أجابه رمزي: «نعم»!

برغم كل ما حدث كانت - ولم تزل - قضيّة البحث عن والدته حاضرة تمامًا في ذهنه. فتح سامي الورقة المطوية لعلّه يجد إشارة تساعده على إيجادها ، وإذا بها رسالة فارغة عدا زخرفات عند زوايا الورقة الأربعة.

سمع الثلاثة خطوات تقترب منهم من داخل الدائرة. جاءهم رجلٌ ثلاثيني قصير ، عريض المنكبين ، يمشي. كان شاربه الثقيل - كلون شعره - متلوّن بين البُني والأشقر. برز أنفه المدبَّب وبدت منه ابتسامة متودّدة برغم العرق المتصبّب من جبينه. اقترب منهم وقال باقتضاب: «مرحبًا ، بدر». بادر سامي: «مرحبًا ، سامي» ثم أشار إلى مريم ورمزي ، وقال: «مريم ، ورمزي». ابتسمت مريم في حين نظر رمزي إليه بارتياب. قال الرجل بعد أن ارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة: «تشرّفنا».

تـرك بـدر تلـك الكلمـات تسـكن عنـد الثلاثـة ، ثم قـال: «مـن أيـن جئتم»؟!

قـال رمـزي: «السـؤال المُلـحّ هـو: أيـن نحـن»؟ جـاء صـوتٌ متماسـكٌ آخـر مِـنْ خلفهـم: «لا أعتقـد أن هـذا السـؤال سـيفيدنا الآن».

التفـت الأربعـة ليجـدوا رجـلاً جالسًـا علـى إحـدى الصـخور. أسـند سـاعده الأيمـن علـى ركبتـه اليمنى. كـان يتأمّـل شـيئًا مـا في الأفـق ، ثم التفـت إليهم ، وابتسـم ابتسـامةً كلّهـا طمأنينـة. كشـفت ابتسـامته عـن ثلاثـة أمـور: أسـنان بيضـاء مرصوصـة ، نـونيّتين عميقتين في خدّيه؛ وتجاعيد بسيطة على طرفي عينيه. غمر عيني الرجل بريقٌ غريب ، وكأنّها تلمع أكثر ممّا ينبغي.

قال رمـزي: «مـا الـذي تعنيـه»؟ اقتـرب الرجل منـهم ينفض كفيه ، وقال: «سؤال: "أين نحن" قد لا يفيدنا في شيء الآن ، لأنك توجه السـؤال إلينـا ونحـن لا نملـك الإجابـة»! مـدّ يده وكأنـه وضـع سـؤال رمـزي جانبًـا ، وقـال: «أيّـوب». بـادر سـامي بمصـافحته ، ثم قام البقية بذلك أيضًـا.

عـاود رمـزي سـؤاله بطريقـة أخـرى: «ألا تريـد أن تعـرف أيـن نحـن»؟ أجابه أيّوب: «بلى! لكن لا أحد منّا يملك الإجابة».

التفت أيّـوب إلى بقيـة مَـن في السـاحة ونظراته تقـول: حيـارَى تـائهون. أكمـل حديثـه: «أظـن أن طـرح الأسـئلة الآن لـن يفيـدنا .. علينـا أن نفعل شيئًا».

قـال سـامي: «علينـا أن نتحـرّك» ، قالهـا وفكـرة واحـدة كانـت حاضرة في ذهنه: إيجاد أمّه.

في تلك اللحظة جاءت أصوات من خارج الساحة.

(٤)

بدأ الصوت يقترب. ***هل هذا صوتُ عَدْوِ خيول؟*** خرج من بين النخيل فرسان يمتطون خيولا وآخرون مترجّلون. لبسوا ثيابًا لم يعتد سامي على رؤيتها سوى في أفلام علاء الدين أو سندباد: سراويل وقمصان واسعة بيضاء يفصل بينهما قماش أخضر قانٍ ملتف حول الخصر. معمّمون متلثّمون ، والأهم من هذا كله: في يد كل منهم بندقية.

اقترب كل مَن في داخل السّاحة بعضهم من بعض. تخفّى بدر في وسط الجموع ، في حين تصدّر سامي ورمزي ومريم المجموعة. التفّ الفرسان حول الساحة الدائرية ، ووجّهوا بنادقهم إلى الداخل. عمّ السكون للحظات. تشابهت ملامح الفرسان بشكل غريب. ***كأنهم استُنسخوا من الشخص نفسه.***

ترجَّل أحد الفرسان ، ثم خطا بضع خطوات إلى الأمام. لم يكن يشبه البقية. خلع عمامته ثم أزاح شعره الأسود الذي انسدل على حاجبيه. ظهرت على جبينه ندبة صغيرة. لحيته السوداء كانت قصيرة ومهذّبة. بارع الطول ، عريض المنكبين ، عضلاتٌ بارزة ، قامة مقاتل.

لم يشك سامي للحظة أنه قائدهم. استمر القائد يحدّق فيهم وكأنّه يحصيهم. أعاد العمامة إلى رأسه ، ثم التفت متوجهًا إلى حصانه ، وقال: «خذوهم»!

(٥)

قسّم الفرسانُ «المهاجرينَ» إلى مجموعات ثم ربطوا أيدي كل مجموعة بالحبل نفسه الذي رُبط طرفه الآخَر بسرج أحد الخيول. كانوا أسرى في أرضٍ غريبة على يد غرباء يلبسون ثيابًا غريبة. بدا لسامي أن الجميع قَبِلَ بمصيره .. عدا شخص واحد.

أبى رجل أسود البشرة أن يُعتقل. هددت عيناه الواسعتان الفرسان كأنّها تقول: «إياكم والاقتراب منّي». كان طويل القامة، مفتول العضلات، ذا صلعة ملساء لامعة. اقترب اثنان منه ببطء ودون أن يمهلهم فرصة لوّح الرجل بيده ليلكم الأوّل إلا أنّ الفارس تفاداه برشاقة. وجّه الثّاني سلاحه تجاه الرجل مباشرة، وفي لحظة ارتجف فيها الجميع انطلقت رصاصة ..

(٦)

لم يتحرّك أحدٌ بعد دويّ الطلقة. انتظر سامي لحظة سقوط الرجل الأسود. اضطُر أن ينتظر لحظات أخرى إلا أنّه بقي واقفًا. *هيه!*

تكلّم القائد فالتفت إليه الجميع. كانت بندقيّته موجّهة إلى السّماء تتصاعد من فوهتها دخان. قال: «هذه الرصاصة ذهبت إلى السماء. لا تدفعني إلى توجيه الرصاصة القادمة إلى رأسك».

لم يزل الرجلُ أسود البشرة ينظر إلى القائد بجرأة. جاء أربعة من الحرس واقتربوا منه. سأل القائد: «ما اسمك»؟ أجابه الرجل غير مبال: «الماحي». نظر إليه متفحّصًا، ثم قال القائد: «ستُبلي بلاءً حسنًا أيها الماحي».

من بين كل هذا الجنون برز سؤالٌ واحدٌ فقط لسامي: ***كيف سأبحث عن أمّي؟!***

الفصل الخامس: الجَبَلُ العَظِيم

(١)

شـقّ موكـب الفرسـان والأسـرى غابـة النّخيـل بصـمت. وَكَـزَ رمـزي سـامي ، ثم أشـار برأسـه إلى أيّوب: «لمـاذا يبتسـم»؟! نظـر سـامي وتعجّـب مـن ابتسـامة تعتلـي محيّـاه. وكـأنّ أيّـوب مـن يسـوق الفرسان لا العكس.

(٢)

انبلج الطريقُ أمـامهم ، وكشـف عـن بحـيرة ضـخمة انفـرش على سطحها ضبابٌ كثيف لم يسمح برؤية سطح المـاء. مِنْ وراء البحيرة امتدّ سورٌ شاهق الارتفاع توسّطته بوابة عظيمة. أمّا أعظـم منظـر فقـد كـان يقـف خلـف السّـور: جبـل عمـلاق اخترقـت قمّتـه السماء. خُيِّل إلى مريم أنها وصلت إلى نهاية العالم .. لا أرض بعد هذا الجبل العظيم.

بـدأت الأسـئلةُ تعصـفُ بمـريم: مـا الـذي يحميـه هـذا السـور العظيم؟ وممَّ يحميه؟! رمزي بدوره فتح فمه متأمّلاً منظـر الجبـل والسور والبوابة: مشهدٌ مِن حكاية أسطورية .. أمّا سـامي ... فظلَّ يفكّر في أمّه فقط ..

(٣)

استقبلتهم سفينة خشبية كبيرة عند المرسى. بدا لمريم أنّها سفينة من قصّة "جزيرة الكَنْز". لكنّها لم تستطع تأمّلها كثيرًا إذ أمر القائدُ بإدخالهم إلى أسفل السفينة.

أبحرت السفينة ، وشعرَ سامي بالقلق ابتداءً: في كل مرّة يركب فيها سفينة كان يصيبه دوار. بعد مرور دقائق استبدل الدهشة بالقلق إذ لم يشعر بشيء. لم تكن السفينة تهتز كما تهتز السفن عادة على الماء.

تحلّقتْ مجموعات وبدأت تتهامس. وقفتْ مريم تتحدّث إلى امرأة ذات عينين خضراوين. أخبرت رمزي لاحقًا أنّ اسمها "سوسن" من القدس عاصمة فلسطين المحتلّة.

جلس أيوب على أحد الصناديق الخشبية بكل سكينة. كان يتأمّل قشّة في يده يقلّبها. كأنه كان وحيدًا في هذه السفينة. في الجهة المقابلة وقف "الماحي" قريبا من السلم الذي أنزلوهم منه. طوى ساعديه على صدره يتأمّل البقية.

مشى سامي ورمزي إلى أيّوب وقال: «لمَ لا تبدو قلقًا»؟!

أجابه أيّوب: «لماذا تفترض أن هناك خطر ينبغي أن نفعل شيئًا لصدّه»؟

قال رمزي: «ما الذي تقصده»؟

أجابه أيوب: «تفترضون أن هؤلاء أشرار .. لمَ افترضتم ذلك»؟ قال رمزي مستسخفًا إجابته: «يا رجل! لقد كبّلونا ، وأتوا بنا رغمًا عنّا»! قال أيّوب: «لكننا أتينا إلى هذا المكان برغبتنا ، أليس كذلك؟ أليس كذلك يا سامي»؟ كان السؤال مفاجئًا لسامي. تشكلت صور مختلفة: كهفٌ مظلم .. حوضٌ مائي .. طفلة تلبس

قماشًا أبيض ..

(٤)

خرج سامي وصحبُه من السفينة ليجدوا أنفسهم أمام بوابة عظيمة في قلب السور العظيم. سرقت ضخامتها أنفاسهم. كانت فيها ذات النقوش التي كانت في السفينة. رأى سامي السور يتقوّس عن يمينه وشماله حتى التصق بطرفي الجبل أمامه.

أخرج القائد سلسلةً من حول عنقه في وسطها قرشٌ ذهبي صغير .. اقترب من البوابة العظيمة حتى وصل إلى مخروطٍ حجريٍ في أعلى سطحه تجويف. وضع القرشَ الذهبي فيه ثم بدأت أصواتٌ آلاتٍ مخفية تطرق. شعرت مريم بارتجاجٍ عند قدميها ، ثمّ بدأت البوابةُ تتحرك.

(٥)

وقفت مريم على أطراف قدميها لترى ما يقع خلف السور ، لكن ...

(٦)

استقبلهم حائطٌ ضبابيٌّ كثيف. تراقصت أغشية الضباب كالأفاعي البيضاء وتحرّكت نحوهم ببطء. مع كل خُطوة ازداد الضباب كثافةً. ابتلعتهم الخيوط البيضاء كأنّها تكفّنهم.

ما أن انقشع الضباب واتّضحت الرؤية حتى تسمّروا مباشرةً في أماكنهم. وجدوا أنفسهم على شفا منحدرٍ عميق يُفضي إلى وادٍ فسيح مساحته تسع آلاف ملاعب كرة القدم.

لم يكن بينهم وبين الجبل العظيم سوى الوادي. وقفت مدينة مترامية الأطراف في ثلثه الأوّل ، ثم امتدت أرض مستوية مليئة

بالنّخيل ، وفي ثلث الوادي الأخير امتدّت صحراء قاحلة تتصل بالجبل العظيم.

نظرت مريم إلى ضفّتي الوادي شرقًا وغربًا وأشارت برهبة . تشرَّب الثلاثةُ المشهد الذي حبس أنفاسهم: في حين انحصرت الأرض جنوبًا بالمنحدر الذي وقفوا عليه وشمالاً بالجبل؛ لم يصدّقوا ما رأوه عن يمين ويسار الوادي.

(٧)

«سماء»! صرخ رمزي.

أتبعته مريم نافيةً بقلق: «لا .. ربّما يكون محض ضباب» ، قال رمزي: «ألا ترين؟! لا يوجد سوى فراغ بين طرفي الوادي والسور الكبير الذي يلتصق بطرفي الجبل .. لا شيء .. تجويف لا يملؤه إلا فراغ السماء»! سكت برهة ثمّ – وكأنّه للتَو يستوعب – قال رمزي: «.. وهذا ليس ضبابًا .. بل غيوم»!

قال سامي: «كنت أظن أن هناك شيء غريب في البحيرة المغطّاة بالضباب .. السفينة كانت تتحرَّك من غير تموج»! كاد أن يكمل .. *ولذلك لم أشعر بدوار.*

حاولوا أن يوفّقوا بين الحقيقة التي ألِفوها والخيال الذي يعيشونه. تمتمت مريم وكأنّها تحدّث نفسها: «كأنّه جسر» ، سألها سامي: «ماذا تقصدين»؟ أجابته وهي تشير بين مكانهم والجبل: «انظر .. هذا الوادي يقف بين البوابة التي دخلنا منها والجبل ، وعلى جانبيها فراغ» ثم أشارت إلى الفراغ عن يمين وشمال الوادي. أكملت: «إما أن الجبل مسدود ، أو أن الوادي مثل الجسر».

هذا جنون! ثمّ – وكأنّه ينفض غبار هذه الدهشة عنه – قال

لنفسه: ***ركّز أنا هنا للبحث عن أمّي فقط.. بعيدًا عن هذا الجنون!***

ترك القائد الوادي عن شماله ، ومشى نحو اليمين ، فاتّبعه الجميع. كان الأسرى يتأمّلون منظر الوادي بانبهار شديد. من هول المشهد حتّى معالم "الماحي" القاسية تغيّرت .. بل إنّ حواجب أيّوب "الوقور" ارتفعت انبهارًا!

ظهر صندوقٌ زجاجي كبير ملتصق بشفا المنحدر. برزت في أعلاه بكرات ذهبية. امتدّ حبل مشدود من هذه البكرات نحو المدينة. قال رمزي: «تليفريك»! قالت مريم – وقد ملأ الضجر والاستنكار والانبهار صوتها – : «ما هذا الهراء»!

(٨)

انحدر "التليفريك" نحو المدينة التي بدأت ملامحها تتضّح شيئًا فشيئًا. كان جنوب المدينة أكثر اكتظاظًا بالبنيان من شمالها. انتشرت مبانٍ ذات ارتفاعات متباينة واتصلت فيما بينها بجسور مختلفة الأطوالٍ.

كانت المباني ذات طابع عربي ، تشبه مدينة سندباد العجيبة: ألوانها بُنية فاتحة؛ ربّما صُنعت من طين أو أحجار. تزخرفت المباني بثقوب مثلثة ومستطيلة ، كانت الشُرَف مغطّاة بأقمشة متنوعة الألوان: قرمزية وفيروزية وبيضاء. اعتلت بعض المباني قبابٌ مختلفة الأحجام والأشكال والألوان.

تفرّعت أزقة صغيرة كثيرة فضلاً عن الطرق الفسيحة. تموّجتٍ قنوات مائية متشابكة حول المدينة ، بعضها تصبُّ في أحواضٍ مائية ، وبعضها تجري إلى حيث لا ترى العين. شعر سامي أنّه في الأندلس التاريخية.

التصق رمزي بزوجته ، وتشابك كفه الأيمن بكفها الأيسر.

علت محيّا بدر ابتسامة صغيرة. الماحي بدوره ترقّب بصمت دون انفعال. ولأول مرة منذ التقوا به تبدّدت ابتسامة أيّوب تمامًا.

(٩)

نظر سامي إلى المحطّة التي توجّه إليها "التليفريك". كانت في أقصى نقطة جنوبية من المدينة وأقربها إلى المرتفع الذي جاؤوا منه. كان المبنى كبيرًا مقارنةً بغيره ، ذا قبة ذهبية مفتوحة من الأعلى ، جدران بيضاء ، عليها ذات الطلاسم التي كانت على السفينة و"التيليفريك".

دخل "التليفريك" القبّة ، واتّضحت معالم المحطة ذات السقف المرتفع .. على جنبات الجدران المرتفعة امتدّت نوافذ ضخمة مصنوعة من زجاج ملوّن. شعر سامي أنّه في محطّة (جراند سنترال) في مدينة "نيويورك".

حالما نزلوا سِيقوا إلى زنزانة فيها أزواجٌ من الأسرّة بعدد الأسرى. كل زوجٍ يتكون من سرير علوي وسفلي يربطهما سلم صغير. بعدما دخل آخر أسير أوصد أحد الفرسان باب الزنزانة.

وقف قائد الفرسان أمامهم ، وخلع عمامته ، وارتخت عضلات وجهه . قال: «مرحبًا بكم».

قال رمزي: «مرحبًا بكم .. لا يا شيخ»؟!

ابتسم القائد ، وتفحّص رمزي كما يتفحّص الخيّاط زبونه ، ثم أجابه بسؤال: «ما اسمك»؟ قال رمزي: «اسمي؟ اسمي "اللعنة عليك"؛ ماذا عنك»؟! تصاعد الغضب بين ضلوع سامي تدريجيًّا كما تتصاعد فقّاعات في الماء. وقف سامي بجانب رمزي ، ثم قال: «ما اسمك أنت»؟! أجاب القائد مباشرةً: «المالك».

أمسك سامي القضبان ، وقال: «لماذا أتيتَ بنا إلى هنا»؟

ابتسم القائد ، وجاءه جوابٌ مألوفٌ: «تذكّر جيدًا يا سامي: أنتم مَنْ جئتم إلى هنا». تفكّر سامي: ***كيف عرفَ اسمي***؟ ثم نادى: «أين أمّي؟ إلى أين أخذتموها»؟! ابتسم المالك .. ***هل عرفها***؟ قال المالك متجاوزًا سؤال سامي: «أنتم بحاجة إلى راحة .. سيتضح كل شيء .. ارتاحوا في الأَسِرَّة ، وسنتحدّث لاحقًا» ثم التفت .. وخرج.

(١٠)

ارتاحوا في الأسِرَّة؟ استنكر سامي. ***ارتاحوا***؟!

قال رمزي: «ما الحل»؟ أجابته مريم: «ماذا عن الرسالة»؟

كان سامي قد نسي الرسالة المطوية في جيبه تمامًا. أخرجها ، وتفحّصها لعله يجد إشارة ، لكن: لا شيء .. لا شيء سوى ... انتبه سامي إلى بقعة دائرية غامقة في يمين الورقة. ***ما هذا***؟ حكّ البقعة بأظفره .. ***كأنّ سائلاً قد وَقَعَ عليها منذ زمن وجفَّ.***

قالت مريم: «آه؛ ربّما علينا وضع الرسالة أمام الشّمس من جديد». قال سامي: «نعم». التفتَ باحثًا عن نافذة فوجد واحدة موصدة بقضبان حديدية في أعلى جدار الزنزانة. صعد سامي على أحد الأسرّة ، ونظر من النافذة: اصطبغت السماء زرقة وحمرة مشيرةً إلى أن الشمس على وشك المغيب .. تيقّن سامي حينها ألا مفر: عليهم الانتظار إلى الغد.

(١١)

ركض الطفل ذو الأربع سنوات نحو الدولاب ثم التفتَ إلى الوراء: لا أحد يراه. فتح دفّتيْ الدولاب ، دخل فيه ، ثم أغلقهما. اتسعت عيناه وهو ينظر من بين دفتي الدولاب. وضع يده على فمه إلا أن ابتسامته استمرّت تنمو.

نظر سامي إلى هذا المشهد كأنه ينظر إلى فيلم في التلفاز.

الطفل يركض ويختبئ ثم ينظر من الثقب ، كانت أطراف المشهد غير واضحة المعالم: غبشٌ أصابها عدا صورة الدولاب.

بعد لحظات دخلت امرأة جميلة. شعرها الكستنائي المموج وصل إلى خصرها .. لم تكن ملامح وجهها واضحة عدا عينيها اللوزيتين الواسعتين. عرفها .. عرفها سامي تمامًا.

وقفت المرأة تتلفّت باحثةً عن الطفل الذي لم ينجح في الاختباء؛ فقد كانت الفتحة بين دفتي الدولاب كبيرة. وبرغم محاولات الطفل إلا أن صوت كركرته المكتومة كان مسموعًا. استمرّت المرأة تتأمّل حتّى وقعت عيناها على الدولاب .. ابتسمت ، ثم تظاهرت بالبحث تحت "كنبة" ظهرتْ فجأة في المشهد. رفعت "لحاف" سريرٍ ظهر فجأة هو الآخر. نادت – وهي تفتّش متصنّعة – : «سامي .. سامي أين أنت يا سامي»؟!

قال سامي في نفسه: إنّها أمّي .. خرج الطفل الصغير فجأةً من الدولاب: «أنا هنا يا ماما»! وضعت أم سامي يدها على فمها وقالت بتصنّع: «كم كنت خائفة عليك .. أين كنت»؟

زاد الغبش حتى اختفت الغرفة ثم بعد لحظات عادَتْ الصورة من جديد لتظهر نفس الغرفة. كان سامي فيها الآن .. لم يكن طفلاً .. كان شابًّا طويلاً. جلس سامي داخل الدولاب وأغلق دفتيه. أخذ ينظر من الفتحة نفسها التي كان ينظر منها الطفل: «ستأتي الآن».

انتظر مبتسمًا ، ثم انتظر متأمّلاً ، ثم انتظر حتى اختفت الابتسامة من فمه. خرج من الدولاب ، وتأمل الغرفة: لا أحد. قال بصوتٍ مكسور: «أنا هنا .. أمّي»! ثم أعقبه بقول: «أين أنتِ؟ .. أمّي..»؟ ظهر له باب الغرفة في وسط الغبش .. بابٌ كبيرٌ مغلق عليه طلاسم مألوفة. لكن الباب لم يُفتَح ، ولم يأتِ أحد باحثًا عنه.

الفصل السادس: الوَادِي السَّعِيد

(١)

"شقشق" الفجر واستفاق سامي من أحلامه المزعجة. نام سامي على السرير السفلي وعن يمينه رمزي في سرير منفصل ، ومن فوقه نامت مريم. التفتَ سامي إلى صاحبيه ووجدهما جالسين على سرير رمزي يتهامسان.

ما إن اعتدل سامي في جلسته وأسند ظهره إلى الجدار حتى سكت الاثنان. قال سامي وهو يحكُّ عينه بكفّه: «ما بكما»؟ أجابه رمزي بوشوشة: «لا شيء». اقترب رمزي من سامي وقال: «كيف نمت»؟ أجابه سامي: «زفت»! قالت مريم: «ونحن كذلك». نظر سامي إلى النافذة خلفه: «يجب أن نكون جاهزين حالما تصل إلينا أشعّة الشمس».

أخرج سامي الورقة ونظر إليها. لفتت البقعة انتباهه من جديد. قرّب الورقة من عينه ثم ... ثم تذكّر. ***اللبن***! قطرة اللبن التي سقطتِ على الرسالة حينما قرأها لأول مرّة في شقّته في حي المربّع. حدث ذلك عندما وقف بسرعة وارتطم بالطاولة فانسكب قليل من اللبن.

رفع رأسه ونظر إلى مريم فوجدها تمسك الورقة نفسها التي رآها في يدها عندما استفاقوا عند النخل الطويل يوم أمس. رأى نسخة أخرى بيد رمزي فبدأت أفكار مشوشة تخيّم عليه. ***إن كانت الورقة التي وجدتُها في يدي عندما أفقت هي نفسها التي كانت معي قبل المجيء إلى هنا؛ وعند رمزي ومريم ورقة مشابهة ... فـ ...من أين لهم ...؟***

قبل أن يُكمل فكرته دخل عليهم "المالك". وقف قائد الحرس وحده في منتصف الغرفة ، ثم قال: «صباح الخير».

همست مريم: «أي خيرٍ يهذي به هذا الأبله»؟ من بعيد بدا لمريم أن ابتسامة خفيفة ارتسمت على وجه "المالك" ، لكن ... ***يستحيل أنه سمع همسي من هذا البُعد!***

قال المالك: «بعد لحظات ستخرجون إلى الوادي السحيق». تأمّل وجوه الحاضرين ، وأكمل: «استمسكوا بالرسالة .. سترشدكم إلى غايتكم».

جاء صوت رجل من الخلف: «ستتركوننا؟ ... هكذا»؟! قال المالك: «نعم». أتبع الرجل: «إذن لماذا أخذتمونا»؟

وشوشت مريم: «سيقول: أنتم مَن أتيتم ..» قاطع وشوشتها صوت المالك: «أنتم من أتيتم إلى هنا». أسَرَّت مريم ضحكتها. رفعت حاجبيها وابتسمت ابتسامة المعجب بنفسه .. قال رمزي: «اسكتي قبل أن يغيّر رأيه».

قال الرجل مرّة أخرى – وكأن المالك لم يقل شيئًا – : «وستتركوننا هكذا من غير شيء»؟! قال المالك: «سنزودكم بالمؤونة اللازمة» ، وعلى وقع هذه الكلمات – وكأنّه مشهد مجهّز – دخل فرسان وبدؤوا بإعطاء كلَّ واحدٍ منهم صُرّةً سوداء متوسطة الحجم تشبه حقيبة المدرسة: لها حبلان متدليان لحملها على الأكتاف ، أما رأس الصُرَّة فكان مربوطًا بحبلٍ آخر.

قبل أن يتمكَّن سامي من فتح الصُرَّة أمر المالك ففتّحت الأبواب. سيقوا إلى القاعة الضخمة التي توقّف فيها "التيليفريك". أوقفوهم عند جدارٍ أصم ، وتقدم المالك حتى واجهه. لم يميز الجدار شيئًا سوى تجويف واحد. أخرج الحلقة الذهبية الدائرية من جديد ، ثم أدخلها في التجويف؛ خرجت الأصوات نفسها التي

سمعها سامي عند البوابة الكبيرة: بَكَرَاتٌ مخفيةٌ تتحرَّك. ظهر إطارٌ من الجدار وشكّل بابًا. تحرَّك هذا الباب نحوهم ، ثم دلف إلى اليمين.

خرجوا منه واحدًا تلو الآخر. عندما خرج آخرهم أُغلق الباب خلفهم قبل أن يتمكنّوا من توجيه أي سؤال.

(٢)

وقف المهاجرون عند زقاق في آخره فناء. كان السؤال الحاضر: ما العمل؟ بدأت المجموعة تخطو بحذر إلى الأمام. تحرّك رمزي معهم قبل أن يستوقفه سامي قائلاً: «أودُّ أن أسألك سؤالا»!

أكمل سامي: «كنتُ أفكّر في الأمر طوال الصباح .. أقول في نفسي لعلّي أسأتُ الظّن .. لعلّي أسأتُ الفهم .. لكنّي لم أجد حلاًّ». التفتَ رمزي إلى زوجته ثم إلى سامي ، وقال: «أخبرني».

أخرج سامي الرسالة: «أتذكر عندما جئتني في الشقّة»؟ أجاب رمزي: «نعم ، أذكر». أكمل سامي: «بعد أن بدأتُ آكُل قلتَ لي أنّك وجدتَ الرسالة على طاولتي وأعطيتني إياها. أذكُرُ أني وقفتُ مشدوهًا وأنا أقرأها ، وبالخطأ سكبتُ لبنًا عليها».

أخرج سامي الرسالة من جيبه ، وأشار إلى البقعة: «وها هي ذات البقعة» ارتفع صوتُ سامي قليلاً: «هذه الرسالة نفسها ، التي كانت معنا قبل قدومنا إلى هذا المكان الغريب. وكل من أتى هنا كانت بيده رسالة مماثلة .. أتوا بها من عالمنا .. حتى ...» ثم أشار سامي إلى مريم: «حتى أنتما! إن كانت معكما رسالة ، معنى ذلك أنها كانت بحوزتكما قبل المجيء .. أي ، أنكما كنتما تعلمان بوجود الحكيم ، ورسالته».

تبادل رمزي ومريم النظرات. أكمل سامي: «.. منذ متى وأنتما تعلمان بالرسالة؟! متى كنتما تنويان إخباري»؟ تنبّه سامي لأمرٍ آخر: «بل كنتما تعلمان أنها ستساعد في إيجاد أمّي! لمَ لم تخبرا الشرطة بالرسالة»؟!

لمح رمزي صدر سامي يرتفع وينخفض. أمّا سامي فكان صدره يحترق. شعر بالنار تشتعل أكثر مع كلّ زفرة. قال: «لماذا أنتما صامتان؟! هل أخطأت؟ أخبراني»؟!

قالت مريم بصوتٍ هادئ: «نعم ، كنّا نعلم. الآن خُذْ نفسًا ودعنا نشرح لك ما ...». قاطعها سامي: «لا أريد شرحكما .. أريد أن تجيباني عن سؤالٍ واحد»! قالت مريم: «قُل .. أي شيء»؟ سأل سامي: «هل كان باستطاعتكما إخباري بالرسالة قبل ذلك اليوم»؟ قال رمزي بهدوء: «نعم .. لكن» قاطعه سامي: «مِن دون "لكن" .. لا أريد أن أستمع لمخادع». رفع رمزي صوته وقال: «لقد أخبرناك بالرسالة في النهاية ، ثم ها نحن معك في هذا العالم الغريب ، يجب أن نكون يدًا واحدة يا ..» ، قال سامي: «أن أكون وحدي خيرًا لي من أكون مع ... مثلكما». ثم شق سامي صفّ رمزي ومريم وتخطّاهما .. قالت مريم مستجديةً: «اصبر سامي ، دعنا نشرح لك»!

(٣)

كان سامي يتفجّر من داخله. ***كذب؛ خداع؛ خيانة***. طحنت هذه الأفكار أضلاعه التي ازدادت ضيقًا.

وصل سامي إلى الفناء ، وبقي رمزي ومريم يتجادلان خلفه.

(٤)

كان الفناء مغلقًا من جميع جوانبه .. توسّط الفناءَ حُجرة

زجاجية ضخمة في داخلها شجرة كبيرة جداً. بدا وكأنّها هناك منذ آلاف السنين. صُهِرتْ لوحة صغيرة على الزجاج الخارجي وكُتِبَ عليها:
«لا تقرب هذه الشجرة».

قطّب سامي حاجبيه ، ونظر إلى اللوحة باستغراب. رفع رأسه ، وانتبه لشيءٍ آخر. لم يبقَ أحدٌ سوى "الماحي" الذي وقف أمام سور الفناء.

اقترب سامي من "الماحي" حتى وقف بجانبه. التفت إليه الماحي ، ثم عاود النظر باتّجاه السور. قال سامي: «أين ذهبوا»؟ أشار الماحي إلى الجدار دون أن ينظر إليه: «من هنا». نظر سامي إلى الجدار ولم يرَ شيئًا.

أكمل الماحي: «هنا باب يفضي إلى طريقٍ مزدحم .. لم يظهر أن الناس في الطريق يلاحظون وجودنا .. قرر أيوب أن يدخل من الباب باتّجاه الطريق المزدحم .. لكن حالما دخله أيوب أُغلق الجدار ، ثم عاد وفتح ولم نره؛ بل كان يفيض إلى طريقٍ مختلف .. دخل بعده غيره وغيره .. والآن ... الآن جاء دوري».

ظهر إطارٌ في الجدار ، ثم تحرك الجدار إلى الداخل نحو اليمين وكأنّه يدخل في نفسه. وقف الماحي للحظات ينظر أمامه ثم دخل. حالما فعل ذلك عاود الجدار وانغلق بسرعة.

وقف سامي عند الجدار ينظر إليه. سمع صوتًا لكنه لم يكن الباب .. التفتَ وإذا به صوت خطوات رمزي ومريم اللذين وصلا للتو إلى الفناء. مع وصولهما انبلج الجدار مرّة أخرى. بدا لسامي أن المكان الذي ظهر خلف الباب كان مختلفًا عن المكان الذي انكَشَفَ للماحي. استعد سامي للخروج من الفناء وكان الدافع واضحًا: تجنّب الحديث مع رمزي ومريم.

أخذ نفسًا ثم خرج.

(٥)

كان الطريق مكتظًّا؛ مكتظًا جدًّا!

لبس الناس ثيابًا مختلفة ما بين سراويلٍ واسعة وإزارات تصل إلى منتصف الساق .. ثيابهم كانت متنوّعة الألوان. الأرجواني والأخضر والذهبي والنّيلي والأحمر ، بعضهم وضع عمامةً وآخرون لم يلبسوها ، انتعلوا نعالاً ملوّنة وأحذية مدبَّبة الأطراف ، أما النّساء فقد احتجبن بجلابيب واسعة فضفاضة تغطي سائر أجسادهن ، بعضهن تبرقعن وأخريات كشفن وجوههن.

بدا لسامي فرقٌ واضحٌ بين المالك وفرسانه من جهة وهؤلاء: المالك وفرسانه ثيابهم وأطوالهم واحدة .. ***باستثناء المالك*** .. أما هؤلاء فكانوا .. ***طبيعيين!***

تعالَتْ الأصوات .. أحدهم يدفّ عربة مليئة بالفواكه ، والثاني ينادي صاحبًا له ، طفلٌ يلحق بأمّه ، مجموعة تضحك ، حدّادٌ يهوي بمطرقته ، وزميله ينفخ في النار .. تلتفُّ مجموعة أطفال حول رجلٍ لديه قرد صغير يرقص .. عربات ممتلئة ببضائع مختلفة من أقمشة وثياب تجوب الطرقات المصنوعة من الحجر البنّي .. مع ارتفاع الضحكات وتزاحم الأصوات خُيِّل لسامي أنّه في "كرنفال".

تفحّص أسماء المحلّات من حوله:

- «جاسر لمعدّات البحث والتنقيب عن الثّمرة».
- «المارد لتنظيم المسابقات والاحتفالات؛ الحياة تجارب ، عِشها بنشوة».

- «مفرقعات الصندوق الأسود .. ولّعها»!
- «مشروبات إكسير - لشباب لا ينضب».
- «مسرح العرائس- اصنع قصّتك الخاصّة»!
- «حقّق أحلامك .. اعثر على الثمرة: الموثوق لمعدّات البحث والتنقيب»!

ما هذا المكان؟! رأى لوحات أخرى تتحدّث عن معدّات بحث وتنقيب وحفر لـثمرة.. بعض اللوحات انمحى لون الصبغ عليها ، وأخرى كانت جديدة . قرأ أسماء المحلّات من جديد .. ***ما هذا؟!***

شيءٌ آخر لفتَ انتباهه؛ كل الأبواب كانت قصيرة بعض الشيء. رأى الناس ينحنون إذا دخلوا أو خرجوا من أيٍّ منها ، الأطفال وبعض قصار القامة لم يواجهوا مشكلة ، أمّا البقية فلا. وكأنّ الأبواب صُنِعتْ لأناسٍ آخرين، ***أو صُنِعتْ من قبل أناسٍ آخرين؟***

نظر سامي إلى اليمين وإلى الشمال .. ***كيف أجدك يا أمّي في وسط هذا الزّحام؟*** التفتَ سامي إلى الباب الذي خرج منه ، وتفاجأ أنه اختفى تمامًا. استمرّت الأسئلة تعربد في رأسه ما بين الحكيم والرسالة واختفاء أمه ، و.. والرجل ذي العمامة الخضراء؛ نعم ... ***الرجل ذو العمامة الخضراء*** ، طفت صورته إلى مُخيِّلة سامي من بين الأسئلة المتراكمة ، كغريقٍ طفى على سطح الماء. نظرته الحارقة لم تزل حاضرة في مخيّلته.

نظر في المارّة باحثًا عن وجه مألوف .. الماحي ، أيوب ، بدر ، أو أي أحدٍ من الأسرى. ***إلى أين؟*** ومن بعيد تبدّى له ما كان يحتاج إليه.

(٦)

من بين مبنيين امتدّت أشعّة الشّمس لتسكن جدارًا في الطريق ، توجّه سامي نحوها وتسارعت خطواته.

تجاوز سامي جسرًا للمشاة معلّقًا من فوقه . نظر إلى الأفق ليرى مزيدًا من هذه الجسور . بعضها مرتفع وأخرى منخفضة. بعضها ممتد وبعضها قصير . ***كيف سأجد طريقي في هذا الدهليز؟***

وصل سامي إلى الجدار . أخرج الرسالة ثم وضعها عند الأشعّة وانتظر.

(٧)

لم يفاجئه تشكّل الحروف السحرية . ظهرت الكلمات بسلاسة . جملةً جملة . أخذ سامي يقرؤها:

إن أردت تحقيق أمنيتك فاذهب إلى الجبلِ، ولا تجعل الوادي مستقرًّا . وإن خالفتَ يحتجب الجبل منكَ ثم تنساه وتضيع أمنيتُك.

ولا تغرّنك السنون في الوادي فإنّها أيام في دنياك؛ ثم يأتي يومٌ يسقط الوادي، ويضِيع سعيك وتختفي مغانمك.

وتذكّر: هي رحلة واحدة فقاتل للوصول إلى الجبل . واضحكْ في وجه الموت فإنك إن قُتِلتَ في سعيك تحقّق مرادك.

داوم قراءة الرسالة كي لا تنسَ الجبل . وخذ بيدِ مَنْ معك وذكّر لعلّ الناس تنتفع بتذكرتك.

انتظر سامي ولم تظهر كلماتٌ أخرى. أعاد قراءة الرسالة من جديد ... ***أذهبٌ إلى الجبَل*** ... نظر مرّة أخرى إلى الجبل الضخم المجلّل بالشلالات والأشجار . كان واضحًا جليًّا رغم بُعده.

هل تكون أمّه قد ذهبت هناك؟ أم أنّها بقيَتْ هنا في هذه المدينة؟ لو ذهبت إلى الجبل لعادت إلى دنياه . أو على الأقل هذا ما تقوله الرسالة . ثم كيف ..

داهم سامي شعورٌ مفاجئ أن شخصًا يقف خلفه ويراقبه بصمت.

(٨)

‹‹أهلاً››!

التفتَ سامي ثم نظر إلى الأسفل . كان الرجلُ قصيرًا .. قصيرًا جدًّا . ارتسمَتْ شعراتٌ قليلة على صلعته ، قليلة جدًّا . ابتسامته عريضة .. عريضة جدًّا . برغم قِصَر الرجل إلا أن كل ملامحه كانت بارزة .. بارزة جدًّا.

شفتاه كبيرتان ، أنفه مدبب ، أذناه كبيرتان ، حاجباه عريضان. كان يذكّره بغاندي. كرّر الرجل تحيّته: ‹‹أهلاً››!

أجابه سامي: ‹‹أ ...أهلاً››. مدّ الرجل يده ليصافح سامي ، وقال: ‹‹أهلاً ! فؤاد اسمي››. صافحه سامي: ‹‹أنا سامي؛ مرحبًا بك››.

اتّسعت ابتسامة فؤاد وقد ظنّ سامي أن ابتسامته لا يمكن أن تتسع أكثر. أكمل فؤاد: ‹‹في الوادي السعيد بك مرحبًا››! كانت طريقة كلامه غريبة ، لكن ما زاد سامي استغرابًا كان أمرًا آخر. سأل: ‹‹كيف عرفت أني لستُ من .. أعني جئت إلى .. أعني كيف عرفت أني للتوّ وصلتُ››؟

استقام فؤاد في وقفته عَجبًا ، ثم قال: ‹‹أمران هناك: لباسك أولاً. الصرّة السوداء ثانيًا. وصلتَ للتَو هذا يعني؛ بك مرحبًا››!

كادت مشاعر الريبة تشتعل داخل سامي ، إلا أن ابتسامة فؤاد سَرعان ما أطفأتها. قال فؤاد: ‹‹عن دليلٍ تبحث؟ فؤاد دليل أنا! بإمكان فؤاد أن يكون دليلَك في الوادي السعيد››! أجابه سامي: ‹‹عفوًا ، دليل؟ ماذا تقصد››؟

قال فؤاد: ‹‹دليل؛ مُرشد؛ رفيق؛ طوال حياة فؤاد هنا عِشت. من سكّان الوادي فؤاد. لا بُدَ أنّك جائع ، صحيح؟ تحتاج إلى مكانٍ

لتنام فيه وتتجهّز هممم؟ قبل ذلك لكن: السعر نتفق عليه. نعم. أدينتَيْن في اليوم يأخذ فؤاد. لكن.. طيبًا تبدو. ما رأيك بأدينة في اليوم»؟

تاه سامي بين طريقة حديثه المعقّدة ، والـ«أدينة»؟! لم يعلم إلى أين يتّجه ، وماذا يفعل في هذه الأرض الغريبة. *في هذه الـ...في الوادي ...السعيد*؟! ابتدأ سامي: «عفوًا لكني لا أملك أدينات».

ضحك فؤاد ضحكة الأب الذي يراعي صغيره وسأل مستنكرًا: «لا يمكن .. اليوم أوّل يوم لك ، صحيح»؟! أجابه سامي: «نعم للتو ...» ثم وكأنّه وجد الكلمة التي يبحث عنها بين ركام التيه: «للتو وصلت ... نعم».

أشار فؤاد إلى الصرّة السوداء واستنكر: «رأيت داخلها»؟ هزَّ سامي رأسه نافيًا ، ثم فتحها.

بعد تقليب محتوياتها وجد عصيّ خشبية وخرقة كبيرة .. علّق فؤاد: «خيمة متنقلة هذه . نعم . لتركبها إن أردت». نظر إليه سامي ثم أعادها وأكمل التفتيش .. وجد ثلاثة أطقم من الثياب؛ ومن ثمّ صرّة صغيرة .. ابتسم فؤاد: «صرّة آرامات هذه». سأل سامي: «آرامات»؟

فتح سامي الصُّرَّة الصغيرة .. وجد قطعًا ذهبيّة وأخرى فضيّة .. أخرج بعضًا منها ثم أشار فؤاد إلى قطعة فضية ثم ذهبية وقال: «الفضية أدينة ، الذهبية آرام .. أدينة وآرام .. أدينات وآرامات .. انظر .. لديك ثلاثين آرام ومائة أدينة. نعم. كما العادة هي». *عادة؟ أيُّ عادة*؟!

قال سامي: «تريد أدينة في اليوم»؟ أجاب فؤاد: «فقط حتى تعرف طريقك حول المدينة. معقول همممم»؟ نظر سامي إلى فؤاد ثم إلى القروش التي بيده ، *لعلّه يساعدني أن أجد أمّي*؟ مدّ يده

اليُمنى «حسنًا». ابتسم فؤاد وصافح سامي: «هل أصبحنا أصدقاء»؟ تردد سامي ثم قال: «يبدو ذلك».

(٩)

اخترق "سامي الغريب" و"فؤاد" الطرقات المكتظة والضحكات المرتفعة والأجواء الصاخبة. كان من الواضح أن فؤادًا يعرف كل "خرم إبرة" في الوادي. تأمّل سامي أوجه النّاس بحثًا عن أمّه ، لكنه لم يجد سوى غرباء منغمسين في التبضّع وإنجاز الأعمال.

لم يجد سامي سبيلاً سوى أن يدخل المحلّات ويسأل عن أمّه دون مقدّمات: «هل تعرف سامية العقيق»؟ «هل سمعتم بامرأة اسمها سامية العقيق»؟ «هل لديكِ جارة اسمها سامية العقيق»؟ تنوّعت الأسئلة وكان الوجوم واحدًا .. لا .. بعد أن خرج من المحل العاشر ، وقف سامي ونظر إلى الطرقات: لم تكن قرية .. كانت مدينة شاسعة .. كيف سيجدها؟

(١٠)

جَنَّ الليل معلنًا انتهاءِ يومٍ طويل ، لكنّ سامي كان يريد أن يكمل البحث .. لا وقت لديه .. كان عليه العودة إلى أخته قبل أن ... الوقت ضيّق والمهمّة مستحيلة. أخبره فؤاد أنّه إن كان يريد أن يبحث عن والدته من الصباح إلى الليل فعليه أن يرتاح ويستجمع قواه. كان سامي متعبًا بالفعل ، متعبًا جدًّا. وافق على مضض.

أشار فؤاد إلى مبنًى شاحبٍ قديم عليه لوحة: «فندق البرّاق» ، وقال: «من هنا. بنا هيّا»! قال سامي بنصف ابتسامة: «بنا هيّا»!

انحنى سامي عند بوابة فندق "البرّاق" ليدلف. وجد نفسه في بهوٍ مهترئ. كل قطعة أثاثٍ بما فيها طاولة الاستقبال كانت

عليها غَبَرة. استقبلهم رجلٌ عريض عابس الوجه ، يقرأ جريدة . لولا حركة بؤبؤته؛ لظنَّ سامي أنّه صنم .. لم يرفع رأسه حتى عندما وصلوا عنده . قال فؤاد: «أهلاً».

لم يتحرّك الرجل ، رفع عينيه إلى فؤاد ، ثم إلى سامي ، ثم أعادها إلى الجريدة من دون أن يجيب. أكمل فؤاد: «غرفة نريد لو سمحت» ، أجاب الرّجل: «الدور الأرضي .. غرفة: (٣/ب) .. خمسون أدينة للّيلة».

وقبل أن يجيبه فؤاد؛ انحنى الرجل للحظات ، ثم عاد وبيده مفتاح ، ثم قال: «خمسون أدينة لليلة ، وآرامان للتأمين تأخذها عند الخروج» أعطياه المال ثم ذهبا إلى الغرفة: (٣/ب).

(١١)

ارتمى سامي على السرير ثم تكوَّم عليه من فرط التعب. أخذ يذكر آخر الكلمات التي دارت بينه وبين فؤاد: «خمسة أو عشرة أيام» رفع سامي حواجبه محتجًا . «خمسة أو عشرة أيام حتى نصل إلى الجبل»؟! استنكار سامي لم ينفعه ، ولم تهتز ابتسامة فؤاد الذي أكّد أن الطريق سيأخذ كل هذا الوقت. «خمسة أو عشرة أيّام» كانت آخر أربع كلمات ينطقها قبل أن يخلد إلى النوم ، ويغط في سُبات عميق.

الفصل السابع: سَارَة القاصد

(١)

في كوخٍ مهترئ، انتظرَت الأميرة فيروز قدومها. حاولَتْ مرّات ومرّات أن تثني أخاها الأمير يزيد لكن دون جدوى؛ ***لقد افتُتن بها وقرر أن يتزوّجها. أن يتزوّج هذه البسيطة. يظن أنها تحبه هه!.. لعلها تريد تأمين مستقبل بيتها.. الفقير المتسلّق، لا أكثر.***

اختارت الأميرةُ الكوخَ لأنه كان بعيدًا عن الأنظار. لم تكن تريد أن يعلم أحد بالأمر. لكنها علمت أيضًا: عاجلاً أم آجلاً؛ سيتم إعلان الخطوبة؛ وسيسوّد الأمير سُمعة أسرتها المرموقة أمام الجميع.

انتظرت فيروز قدومها، وتمنّت ألا تصل أبدًا. ولولا أن سعادة أخيها كانت تهمها لقررتْ التخلّص منها بنفسها. ***لعلّ قطّاع الطرق ينجزون المهمّة عنّي.. أتمنّى ذلك.*** لكن أمانيّها في الآونة الأخيرة لم يكُن لها من يستقبلها؛ فمع وَلَعِ أخيها بهذه الفقيرة، ومع جنون أبيها غير المتوقّع، كانت فيروز تعيش أسوأ أيّامها.

تأمّلت السماء من نافذة الكوخ المهترئ. ***آتي إلى مكانٍ وضيع لأقابل وضيعة! لن أسامحك يا يزيد!***

(٢)

مشَتْ "سارة القاصد" ذات الثمانية عشر عامًا وحيدة والقمر من فوقها في كبد السماء . جَرتْ العادة أن تجاري القمر وضاءةً ، لكنّ وجهها اليوم بدا شاحبًا.

كانت تهمهم: ***صوتك يناديني ... يناديني تذكّر؟*** غنّى لها أبوها تلك الأنشودة دائمًا .. عندما كانت تسأله عن مصدرها ، يجيبها أنّها عالقة في ذهنه ولا يعرف مصدرها.

استمرّت تهمهم وهي تتفكّر بتندّر: ***هل ستنتظرني الأميرة فوفو رغم تأخّري؟ ...فوفو ...يه! كم أكرهها!***

اضطرّت سارة أن تتأخّر عن موعدها. انتظرت حتى تنام أمها التي سهرت على غير المعتاد. ***مسكينة حبيبتي .. القلق يأكلها من الدّاخل .. أبي ينام عند القلق وهي تسهر.***

تمتمت كلمات الأغنية: ***تذكّر الحلم الصّغير ، وجدار مِن طين وحصير.*** ثم سرعان ما تحوّل تفكيرها إلى مسألة أخرى: ***شادي المرابي القذر. كان لسانه عسلاً حينما عرض أن يقرضنا ، الآن يتصرّف كالكلب المسعور. يرفع عقيرته على أبي كلّما تأخّر في السّداد ويهدد بطردنا.***

ثم – وكأن الفكرة الأخرى كانت مرتبطة تمامًا بالأولى –: ***ماذا سيقول عنّي النّاس؟! تزوّجتُه لماله؟ .. لا يهم! لا أقوى أن أرى أبي وأمّي هكذا.*** ثم استدركتْ: ***لعلّ الأمير يموت بعد زواجنا؟ لا ، لن يحدث ذلك. لعلّه يملّ منّي اللعوب . لعلّه.***

استمرّت الأفكار تتلاطم ، واستمرّت سارة تهمهم أنشودتها: ***جئت مِن النّسيان .. ومِن كلّ الزّمان ..***

(٣)

طُرِقَ الباب ثلاثًا. ***وَصَلَتْ الملعونة*** . لبسَت الأميرة فيروز أرخص ابتسامة لديها ، وقالت: «أهلاً سارة ، تفضّلي». دخلت سارة وقالت: «شكرًا» ثم أكملتْ: «أعتذر عن تأخّري ، انتظرتُ أمي حتى تنام». لم تعلّق الأميرة.

كانت فيروز تجلس على كرسيٍّ عند الطاولة الوحيدة في المكان ، ثمّ أشارَتْ إلى الكرسيّ الآخر. ألقَتْ سارة نظرة إلى المكان ، برغم ضوء مصباح الأميرة الخافِتْ إلا أن الغبار الذي ملأ المكان كان واضحًا.

لبستْ الأميرة فيروز أجمل الحُليّ كعادتها ، وظهرت بأبهى صورة كعادتها. وكالعادة ، لبست قفّازًا على كفّها الأيمن. دائمًا ما تساءلت سارة عن سبب ذلك. ***بل ربّما كل من في الوادي يتساءل! لكن ، لا يهم هذا الآن.***

جلستْ سارة ، ثم نظرت إلى الأميرة وابتسمتْ. قالت فيروز: «هل اتّخذتِ قرارًا»؟ كانت سارة تود أن تقول: «للأسف نعم» لكنّها اكتفتْ بـ«نعم».

أسندت فيروز ظهرها إلى الكرسي ، وتفحّصت سارة. اعتدلتْ سارة في جلستها ، وقالت: «موافقة». برغم جلستها المستقيمة ، والثقة التي علت محيّاها ، اعتُصر قلبُ سارة.

«حسنًا ، سأرسلِ لك للتنسيق قبل مجيء أخي لخطبتك». كانت فيروز تودّ أن تكمل وتقول: «لعلّي في هذا الوقت سأتمكن من إقناعه أن يغيّر رأيه» ، لكنها اكتفت بابتسامتها الرخيصة.

نظرتْ سارة إلى الأسفل ، ثم قالت فيروز: «سيكون مهرك منزل والدك وخمسمائة آرام» قبل أن تجيبها سارة وقفت فيروز ،

وأكملت: «هل من شيءٍ آخر»؟

أجابتها سارة: «كلَّا» وقد ذهب فكرها إلى عالمٍ آخر .. عالم تكون فيه زوج يزيد.

انقبض قلبُها ...

انتبهت سارة إلى أن رجلاً ضخمًا كان يقف عن يمين الباب. وقف في الظل دون حركة. ارتعدتْ سارة قبل أن تدرك أنه كان جعفرًا ، حارس الأميرة ورئيس الحرس الملكي. فتح البابَ للأميرة وقبل أن يُغلقه سمعتها تقول: «وداعًا»! وتركوا الباب مفتوحًا.

(٤)

كانَ طريق العودة موحشًا. لو كانت أية ليلة أخرى لقلقتْ سارة على نفسها إذ أن المشي في هذه الساعة المتأخّرة خطر. حذّرتها أمّها كثيرًا بقصصٍ مخيفة متنوعة ، لكنَّ ذهنها كان مشغولاً بالمصيبة التي بين يديها.

كان الطريق هادئًا. لو كانت أية ليلة أخرى لانتبهت سارة إلى صوت الخطوات من خلفها. لكن أفكارها كانت قد سافرتْ بها إلى مكانٍ بعيد.

قفز قلبها عندما سمعت صوت حركة على بُعد بضع خطوات منها.

التفتتْ عن يمينها؛ لتجد شابًّا يمشي وحيدًا. نظر إليها وابتسمَ ، ثمّ استمرّ ينظر إلى الأمام. كان الزُّقاق عريضًا يكفي خمسة أشخاص. مشى الشاب في الشق الأيمن منه وكانت سارة في الجهة الأخرى.

بادليه الابتسامة لعلّه يقرّر ألا يخطفك، قالت في نفسها ، ثم

استدركتْ: ***وهل الابتسامة ستمنعه؟! لا تعيريه اهتمامًا.*** وكأنّه سمعها ، قال الشاب: «مساء الخير سيّدتي».

سيّدتي؟! لم ينادني أحد بسيّدتي من قبل.

انساب ضوء القمر من بين العمران ليكشف عن هيئته. كان قويّ البنية. اختلطت هيئته القاسية بمسحة من اللطف في ملامح وجهه.

لم تُجبه.

أكمل بثقة: «أتمنّى ألا يكون وجودي يضايقك». أجابته: «لا». وضع الشابُّ يديه خلف ظهره وتأمّل البنايات من حوله.

تفكّرتْ سارة: ***ماذا يفعل هذا الغريب هنا؟ لا أظن أنّه خرج للتو من مقابلة أمير في الخفاء؛ ليوافق على الزواج من أخته.*** ابتسمت ثمّ أكملت تفكّرها: ***عمومًا ، وجوده في نفس الطريق قد يُبعد قطّاع الطرق عنّي. هذا ... إن لم يكن هو قاطع طريق. لكن .. لا .. لا يبدو كذلك. يبدو نبيلاً.***

بادرها الشاب: «إذا ضايقك وجودي؛ فأخبريني فضلاً ، فبإمكاني الابتعاد» ، ***ما قصّته؟ وما قصّة هذا الأدب الزائد.*** استمرّ الشاب ينظر إلى الأمام ، ***حياءً أم تكبّرًا أم ربّما لا مبالاة؟*** وأخيرًا نطقت قائلة: «لم تضايقني ، لكن أرجو ألا تقترب .. لا أود أن يراني أحد مع شاب مريب في منتصف الليل» قال سامي: «مريب»؟ قالت: «وجودك في هذه الساعة من الليل تمشي وحيدًا مريب». تردّد الشاب ، ثمّ وكأنّ لسانه أفلَتَ قال: «بإمكاني أن أقول الشّيء نفسه عنكِ».

فاجأها جوابه ، لكن لم تكن "سارة القاصد" من النوع الذي يسكت. وقبل أن ترد عليه؛ أطرق برأسه ينظر إلى يديه وكأنّه

يبحث عن بعض الكلمات الهاربة منه ، وأكمل: «أنا جديدٌ على هذا الوادي؛ أبحث عن أحدٍ مفقود. لم أستطع أن أنام وها أنا ذا».

وجدت نفسها تسأل مستنكرةً: «ماذا تعني بأنّك "جديد"»؟! توقّف الشاب ثم ابتسم ابتسامة كسرت قسوته الظاهرة. لم ينظر إليها واستمر ينظر إلى يديه مجيبًا: «أعني أنّي لستُ من الوادي ، وصلتُ يومَ أمس .. أو ربّما قبل أمس .. ذهني مشوّش». لم يكمل الغريب حديثه ونظر إلى الأثير وكأنّه يحاول أن يجد حلاً لأحجية ، قالت: «عفوًا؛ هل تعني أنّك من خارج الوادي»؟ أجابها: «نعم».

نظرتْ إليه سارة تقيّمه ، وابتسمتْ ابتسامة ساخرة ، ثم أكملتْ مشيها: «شاب مريب؛ وكذّاب أيضًا» ، قالت من دون أن تنظر إليه. لحقت نظراته سارة ثم أكمل مشيه نحوها.

لم يقل الشاب شيئًا واستغربتْ سكوته. تمكّن فضولها منها ووجدت نفسها تقول: «لا جواب همم»؟ أجابها: «لا أعرف من أين أتيتِ وهل كنتِ هنا طوال حياتك أم لا. لكن هناك عالم خارج هذا الوادي؛ أنا من مدينة اسمها الرياض. هل سمعتِ عنها من قبل»؟ أجابته مباشرةً: «لا»؛ فقال: «لا أستطيع أن أثبِتَ لكِ أنّي لستُ من هنا أجل».

هذه المرّة التفتتْ سارة؛ لتقول ... ثمّ التقت أعينهما لأوّل مرّة. ارتبكتْ سارة ، ونسيت ما كانت تريد قوله . سرتْ رجفة خفيفة في قدميها وشعرت بمعدتها تعتصر .. لم تستطع أن تفسّر ما كانت تشعر به؛ هل كانت متعبة؟

قال الشاب: «هل كنتِ تودّين قول شيئًا»؟ أحسّت سارة أن كلماته شدّتها من تلك المشاعر الغريبة ، وانتبهت إلى أنّهما توقّفا عن المشي عند مفترق زقاق. بحثت عمّا تقول: «آه ...» ثم استدركت: «نعم . طريقي من هنا» ، ثم أشارت إلى الزُّقاق الأيسر.

في أيّ حالة أخرى كانت سارة ستكمل حديثها بقول: «طاب يومك» وتذهب ، لكنّ تلك المشاعر الغريبة كانت تنهرها.

ربّما هو الفضول الذي أشعر به؟ نعم. لا بدّ أنّه ذاك. كانت تعلم تمام اليقين أنّه لم يكن فضولاً ، لكنّ النّاس يحتاجون إلى استغفال أنفسهم من حين إلى آخر كي يبرّروا أفعالاً لم يريدوا مواجهة حقيقتها.

ما بك يا سارة؟! هذا رجلٌ غريب وأبوك ربّاك تربية محترمة. هيّا قوليها: طاب يومك! لكنَّ سارة القاصد وجدت نفسها تقول: «ماذا عنك»؟ قال الشّاب: «أنا؟ أنا لا وُجهة لي؛ لقد نزلتُ في فندق اسمه البرّاق ولا أحتاج أن أعود إليه إلا في الصباح الباكر» سكت قليلاً ثم أكمل: «هل الطرق آمنة مساءً»؟

أجابت: «ما هذا السؤال الغريب»؟ وحين لم يعقّب ، قالت: «يعني؛ ليس دائمًا». قال الشاب مباشرةً: «سأرافقك إلى حيثُ أنتِ ذاهبة». تفكّرت قليلاً: ***سيكون مريحًا جدًّا وجوده معي في الطريق .. لكن ...*** هزّت رأسها: «لا داعٍ لذلك؛ أستطيع أن أدبّر نفسي. شكرًا لنبلك».

نعم يا سارة. تماسكي. تماسكي.

قال الشاب بحزم: «اعذريني: ألم تقولي أن الطرق غير آمنة»؟ قالت: «بلى ولكن..». قال الشاب: «أكملي سيرك سيّدتي وسأرافقك. أنا أتفقّد المكان على كل حال».

"سيّدتي" مرّة أخرى؟! من أين لي أن أكون سيّدة؟

توجه الشاب نحو الزقاق الأيسر ثمّ لحقته. تسلّل ذاك الشعور المربك اللذيذ إليها مجدّدًا. حاولت سارة تجاهله ، لكن محاولاتها لم تكن كافية .. إمّا أنّ تلك المشاعر كانت قويّة ، أو أنّها

لم تحاول بما فيه الكفاية. أو كليهما.

استمرّا في المشي قليلاً ولم يقل الشاب شيئًا. جرتْ العادة أن يحاول الشباب فتح مواضيع تافهة للتحدّث معها؛ لكنّه ظلَّ صامتًا، يتأمّل النوافذ والبيوت، كأنّه يبحث عن شيءٍ مفقود.

قطعت سارة هذا الصمت المطبق، وقالت: «لا يسكن فندق البرّاق إلا من طردته زوجته، أو مَن هو هارب من المشاكل. أيّهما أنت»؟ ضحك الشاب: «ليست لدي زوجة .. ولكن ..»، ثم أطرق رأسه يتأمّل الخيار الثّاني. ابتسم وقال: «نعم، بالإمكان أن نقول أنّ لدي مشاكل».

بدد صوتُ خطواتهما الصمتَ لبرهة حتّى قال الشّاب: «لم تخبريني ما الذي أخرجك أنتِ في هذا الوقت "المريب"»؟ أطرقت سارة رأسها تبحث عن إجابة ثم ابتسمتْ مسرورة وقالت: «بالإمكان أن نقول أن لدي مشاكل أيضًا». قال الشاب ساخرًا: «هل يعني هذا أنّي سأراكِ في فندق البرّاق قريبًا»؟

قالت سارة: «لا»، وبذكر المشاكل تذكّرت أمرًا وقالت: «أرجو ألا تتضايق، لكن إذا اقتربنا من منزلي أرجو أن نفترق عند المفرق»، قال الشّاب: «لماذا»؟ قالت: «لا أودُّ أن يراني جيراني معك ويظنّون بي ظنّ السوء»، ثمّ أعقبت: «مع احترامي الشديد لك طبعًا». ***"بتكحلينها عميتيها يا سارة"!*** أومأ الشاب برأسه إيجابًا ولم يقل شيئًا؛ وأكملا سيرهما.

مرّت دقائق صمت، فعاودتْ سارة تهمهم لحن الأغنية: ***"ناديت خانتني السنين اللي مضت راحت"***. بعد لحظات، توقّف الشّاب، وقال: «أمتأكّدة أنّكِ لا تعرفين مدينة الرياض»؟ قالتْ: «ما زلتَ تحاول تمرير قصّتك الغريبة؟ حسنًا ... لا. لم أسمعْ بها»؛ فأجابها بهدوء: «ومن أينَ عرفتِ لحن "صوتك يناديني"

إذن»؟!

الآن الأمور تغيّرت .. تغيّرت تمامًا. قالت: «مِن أين .. كيف .. هذه الكلمات علّمنيها أبي» ، قال الشاب: «هذه قصيدة لشاعر اسمه بدر بن عبدالمحسن ، وأنشدها كثيرون حتّى اشتهرتْ. معروفة لدينا في مدينة الرياض».

نظرتْ إليه دون أن تقول شيئًا؛ حاولتْ أن تجدَ طريقة لتشرح كيف عرف هذا الشاب الغريب أغنية أبيها. عاشت في الوادي طوال عمرها ولم تسمع عن أحدٍ أتى من خارجه؛ ***أساسًا لا يوجد شيء خارج الوادي!***

جاءها صوت الشاب من بعيد: «عفوًا لم أتعرّف على اسمكِ بالمناسبة». قالت: «سارة» ثم استدركتْ بسؤال نصفه فضول ونصفه تكذيب: «من أيٍّ مدينة قلت»؟ أجابها: «مدينة الرياض». سألت بنفس الوتيرة: «وما اسمك»؟ أجابها: «سامي الغريب».

(٥)

كان سامي مستغرقًا في الشعور الدافئ الذي تملّكه منذ أن رآها.

ظنّ أن هذه المشاعر تأتي تدرِيجيًّا؛ كالأمواج المتلاطمة ، تضرب صخور الشاطئ حتى تعيد تشكيلها ، لكنّ سارة كانت شرارة ، ولم يكن يعلم أن قلبه قابلٌ للاشتعال. بدا له أن شعور الانجذاب يشق طريقه دون استئذان أو أي احترام لغيره من المشاعر التي سكنت قبله .. أتى ولم يبال بانشغاله بإيجاد والدته.

أضاءت عيناها اللوزيّتان الواسعتان ظلمة تلك الليلة. قطعت أهدابها الطّوال كل الهموم التي كانت تشغل ذهنه ، ورسمت شفتاها الخمريّتان الممتلئتان أرقَّ ابتسامة. نُكِتَ في أعلى حاجبها الأيسر شامة صغيرة على جبينها الفسيح . كانت أقصَر من

سامي ، لكنّ بدا له أن كلّ شيء قد توارى دونها .. شعر بصغر قلبه أمامها ، وضيق أنفاسه معها.

(٦)

مرّت مدّة لم يعرف كم كانت .. نصف ساعة؟ أكثر؟ أقل؟ تبادلا فيها أطراف الحديث حتّى أشارت سارة إلى زقاق يبعد عنهما عشرين مترًا وقالت: «منزلنا على اليمين مباشرةً بعد هذا الزقاق».

سمعوا صوتَ عراكٍ من مكانٍ قريب. توقّفا دون حركة لكن سرعان ما خفت الصوت .. أشار سامي إلى زقاقٍ أمامهم وهمس: «من هنا»!

في تلك اللحظة ، خرجَ رجلٌ مُلَثّم من الزقاق ، نظر إليهما لثانية أو اثنتين ثم ركض بعيدًا عنهما.

مشى الاثنان إلى الزقاق بخطواتٍ حذرة ، عندما اقتربا وجدا جثّةً مُلقاةً على الأرض تلفظ أنفاسها الأخيرة. وضع الرجل يديه على صدره. نظر سامي إلى حيث يديه؛ ليجد سائلاً أحمر يتدفق من بين ثنايا الخنجر الذي طُعِنَ به. شهقتْ سارة واقتربْ سامي ببطء ليجد ... لم يصدّق عينيه. نظر مجدّدًا ، ثم قال: «الماحي»؟!

(٧)

دافع "الماحي" أنفاسه. كان صدره يضطرب ، حدّق إلى مكان الطعنة ثم إلى وجه سامي. جثا سامي هلعًا وتمتم: «الماحي» تأمّل الجسد الملقى .. هل هذا الذي قصده "المالك" عندما قال للماحي: إنّه سيُبلي بلاءً حسنًا؟ *وهل الموت بلاءٌ حسن*؟! جلس سامي لا يعرف ما الذي عليه فعله.

التفتَ إلى سارة التي وقفت صامتةً مفزوعة. عاود النّظر إلى الماحي مجدّدًا ثمّ قال الماحي آخر كلمتين قبل أن يموت: «إنه منهم» قال سامي: «منهم»؟ نظر الماحي إلى الطعنة ولم يُجب ، قال سامي: «منْ مَنْ يا الماحي»؟ اتّسعت عينا الماحي ، ونظر إلى سامي ، ثمّ توقّف صدره عن الحركة ، وبقيت عيناه تحدّق في عيني سامي. جاء صوتٌ جهوريٌّ خلفهما: «لا تتحرّكا! باسم الملك آمركما! لا تتحرّكا»!

(٨)

لم يُمهله رجال الأمن فرصة .. انطلقوا نحو الرجل الغريب الذي يقف عند الجثّة وضرب أحدهم رأسه؛ فأفقده وعيه.

(٩)

عاد سامي إلى وعيه على وقع صوت بابٍ يُوصد ، فكّ قطعة القماش الملفوفة حول عينيه؛ ليجد نفسه في حجرة مظلمة كبيرة. بدا له أن الحجرة كانت تحت الأرض. انتشرت أعمدة سوداء عريضة في أرجائها ، ورُكِزَ على بعضها قطع خشبية مشتعلة.

بسبب الظلام شعر سامي أنّ هذا ... هذا السرداب لا حدّ له.

نظر إلى الخلف؛ ليجد الباب الذي سمع صوته وهو يوصد. كان بابًا حديديًّا أصمّ لا مقبض له. أعاد النظر إلى السرداب: أرضيته ترابية ، سكن الغبار على كل شيء .. توزّعت شبكات عنكبوت كبيرة في جَنَبَات المكان.

جثا على ركبتيه ، وحاول أن يقف إلا أن الموضع الذي ضُرِبَ في رأسه بدأ ينبض ألمًا. وضع يده على موضع الضربة وأحسّ بانتفاخ. جلس مستندًا على أحد الأعمدة وحاول أن يقاوم الألم

لكنّه كلّما لمس موضع الضربة شعر بوجعٍ يكهرب سائر جسده. شيئًا فشيئًا وجد نفسه مستلقيا على الأرض حتى خيّم عليه الظلام.

(١٠)

لم يعلم سامي إن كان قد نام أو فقد الوعي .. كما لم يعلم إن كان سيصحو ويجد أن كل ما جرى كان محض حلم: الحكيم ، ذو العمامة الخضراء ، الجبل ، كلّها أحلام. بل ربّما حتى يكون مرض أخته واختفاء أمّه محض أحلام مزعجة أيضًا؛ نعم ... سيفتح عينيه ، وسيكون كل شيءٍ على ما يرام.

(١١)

دافع عينيه ، ونظر حوله: لم تزلْ ظلمة السرداب تغطّيه. هل فقد وعيه للحظات أم ساعات .. أيّام ربّما؟

اعتدل في جلسته ، ومسح التراب عن خدّه الذي وقع عليه. نظر نحو الأفق المظلم. لم يسمع سوى شعلات النار التي ملأ صوت فرقعتها السرداب.

مَنْ قتل الماحي؟ ربّما أغضب أحدًا وتشاجر معه؟ هل كان في المكان الخاطئ في الوقت الخاطئ؟ هل كان حظّه بذاك السّوء؟ أم **... هل كان هناك من يترصّده؟ هل لأنه أتى إلى الوادي حديثًا؟ إن كان كذلك؛ هل يعني أنّني في خطر؟ .. أنّ رمزي ومريم في خطر؟**

كان ضائعًا تمامًا؛ شعر بالضيق ، والغضب ، والجزع. كالمياه التي تغلي ، هزّت هذه المشاعر سامي من الدّاخل. إلى متى سيبقى في هذا المكان؟ هل ستفوته فرصة العودة إلى أخته؟ هل سيبقى طوال عمره هنا ولن يرى والدته مجدّدًا؟ وهل ... ثم جاءه طيفٌ خفّف عنه بعض آلامه: سارة. تلك الجميلة التي مشى معها تحت

ضوء القمر.

سارة؟ تُرى .. نادى سامي: «هل من أحد؟..سارة»؟

انتظر ، لكن لم تجبه سوى فرقعة النّيران. نادى مرّة أخرى: «سارة؟ هل من أحد»؟ أنصتَ ولم يسمع شيئًا. نادى اسمها تباعًا .. مشى باحثًا ، وحرّك يديه في الهواء كأنّه يزيح الظّلمة عنه.

لا شيء!

إلا أنّه شعر أن عيونًا تراقبه.

الفصل الثامن: رَئِيسُ الأَمْن

(١)

ارتمى مدحت – رئيس الأمن – على الكرسي بعد ليلة طويلة. أسند رأسه ، وأغمض عينيه .. *كدتُ أن أتسبب في هلاكي. خطأ جسيم كهذا لم يكن ليُغتفر!* تنهّد وهذه الكلمات تدور في رأسه. مسح على جبينه .. *من أين لي أن أعرف أن تلك الصعلوكة خطيبة الأمير يزيد في السر؟!*

نظر إلى النافذة: خيوط الفجر الأولى ترتسم على لوح السماء الداكن. *كانت فعلاً ليلةً طويلة.* كان مدحت محظوظًا ، محظوظًا جدًّا؛ فقد أرسلت الأميرة فيروز جعفرًا إلى مركز الأمن لينسّق بخصوص .. *بخصوص ماذا؟ لماذا أتى؟ لا يهم. المهم أنّ جعفرا رأى الفتاة قبل أن نؤذيها وأنقذني .. أنقذنا جميعًا! طرق أحدهم الباب. يوه! ماذا بعد؟!*

نظرة واحدة إلى الباب جعلت مدحت يقول: «تفضّل»!

دخل إليه رئيس الحرس الملكي جعفر الذي كاد رأسه يلامس سقف الغرفة. مشى حتى وقف عند مدحت: «بشّر»؟ قال مدحت.

«الفتاة بخير؛ ستعود إلى منزلها الآن. أخبرَتْني أن الرجل الذي كان معها لا ذنب له» ، قال مدحت: «وهل تظن أنّها صادقة؟ ثمّ ما الذي أخرجها في هذا الوقت من الليل لولا أنّها كانت خلف قتل ذلك المجهول»؟

قال جعفر بهدوء: «هي صادقة ، والرجل لا ذنب له. اذهب

وأخـرج الرجـل. أمـا هـي فقـد أمـرتُ أن تـذهب إلى منـزلهـا». وقـف مـدحت: «لا يحـق لـك فعـل ذلـك! نحتـاج أن نحقـق معهـا .. لـيس للحرس الملكي شأن في هذا».

أخذ جعفر خطوة إلى الأمـام. في المقابل أخذ مـدحت خطـوة إلى الوراء .. *بإمكانِ هذا المجنون فعل أي شيء!* أكمل جعفـر بصـوته الخشـن وبنـبرة خاليـة مـن الانفعـال: «بإمكانـك أن تشـكو للأمـير يزيد إن شئت». *حيوان!* قالها مدحت في نفسه ولم يتجرّأ أن ينـبس ببنت شفه. قال: «لا بأس ، المرّة المقبلة؛ نسّق معي».

اتّجه جعفـر إلى البـاب دون أن يجيبـه. قبـل أن يخـرج ، قـال: «أخرِج الفتى؛ وابحث عن القاتل الحقيقي».

الفصل التاسع: الأَجْوِبَة

(١)

أمسك الحارسُ سامي وأوصله إلى طريقٍ عام أمام مركز الأمن .. لم يطل المكوث هناك ، ساعتين ربّماً؟ نظرات رئيس الحرس كانت غريبة ، سأله بعض الأسئلة وأجاب سامي عنها ، كان يعلم أن أجوبته لم تكن مقنعة:

- «لماذا كنت تمشي في الليل»؟
- «لم أكن أريد أن أنام».
- «لماذا كنت بصحبة الفتاة»؟
- «التقيت بها صدفة».
- «لماذا كنت تقف عند الجثة»؟
- «لأنّي سمعت صرخة».

ومع هذه الأجوبة غير المقنعة بتاتًا أفرجوا عنه .. وبرغم كراهيته للكذب؛ ضلَّ سامي المستجوب بإجابة واحدة:

- «هل تعرف الميّت»؟
- «لا».

لو قلتُ لهم: إنّي أعرفه؛ لدخلت في متاهة من الأسئلة التي لا أعرف إجابتها ، ثم لكنتُ سأجد نفسي في ذلك السرداب المظلم مجدّدًا!

قبل أن يطرده مدحت سأل سامي: «هل تعرف سامية العقيق»؟ أجابه: «لا ، والآن اذهب واشكر الفتاة. المرّة المقبلة؛ لن تكون موجودة لإنقاذك».

(٢)

غارقًا ﭬ حيرته ، مشى سامي بين الأزقّة. كلّما انتهى من لغز ، وجد نفسه أمام لغزٍ آخر. ظلمات بعضها فوق بعض.

ارتفعتِ الشمس قليلاً وتدفّق النّاس إلى الطرقات؛ سأل سامي بعض المارّة عن والدته وقوبل بالإجابة نفسها: النفور منه وكأنّه متسوّل.

قرّر أن يعود إلى الفندق لعلّه يجد حلاً آخر. سأل عن الفندق؛ فوجّهوه إليه. عندما وصل جاءه الرجل القصير ينادي: «طرقتُ بابَك ، والإجابة لم أجدها ولكن .. هل خدمة فؤاد لا تريدها»؟!

وضع سامي يده على كتف فؤاد وقال: «بالعكس فؤاد ، أنا بحاجة إليك أكثر من أي وقتٍ مضى؛ لديَّ الكثير من الأسئلة». ابتسم فؤاد وقال: «هذه وظيفة فؤاد؛ هل تريدُ من فؤاد "يفسّحك" ﭬ الوادي»؟ أجابه: «لا أريد أن "تفسّحني" .. أريد أن تجيب عن بعض الأسئلة .. تعال إلى غرفتي».

(٣)

جلس سامي على السرير بعدما أجلس فؤاد على الكرسي. حالما نظر ﭬ عينيه ضاعت الكلمات. ***ماذا أسأله بالضبط؟ من أين أبدأ؟***

طوى سامي ساعديه ثم قال: «أخبِرْني كيف عرفتَ أنّي جديد ﭬ الوادي»؟ نظر إليه فؤاد وكأنّ لسان حاله يقول: ***ما هذا السؤال الغبي***؟! لكنه سرعان ما غيَّر ملامح وجهه وكأنّه عدل عن ذلك وقال: «ملابسك الغريبة ، والصُّرّة السوداء. المهاجرون دائمًا

ثيابهم غريبة››.

قال سامي بحماسة: ‹‹دقيقة .. أتعني أنّكم اعتدتم على مجيء "المهاجرين"››؟! قال فؤاد: ‹‹نعم ... يأتون أحيانًا مرّتين في السنة. أحيانًا مرة في السنتين ، وأحايين مرّة كل عشرين سنة››. انحنى سامي إلى الأمام مقتربًا من فؤاد ، ثم سأله: ‹‹ومن أين يأتون››؟

رفع فؤاد حاجبيه: ‹‹لا أعلم؛ عند المبنى القديم تظهرون دائمًا بثيابكم الغريبة››. اعتدل سامي في جلسته وقال: ‹‹ولماذا››؟! أجابه: ‹‹لا أعلم››.

أخذ سامي نفسًا عميقًا .. استمرَّ فؤاد ينظر إليه مبتسمًا. تذكّر سامي الرّسالة ، وقال: ‹‹حسنًا ، وما الذي يفعله المهاجرون››؟ أجاب فؤاد مباشرةً: ‹‹يبقون هنا ...›› ، ثم استدرك: ‹‹وقليلٌ منهم يذهبون إلى الجبل››.

سأله سامي: ‹‹وماذا يفعلون عند الجبل››؟ أجاب: ‹‹لا أعلم››. ارتفع صوت سامي: ‹‹ما الذي تعلمه إذن››؟! قال فؤاد: ‹‹البشر لا أفهمهم››.

قال سامي: ‹‹البشر››؟ قال فؤاد: ‹‹نعم البشر››. سأل سامي: ‹‹ومَنْ أنتم››؟! أجاب فؤاد وقد اعتدل في جلسته مفتخرًا: ‹‹نحن الأشامسة ، السّكان الأصليون .. كنّا هنا قبل المهاجرين البشر››. استغرب سامي: ‹‹أولستم بشرًا أيضًا››؟!

قال فؤاد: ‹‹آدم أبوكم ، الأشمس أبونا. نحن أقصر .. أنتم أطول .. الطول فرقٌ بيننا فقط›› ، أكمل سامي: ‹‹ماذا تعني››؟ أجابه فؤاد: ‹‹لا فرق بين الأوادم والأشامسة إلا بالطول›› ، قال سامي: ‹‹هل يعني أن كل من في الوادي من الأشامسة؟ لكن ... لا يمكن. أغلب من رأيت أطوالهم عادية›› ، قال فؤاد: ‹‹الآن في

الوادي الأغلب بشر ، والأقليّة أشامسة». اعتدل سامي: «ولم يكن الحال كذلك في السّابق»؟

لأوّل مرّة منذ أن التقى به سامي؛ اختفت من محيّا فؤاد ابتسامته .. صار وجهه شاحبًا في لحظة؛ وكأنَّ أحدهم أطفأ النّور فجأة.

هزّ فؤاد رأسه نافيًا. قال سامي: «ما الذي حدث»؟

(٤)

نحنُ كنّا سكّان الوادي الأصليين .. الأشامسة اسمنا .. منذ قرون نعيش في الوادي تحت ظل الجبل العظيم .. لا يملك مفتاح أبواب الوادي سوانا.

جاءنا جنود (المالك) المتلثّمين ، وقالوا: إنّ "الحكيم" سيأمر أقوامًا من أبناء آدم بالذهاب إلى الجبل؛ وسيصير الوادي جسرًا لهم. طريقًا لهم. معبرًا لهم.

طلب جنود (المالك) أن نصنع لهم مفتاحًا آخر للوادي. قالوا: إن (المالك) وجنده سيتولّون إيصال البشر إلى الوادي. ثمّ قالوا: إن البشر عليهم الذهاب إلى الجبل وحدهم. لم يزد عن ذلك ، ولم يشرح ، ولم يوضّح.

ثم جاء أوّل ثلاثة مهاجرين: جابر وأدهم وسلمان. كانوا مجرّد مهاجرين. إلى الوادي وصلوا؛ مثل آلاف المهاجرين وصلوا بعدهم. جاؤوا بنفس التوجيهات التي جاء بها من بعدهم: اذهبوا إلى الجبل. أمر بسيط هممم؟

ثلاثة كانوا .. استقبلناهم استقبالاً حافلاً. بقي سلمان أيّامًا بسيطة ثم إلى الجبل توجّه. اثنان استأنسوا ، وبقوا. بضعة أيّام إضافية اتّفقوا أن يقضوها؛ ثم يلحقوا بصاحبهم .. بضعة أيّام

فقط .. هكذا قالوا.

بنـا اختلطـوا حـتى عرفـوا عـن "الثمـرة" .. ومـا تمنيـت أن عرفـوا.. صـديقي سـامي؛ ستسـألني: مـا الثمـرة؟ أُجيبـك: تعطـي الثمرة مالكها ما يتمنّى.

جاء مهاجرون آخرون ، ثم آخرون. حتى زاد عددهم .. كانوا حينها يأتون كل أسبوع .. ثم أن يأخذوا الثمرة تآمروا. بقيادة جابر تـآمروا .. حـتى قامـت المعركـة العظيمـة بـين البشـر والأشامسـة. وانتصر المهاجرون.

لم يكن جابر ملكًا ولا أدهم وزيرًا عندما أتوا. كانوا ضيوفًا. الآن جـابر ملـك وأدهـم وزيـره. انتصـر المهـاجرون .. نعـم .. لكـنّ كبراءنـا أخفـوا الثمـرة قبـل أن يتركـوا الـوادي .. ولا زال المهـاجرون يبحثون عنها.

(٥)

كـان سـامي يسـتمع بـتمعّن إلى كـل مـا يقولـه فـؤاد .. عنـدما انتـهى أسـند سـامي ظهـره ، وقـال: «هـذا يفسّـر أن كـل الأبـواب قصـيرة؛ لقـد بـنى الأشامسـة هـذا المكـان إذًا»؟ هـزّ فـؤاد رأسـه إيجابًا.

قـال سـامي: «لكنـك مـا زلـتَ هنـا ، بـرغم انتصـار البشـر. لماذا»؟ أجابه فؤاد: «بقي بعضنا أسرى: أطفـال ، مرضـى ، شيوخ ، ضعفاء. اشترطوا ألا نخرج من الوادي. نعم كما يحلو لفؤاد يمشـي في الطرق هنا. لكن عبدٌ أنـا. لأنظمتهم وقوانينـهم فؤاد أسـير. وفي أي لحظـة يقتلـون فـؤادًا ممكـن. إن حـاول فـؤاد أن يغيّـر شـيئًا سيقتلونه. إن حاول قومي العودة سيقتلونا. رهائن نحن».

لم يقل سامي شيئًا. تشرّب ما قاله فؤاد بهدوء.

أكمل فؤاد: «بعد الاقتتال؛ أخذ المهاجرون مفتاح الوادي الثّاني من الأشامسة. وصار لا يملكها سوى ملك المهاجرين. الملك جابر. والنسخة الثانية عند المالك. والمالك يُدخلُ إلى الوادي فقط من لديه رسالة كما هو مأمور» ، قال سامي: «المالك وقف مع المهاجرين إذن»؟ أجابه فؤاد: «لا. المالك وظيفة لديه: إدخال من لديه رسالة. فقط. يقوم بها هو ولا يتدخل».

قال سامي: «وهل كل الموجودين في الوادي اليوم من المهاجرين»؟ أجاب فؤاد: «نعم. إلا من يشبهني ، فهم أشامسة». كرّر سامي إجابة فؤاد: «في هذا الوادي لا يوجد سوى البشر ، وبقايا الأشامسة صحيح»؟ رفع فؤاد سبّابته متذكّرًا: «لا تنسَ المالك وجنده». قال سامي: «صحيح ... ولا أحد سواهم»؟ أجابه فؤاد: «نعم».

أكمل سامي تحقيقه: «متى حدث كل هذا؟ أعني متى أتى أوّل المهاجرين: جاسم وأدهم وسلمان»؟ أجابه فؤاد: «قبل ، مائة سنة ، ربّما ألف. ربّما أكثر» ، قال: سامي: «كيف لا تعرف المدّة»؟! قال فؤاد: «الوقتُ هنا إدراكه .. صعب». مدّ فؤاد كفّه إلى الأمام ثمّ قبض على الهواء وقال: «يتسرّب».

حاول سامي أن يحصل على الإجابة بطريقة أخرى: «كم جيل أتى منذُ أتى أوّل المهاجرين؟ هل لهم أبناء؟ أحفاد؟ أحفاد أحفاد»؟ نظر فؤاد إلى سامي نظرة كلّها حيرة: «لا يُنجِبُ هنا أحد. كل من تراهم قد أتى بهم المالك .. في الوادي لم يولد أحد من البشر هنا» وهزّ رأسه نافيًا .. سكتَ سامي قليلاً ، ثم قال: «ماذا عن الأطفال الذين رأيتهم في الشارع»؟ أجاب: «أغلبهم مع أهليهم أتوا».

حاول سامي مرّة أخرى: «هل تعني أن كل من يعيش هنا عمره مئات السنين؟ أو أكثر أو أقل»؟ أومأ فؤاد رأسه إيجابًا. أكمل

سامي: «لماذا لم يموتوا أو ينجبوا»؟! أجابه فؤاد: «لا علم لدي عن طبيعة بني البشر. أتوا إلى هنا ولا ينجبون». تمتم سامي وكأنّه يكلّم نفسه: «كالمعلّقين».

عاد سامي يسأل: «حسنًا لماذا أتى بهم الحكيم»؟ قال فؤاد: «لا أعلم» ، سأل سامي سؤالاً آخر: «لماذا لا يذهب المهاجرون إلى الجبل»؟ رفع فؤاد كتفيه: «لا أعلم. ربّما عن الثمرة يسمعون وعنها يبحثون».

ليس لديه المزيد ليخبرني ...

ابتسم سامي ووضع يده على كتف فؤاد ، قائلاً: «شكرًا لك يا فؤاد؛ لقد ساعدتني كثيرًا. هل بالإمكان أن نؤجل خروجنا؛ أود أن أفكّر فيما عليّ فعله». أومأ فؤاد مبتسمًا: «بالتأكيد كلّه»!

الفصل العاشر: هِيَ وهُوَ

(١)

مَشَتْ سارة باتّجاه منزلها في الصباح الباكر. سرى نسيمٌ عليلٌ حرّك غصون الأشجار، وبعثر قراطيس الطرقات .. التَفَّ بين الأزقّة حتى وصل إلى سارةَ .. ألصق جلبابها بجسدها وداعب وجنتيها، لكنّها مشَتْ دون أن تنتبه لهذا كلّه.

ليلة سيئة .. تأخّرتُ على الملعونة؛ وقُتِلَ رجلٌ أمامي؛ وقُبِض عليَّ؛ لحسن حظّي كان جعفر موجودًا .. ثم استدركت ... لم تكن ليلة سيّئة تمامًا ... كانت ليلة محيّرة .. نعم هذا وصفٌ أدق! وذاك ... ذاك المهذّب. من أين أتى يا ترى؟ هو وعيناه اللتان كانتا تتأمّلان المباني كأنّهما تريانها لأوّل مرّة. عيناه العسليتان .. عيناه ...

شعرت بشيءٍ دافئٍ ينساب داخلها.

سارة. ما بالك؟! لمَ أفكّر فيه كأني فتاة واقعة في لوعة الحب؟ سأتزوّج الأمير. وسأطمئنُّ أخيرًا على مستقبل منزلنا. نعم. عليَّ أن أنساه، وأطوي صفحته.

لكنّ القلوب لا تجيد طيِّ الصفحات ...

أكملتْ سارة تفكّرها: ***لكن ...من بد الأيّام! من بدّ الأماكن! من بد الأزمان! لماذا جاء في الليلة التي وافقت الملعونة على الزواج من أخيها. هل هذا ما يسمّيه الأوّلون (القدر)؟ القدر الذي يعصف بصاحبه ويحطّم أعتى الأبواب الموصدة؟***

هل هو القدر الذي كان يحطّمها؟ أم عيناه؟ ***لكن، كيف لعينيه أن تحطّم شيئًا والسكينة تنبعثُ منهما؟***

يوه. دعكِ من هذا؛ نعم سأتزوّج وسينتهي كل شيء!

حاولتُ أن تفكِّرَ في أمرٍ آخر ووجدتْ نفسها تقول: ***ترى ، هل أفرجوا عنه؟ عندما أخبرتُهُ جعفرا لم تتغيّر ملامح وجهه. ليتني أصرّيت. لكن ...إن فعلتُ ذلك قد يشك أنّ بيني وبين سامي شيئًا .. ما الذي يفسّر مشيي معه في الثلث الأخير من الليل أصلاً؟ نعم. عدم إصراري كان قرارًا حكيمًا. الآن اتركي هذه الوساوس.*** طوت يديها وأكملتْ مشيها.

أملّت سارة أن تكون الوسائد المكدسة تحت لحاف سريرها كافية لإقناع أمّها أنّها كانت نائمة .. لكن ، هل ستناديها أمّها هذا الصباح؟ ***هل ستأتي إلى حجرتي وتحرّك "اللحاف" وتكشف أمري؟ أم هل ستذهب لشراء حاجيات المنزل كما أخبرتْني ليلة أمس؟*** عادَتْ صورة سامي إلى مخيّلتها من جديد ، ووجدت نفسها تفكّر فيه مرّةً أخرى.

(٢)

جلس سامي في غرفته غارقًا في أفكاره .. ***والآن ماذا؟*** نظر إلى النافذة .. بعد أن كانت خيوط الشمس تتسلّل في أوّل الصباح ، صار كل شيء تحت سطوتها الآن. تحوّلت زرقة السماء إلى درجةً أفتح ، وكان الجبل حاضرًا بكلّ جلاله ، شاهدًا على الوادي ومن عليه.

ماذا سأجد في سفحك يا ترى؟ هل أنتِ هناك؟ أم لا زلتِ في المدينة؟

لم يستطع تحمّل حرارة الغرفة أكثر. توجّه نحو النافذة ، وفتحها ، وإذا بنسيمٍ عليل يلامس جبينه. أغمض عينيه ليستلذَّ به ، ولكنّ تلك النّسمة كانت قد زارتْ امرأة ذات عينين لوزيّتين قبل قليل. امرأة كانت تتفكّر في شابٍّ التقت به قبل ساعات. لامست النّسمة جبين سامي وحملت معها طيف سارة. شعر سامي بسَكِينَةٍ تغمره .. على وقع ذاك الشعور المريح لاحت لمخيّلته

صورتها. حاول أن يسترجع كل تفاصيل اللقاء ، وللحظة -لحظة بسيطة جدًّا- نسي سامي كل شيء.

(٣)

وقفتْ سارة عند باب بيتها وفتحته ببطء. كلّما نطق الباب بصريره توقّفتْ وانتظرتْ أن تأتيها خطوات أمّها المتسارعة.

لا شيء .. اكتفت بفتح الباب قليلاً ثم اندست في منزلها بحذر. تلفّتتْ يمينًا في اتّجاه المطبخ ، وأرهفت سمعها؛ لا شيء أيضًا. ***ممتاز. يبدو أنّها خرجت.*** أكملتْ مشيها على أطراف قدميها حتى وصلت إلى غرفتها. تفحّصتْ جنباتها ولم ترَ أثرًا لدخول أحد. قفلتْ الباب خلفها ثم ارتمتْ على السرير.

كما هي العادة: أخذت تتحسّس رجليها. كانت عادة قديمة ، لا تعلمُ منذ متى اكتسبتها لكنها لم تعد تشغل نفسها بها هذه الأيام. الآن انشغلت سارة بالشاب منذ أن رأته. ***هل سأراه من جديد؟ أم انتهى كلُّ شيء؟*** هل من مصلحتها لقاؤه أساسًا؟ هل ستكتشف سرَّ هذا الرجل الغريب؟ هل تريدُ أن تلقاه؟ وهذا السؤال الأخير كان أعماق أعماقها يعلم جوابه جيّدًا.

بدأ النُّعاس يفرض نفسه ، ورفّت عيناها تقاومه. ***سأغمضُ عَينَيَّ لكنّي سأبقى مستفيقة.*** كان أعماق أعماقها أيضًا يعلم أنّها لن تقاوم.

كانت ابتسامته آخر صورة طُبعت في ذهنها قبل أن تسلّم آخر خيوط وعيها إلى النّوم.

(٤)

مشى سامي حثيثًا في هذه الصبيحة الغريبة في أرضٍ غريبة؛ ليلتقي بفتاةٍ غريبة؛ علّها تساعده في البحث عن أمّه .. هل ستساعد فتًى غريبًا بهذه السهولة؟

صاحبه فؤاد ودلّه على مكان جريمة القتل. عندما تفاجأ سامي بمعرفة فؤاد لمكان الحادث؛ أخبره أن الأخبار تنتشر بسرعة في الوادي ثم أكمل: «أن أعرف الأخبار كلّها وظيفة فؤاد هي».

خطّط سامي أن يأخذه فؤاد إلى مكان الجريمة ، ومن هناك سيعرف الطريق إلى منزلها. لقد وصفته له بوضوح: أول منزل بعد اللفة يمين.

وصلوا إلى مكان الجريمة .. وضع سامي يده على كتف فؤاد: «شكرًا لكَ؛ هل لك أن تنتظرني في الفندق»؟ نظرَ إليه فؤاد بتعجب: «الأجر؛ أنت تدفعه لفؤاد ، ولا ترغب في خدمات فؤاد»؟ أجابه سامي: «أبدًا؛ لكنّي أحتاج أن أنجز أمرًا لوحدي» .. تفحّصه فؤاد ثم قال: «في الفندق سيكون فؤاد».

اقترب سامي من منزل سارة ووجد خطواته تتباطأ شيئًا فشيئًا.

ليستْ غبيّة؛ إن قلتُ: إني جئتُ لأشكرها فقط ، ستعلم أنّي أكذب! وإن قلتُ: إني جئتُ؛ لأطمئنّ عليها ، ستعلم أنّي أكذب! وإن قلتُ: إني أحتاج مساعدتها ، ستسألني لمَ لا أذهب إلى الحرس؟! وستكون محقّة! ثمّ تفكّر سامي: ***لكنّي سألتهم وهدّدوني بالقبض علي إن أتيتهم مجدّدًا. لدي عذر جيّد.***

مع تلك الأفكار وجد نفسه واقفًا أمام بابَ منزلها. حزمَ أمره وقبض على حلقة حديدية في وسط الباب ثم بعد تردد أخير طرق الباب ثلاث مرّات.

(٥)

استفاقتْ سارة من نومها بعد قيلولة لم تدم طويلا. اعتدلتْ في جلستها وتأمّلت الغرفة وقد ملأها ضوء الشمس. مسحتْ حبيبات العرق من ناصيتها بظهر كفّها ثمّ تحسّستْ رجلها من جديد.

أبعدت شعرها الكستنائي عن وجهها الذي تدلّى إلى أوسط ظهرها. سمعت صوت الباب يطرق ثلاث مرّات. لم تكن عائلة القاصد تستقبل الضيوف كثيرًا ، ولم يكونوا يتوقّعون أن يأتي أحد في الظهيرة أساسًا.. لبستْ جلبابها الأبيض المقلَّم باللون الكحلي ، ثم توجّهت نحو المدخل ، فتحت الباب .. لكنّها لم ترَ أحدًا.

(٦)

حالما خفض سامي يده؛ انهمرتْ عليه الهواجس: ***ماذا لو فتح أبوها الباب؟*** تسارعتْ نبضات قلبه. ما الذي تفعله؟! استدار ليعود ، لكنّ أفكارًا أخرى تهاوت عليه. تمنّى لو أنّها فتحت الباب؛ تمنّى لو رآها. لو رأى ابتسامتها. هزّ رأسه وكأنّه ينفض هذه الأمنيات الطفولية عن ذهنه. ***عليّ أن أجد طريقة أخرى لإيجاد أمي. عليَّ أن***.. قطع أفكاره صوتُ صرير بابٍ يُفتح خلفه.

(٧)

مدّت رأسها من وراء الباب ورأت ... هل كانت تتخيّل؟ هل كان عليها أن تذهب وتغسل وجهها بسرعة قبل أن يراها وهي للتوّ قد استيقظت؟ لكن قبل أن تجيب عن تلك الأسئلة وجدتْ نفسها تنادي: «سامي»؟!

(٨)

طار قلبُه لحظة سماع صوتها .. التفتَ مباشرةً ليرى وجهها الوضيء يطلّ بشكلٍ أفقي من مدخل المنزل. عاد أدراجه حتّى صار يقف أمامها. وجد عينيها اللوزيتين الواسعتين تستقبلانه. انمحت سمرة بسيطة على وجنتيها من أثر الشمس وبرزت شامتها التي ارتُسمت فوق حاجبها الأيسر. ابتسمت شفتاها المكتنزتان وأظهرتا نونيّتين لم يكن رآهما مساء البارحة.

لبست سارة جلبابًا من قطعة واحدة غطى أعلى رأسها حتى انسدل إلى أخمص قدميها. تسابقت عيناه لتلتقط تفاصيلها قبل أن ينتبه أنّه لم يقل شيئًا لمدّة طالت أكثر من اللازم .. هل دامت النظرة ثانيتين؟ أم يومين؟

«مرحبًا» ، قالها ثم سرعان ما خفض عينيه. تفكّر سامي: ما ***هذا الحياء المفاجئ الذي يعتريني؟!*** قالت سارة: «مرحبًا! كم أنا مسرورة لرؤيتك. أنتَ بخير»؟ ثمّ تفكّرت: ***ما هذه الجرأة المفاجئة التي تملّكتني؟***

قيل سابقًا: إن أول علامات الحب عند الرجل الجسور: الخجل. وعند المرأة الخجولة: الجسارة. ولا عجب فالحب نزعة للانصهار.

فجأة اختفت الابتسامة من وجهها وكأنّها تذكّرتْ أنّه لا ينبغي لها أن تتحدّث مع رجلٍ غريب بهذه الودّية. لكن ، ***هل كان غريبًا؟ عندما تشارك أحدًا تجربة مثل ليلة أمس ، هل يبقى غريبًا؟***

قالت بنبرة هادئة: «كيف وجدتَ منزلي»؟ أجابها: «وصفتيه لي لحظات قبل ... قبل حادث أمس». تفحّصته وكأنّها تختبر مصداقيّته ثم أعقبتْ: «لا يوجد أحدٌ في المنزل سواي؛ وليس من اللائق أن يرانا أحدٌ هكذا». نظر إليها سامي من جديد ، وقال:

«آه. لقد أخبرني الحرس أنكِ شفعتِ لي فـ ... وددتُ أن أشكرك على نبلكِ وفضلك» ، أجابت: «لا فضل في قول الحقيقة».

هل هذه حُمرة تعلو وجنتيها؟ ربّما تكون من حرارة الجو؟ وقفا صامتين. نظرتْ إلى الأسفل كما فعل هو ، وكأنّهما ينتظران الأرض لتحمل المحادثة قُدُمًا.

قال سامي بعد برهة: «هل لي بسؤال»؟ أومأتْ برأسها إيجابًا وقالتْ: «تفضل». أكمل بحذر: «لمَ لم تذهبي إلى الجبل»؟

(٩)

لم يعرف سامي لمَ قرّر أن يُدخِل هذا الموضوع في حوارهما. كما لم تفهم سارة ما كان يعنيه بسؤاله. نظرتْ إليه للحظات محتارة ، ثم قالت: «ماذا تعني؟ أي جبل»؟ قال: «ماذا تعنين أيّ جبل؟ وهل هناك غيره؟ الجبل الضّخم هناك» وأشار إلى الكتلة الصخرية الشاهقة.

خطتْ سارة خطوة خارج المنزل ونظرتْ إلى حيث أشار .. بدا له وكأنّها لا ترى شيئًا ، ثم بعد لحظات من البحث قالت: «أوه ، تقصد هذا الجبل. نسيته. ربّما لأني اعتدتُ وجوده؟ عمومًا ، ماذا عنه»؟ نظرتْ إليه ببراءة.

عقّد سامي حاجبيه وسأل بطريقة أخرى: «هل تعلمين عنه شيئًا»؟ أجابته سارة: «إنّه جبل. فقط. ماذا تتوقّع منّي أن أعرف»؟ «هل تعرفين ما بداخله»؟ قالها سامي وقد أصيب بشيء من الخيبة ، أجابته بالنفي ، وتساءلت: «هل تعتقد أنَّ الثمرة هناك؟ لقد صدرت تقارير كثيرة تقول أنّ الثمرة داخل المدينة» ، نظر سامي إليها ببلاهة. ***عمَّ تتحدّث؟!***

قالت «ما بك يا سامي. ، ألا تُنقّب»؟! أجابها: «أنقّب؟ عن

ماذا»؟ «الثمرة طبعًا» ، قال: «لا أنقّب عن الثّمرة» ، قالت سارة مباشرةً: «أها نسيت ، لستَ من الوادي». قال سامي: «ماذا عن الحكيم»؟ قالت: «أيُّ حكيم»؟ قال: «الحكيم . ألم تأتِ هنا وبيدك رسالة من الحكيم»؟

«حكيم»؟ بدأت سارة تنزعج من هذا الموضوع. ***لقد صار قديمًا فعلاً!*** لا شيء في الخارج. ***لكن.. الأغنية ، كيف عرف عن الأغنية؟***

كرّرت سارة جوابها: «لا يوجد شيء في الخارج لتأتي منه». أجابها: «دعيني أسألك يا سارة: هل النّاس ينجبون أطفالا هنا»؟ قالت: «ما هذا السؤال الغريب»؟! سأل سامي السؤال نفسه: «الناس هنا لا ينجبون يا سارة؛ صحيح»؟ أجابته: «نعم»؛ فأكمل: «فأخبريني إذن ، من أين أتى كل هؤلاء الأطفال والشباب و.. وأنتِ»؟

لم يصعق سارة السؤال .. لم يفاجئها حتّى .. المسألة ببساطة أنّها لم تفكّر في أسئلة هكذا من قبل. بحثت سارة عن الأجوبة: «نحن هنا منذ البداية .. نشأنا هنا» قال: «"منذ البداية" كيف؟ هل ولُدت هنا؟ فإن لم تكوني وُلدتِ هنا فمن أين أتيتِ؟ أتيتِ من حيث أتيتُ أنا .. من خارج الوادي ، وأنا وأنتِ وكل من في الوادي أتينا لغرض .. ثم علينا الذهاب» ، علّقتْ: «نذهب .. ولمَ نذهب»؟! لا إراديًا مسحت على فخذها الأيمن ببطء ثم أكملتْ: «لا أفهم ما تقول ، ولقد بدأتُ أنزعج من هذا الموضوع يا سامي».

كان سامي يريد أن يواصل لكنّه توقّف. تذكّر الهدف الرئيس: إيجاد والدته. ***ما الذي أفعله؟! من أظنُّ نفسي: نبي الله نوح!*** قال: «كما تشائين. أعتذر».نظرتْ إليه تتفحّصه.

قال سامي: «هل سمعتِ عن سيّدة تُدعى سامية العقيق»؟

قطّبتْ سارة حاجبيها وقالت: «لا؛ من تكون»؟ قال سامي: «والدتي». فتحت سارة فمها وقالت: «وهل هي من كنت تبحث عنها ليلة أمس»؟ أجابها: «نعم؛ لقد أتت هنا قبلي بمدّة من ...» قاطعته سارة: «من خارج الوادي»؟ أومأ سامي إيجابًا .. ***لا يمكن أن أتجنّب موضوع الجبل والحكيم في أيّ شيء!***

تذكّرتْ سارة أمرًا وقالت: «حسنًا سأفترض أنَّ هناك مدينة تدعى الرياض» ، ثمّ هزت رأسها نافيةً: «لم أسمع بأنَّ هناك سيّدة جاءت هنا من الرياض أو من خارج الوادي» ، ثم أطرقت رأسها للحظة وأكملت: «ذكّرتني بأسطورة سمعتُها قبل مدة طويلة. كان بعض الأطفال يتناقلون خرافة أنَّ سيّدةً جاءت من خارج الوادي» ، قال: سامي وكلّه فضول: «منذ متى حصل ذلك»؟ قالت: «لا أذكر ، قبل سنوات كثيرة ربّما قبل خمس سنوات؟ أو عشر أو عشرين ... أو أكثر أو أقل؛ لا أذكر تحديدًا». ***هل تكون أمي؟*** حاول أن يخفي حماسته وهو يقول: «هل تعرفين أين هي»؟

أجابته: «إنّها مجرّد قصص أطفال .. لو صحَّ أنَّ هناك كائنات فضائية تأتي من خارج الوادي لانتشر الخبر في صحيفة "الوادي اليوم"».

سكت الاثنان للحظات ، وأتاح ذلك لسارة أن تدرك أمرًا ، قالتْ: «سامي .. كما أخبرتك .. لا يصلح أن أقف معكْ دون وجود والديَّ في المنزل». أجابها: «آه. صحيح. أعتذر».

شعرَ سامي بوجعٍ في قلبه. هل هو بسبب انتهاء اللقاء؟ أم بسبب أنه لم يتحصّل على أجوبة؟ انتشلته من أسئلته: «قبل أن أذهب .. أخبرني كيف عرفتَ عن أنشودة أبي؟ وأرجو أن تكون صادقًا».

أجابها: «أخبرتكِ ، الأغنية موجودة حيث أتيت .. لكنك لا

تصدّقيني» ، مشى أحد المارّة خلف سامي ونظرتْ إليه سارة بقلق ثم قالت: «حسنًا علي أن أذهب يا سامي». قال: «صحيح. أعتذر سارة . وداعًا».

تأمّلت سارة عينيه للحظات قبل أن تقول: «أشعر أني سأراك قريبًا يا سامي. طاب يومك» ثم أغلقت الباب.

(١٠)

لم ترفع سارة يدها عن المقبض. أسندت رأسها على الباب وأغمضتْ عينيها. استثارها حضوره واستثارتها أسئلته بشكل أكبر. ***عالم خارج الوادي؟*** شعرتْ بحكّة تعتري قدميها. ***خرافات***!

(١١)

مشى سامي مُبحرًا في تفكيره. ابتدأ اللقاء بلذّة وختم بالمرارة. لقاء شيّق ومحبط. لم يتحصّل على معلومة. كل ما تحصّل عليه هو خبر عن خرافة أطفال. ***هل سأذهبُ الآن وأسأل أطفال الوادي؟!***

ثمّ عاد يفكّر في سارة: ***كيف لا تعرف من أين أتتْ؟! ألا ترى "التليفريك" الكبير هذا أمام عينيها؟!*** رفع رأسه لينظر إلى المنحدر الذي أتى منه ولكن ... لم يرَ شيئًا .. **هيه**!

نظر في الأفق باحثًا عن "التليفريك" ، ولكن: لا شيء. أعاد النظر ، ذهب إلى طريقٍ آخر ، جرّب زاوية مختلفة: لا شيء.

تعجّل سامي في طريق عودته إلى الفندق. حينما وصل وجد فؤادًا في انتظاره. صعدا إلى غرفته ، وتوجّه سامي إلى النافذة لعلّه يرى "التليفريك" منها.

كانت الشمس قد قاربت المغيب. وقف سامي عند النافذة

ونظـر .. لا شـيء: لا "تليفريك" ، ولا حبـل ممـدود. التفتَ إلى فـؤاد ثم أشـار إلى النافـذة وقـال: «أيـن التليفريـك»؟! اقتـرب فـؤاد مـن سـامي والتفـتَ حيـث يشـير سـامي ، ثمّ عـاود النظـر إليـه وتسـاءل: «تليفريك؟ هو ماذا»؟!

أشـار سـامي إلى الأعلـى ، ثم إلى مكـان التقائهمـا أوّل مـرّة: «التليفريك. التليفريك يا فـؤاد. المصعد الـذي يـأتي بكَ مـن حافـة المرتفع ذاك إلى حيث وجدتني». لاحقت عينـا فـؤاد إشـارات سـامي ببلاهـة. حملـق فـؤاد في سـامي للحظـات ثم قـال: « لا يـرى فـؤاد شيئًا»!

نظـر سـامي إلى المدينـة ، ثمّ إلى فـؤاد ثمّ إلى النافـذة مجـدّدًا .. إحباطٌ آخر يستقبله. قال سامي: «لا يهم».

ابتعد فـؤاد من النافذة وجلس علـى السـرير. لم يقـل أحدهمـا شيئًا ، بينما "كتّف" سامي ساعديه خرجت أنفاسه مـن أنفـه بصـوتٍ مسموع.

قال فـؤاد: «ما كنتَ تبحث عنه أوجدته عنـدما تركك فـؤاد»؟ أعـاد سـامي شـريط حديثـه مـع سـارة ثم قـال: «قابلـتُ أحـدًا مـن سكّان الوادي .. عندما أخبرتها بأنّي لم آت من هنا تفاجأتْ! بل لم تصدّقني. وعندما أخبرتها أنها هـي أيضـًا أتتْ مـن خـارج الـوادي؛ استنكرت. كيف تفسّر ذلك»؟

«ينسون»! قالها فؤاد كأنّ الجواب واضح جدًّا. سـأله سـامي: «لمـاذا»؟! أجابـه فـؤاد: «لا أعلـم .. بالأشامسـة لا يختلطـون .. لا يتحـدّثون .. هكـذا أمـرَ القصـر .. نحـن الأعـداء ألا تـذكر»؟ أكمـل سـامي: «حسـنًا. لكـن لمَ ينسـون»؟ أجابـه: «لا علـم لـدي؛ هـم بالبحث عن الثمرة مشغولون».

تـذكّر سـامي حديـث سـارة عـن أسـطورة المـرأة الـتي أتتْ مـن

خارج الوادي ، ثم سأل: «أخبرنِي ، هل تعلم عن امرأة وصلتْ الوادي قبلنا»؟ ابتسم فؤاد: «نعم . السيّدة الوحيدة . قبل سنين طويلة جاءت بعد انقطاع طويل منذ عقود ... عقود؟ أم أكثر؟ لا أعلم . الوقت غريب هنا ، ولا يمكـ..» قاطعه سامي: «نعم نعم. الوقت غريب . هل تعرف من تكون أو ما شكلها أو أين هي»؟ قال فؤاد: «لا . لكن ... إدارة القصر يعلمون . ربّما» ، قال سامي: «كيف»؟ قال فؤاد: «لديهم سجلات .. أسماء كل من في الوادي فيها . السجل في المكتبة»؛ سأله سامي: «ولمَ لديهم سجلات»؟ أجابه: «الوادي ليديروه. أمر الأميرة هذا؛ لا تسألني» ، سأل سامي: «ولكن .. إن كانوا ناسين كل ما هو خارج الوادي؛ عندما أتت المرأة بعد كتابة السجلات؛ ألم تستغرب إدارة القصر من عدم وجود اسمها في السجلات»؟ أجابه: «ربّما ، لكنّهم لا يتذكّرون من أين أتوا ، الوحيد تفسيرهم هو أنهم يعتقدون أنه خطأ إداري ربما. سقط سهوًا».

تبرير غير منطقي. ولكن ، إن لم يعتقدوا بوجود شيءٍ آخر خارج الوادي؛ فهذا يرغمهم على إعادة تفسير كل شيءٍ يحدث بناءً على هذا الاعتقاد الخاطئ.

تذكّر سامي حديث أستاذ مادة الأحياء هاني علي. كان يقول: «اعتقادٌ واحدٌ خاطئ؛ كفيل بأن يوقعك في بحر من المغالطات المعرفية. بعض المجمّعات العلمية لا تعترف إلا بالتجارب المخبرية الحسّيّة كمصدر معلومات لتفسير كل جوانب الحياة. ولا يصدّقون أيِّة معلومة ما لم تأتِ من أنابيب المختبرات .. هذا يقودهم إلى تفسير كلّ شيءٍ في الحياة بشكل ناقص: فالحياة أكبر من أن تقاس بالمختبر.. والمعرفة لا تأتي من التجربة الحسيّة فقط .. ولذلك عندما سُئِلوا عن أصل الحياة؛ الحياة المتناغمة ، المتناسقة ، المحكمة ، الدقيقة ، التي تحتاج إلى صانع حكيم؛ عندما سئلوا عن أصلها لم يجدوا أمامهم وسيلة للتفسير إلا من

خلال المختبرات التجريبية. فاضطروا أن يقولوا أنّ هذا كلُّه **صدفة!**

واضطروا أن يؤمنوا أنَّ الإنسان أصله سلف مشترك مع القردة؛ إذ لا تبرير سوى الصدفة! والعين الدقيقة تكوّنت بالصدفة. وجسم الإنسان بتعقيده بالصّدفة. بالتطوّر. لماذا؟ لأنّ المعرفة بالنّسبة لهم لا بد أن تأتي من المختبرات. وما المختبرات سوى نافذة صغيرة ضيّقة تطل على حقيقة الحياة».

لكن ...مالي ومال نظرية التطوّر الآن؟! مالي ومال أصل الحياة؟! وقف سامي وقال لفؤاد: «هيّا بنا إلى القصر .. لنرى من تكون هذه المرأة». لم يقف فؤاد ، وقال: «الآن لا يستقبلون الناس. الآن مقفلون. غدًا صباحًا يذهب فؤاد وسامي». راجع سامي صرّة المال: كانت الآرامات تكفيه لبقائه ليلة إضافية.

(١٢)

أخذ الجوع يقرص أمعاء سامي. حتّى يأتي الغد ، لم يكن لديه خيار سوى أن يرافق فؤاد إلى مطعمٍ يقدّم: «وجبات أفضل شهيّة!» كما قال.

غربت الشمس ، لكن المكان بقي مضيئًا بالشعلات النارية في الطريق. مشى سامي مع دليله بين دهاليز الأزّقة والمحلّات. اختلطتْ عليه الروائح: المنتجات الجلدية ، والعطور ، والفواكه ، والأطعمة الزّكية.

لاحظ سامي شيئًا آخر: كان الناس متلهفين على التبضّع. كأنّهم يتجهّزون لاحتفالٍ عظيم. خُيِّل إليه أنّه كان يمشي عند منطقة سوهو في مدينة نيويورك في موسم الكريسماس ، أو "دبي مول" في فترات العيد!

وصلوا إلى محلٍّ مكتظٍّ ونادى فؤاد: «وصلنا»! عُلِّقَت لوحة: (الموصلي لكل لذيذٍ وشهي). كان المكان أكثر ازدحامًا في الداخل. المطعم ذكّر سامي بحانات العصور الوسطى التي رآها في الأفلام: طاولات وكراسي خشبية ، ضحكات متعالية ، أبخرة متصاعدة ، "كاسات" حديدية ، وصحون خشبية.

تولّى فؤاد الطلب. عشر أدينات قيمة الأكل. لم يعلم سامي إن كان كثيرًا أو قليلاً. وبينما فؤاد يطلب شعر سامي بأن أحدًا يراقبه. التفتَ عدّة مرّات دون أن يرى أحدًا. لكنه لم يستطع الانفكاك من ذلك الشعور. وصل الأكل بسرعة: كأسان حديديان مملوءان بالماء؛ وصحنان خشبيان فيهما بطاطس وبازلاء ونصف دجاجة مشوية.

التهم سامي الأكل في دقائق بسيطة .. هل كان بسبب الجوع أم لأن الأكل بالفعل كان كما قال فؤاد: «وجبات أفضل شهيّة»؟

سأل سامي: «هل فعلاً الناس كلهم ينقبون عن الثمرة»؟ أجابه فؤاد: «أغلبهم كذلك. بعضهم بالسعي عن الآرامات انشغلوا ليتمكنوا من البحث عن الثمرة. بعضهم بالاستمتاع في الوادي انشغلوا».

قال سامي: «وكلّهم نسوا سبب وجودهم»؟ لم يكن سؤال ، كان تندّرًا. اكتفى فؤاد بإيماء رأسه إيجابًا. سأل سامي وطيف سارة يمرُّ في ذهنه: «هل يمكن تذكيرهم»؟ أجابه: «ربّما. المفترض؛ أظن».

قال سامي: «أخبرني عنكَ يا فؤاد ماذا كنتَ تعمل من قبل؟ لا أظن أنَّكَ كنتَ مرشدًا سياحيًّا قبل مجيء البشر». اعتدل فؤاد في جلسته وقال بفخر: « رئيس المهندسين كان فؤاد» ، ثم أشار إلى نفسه وقال: «نصف هذا الوادي بناه فؤاد. بنى الساحة والسوق والقصر»! قال سامي بإعجاب: «القصر»؟ قال فؤاد: «نعم! أعرف

كلَّ مداخله ومخارجه›› ثمّ أشاح بوجهه: ‹‹الأشامسة الآن ممنوع دخولهم››.

لماذا داهمه ذلك الشعور مجدّدًا. هل كان أحدٌ يراقبه؟ كانَ أشبه بإحساس وجود ذبابة لا يمكن هشّها تقف على ظهره.

خرجَ الاثنان من المطعم وعندما انتصف الطريق قال سامي: ‹‹أعرف طريق العودة؛ بإمكانك الذهاب›› ، أجابه فؤاد: ‹‹لا يمكن .. لا؛ وظيفة فؤاد هذه ، تحتّم عليه أن يأخذك››.

‹‹دعني أذهب يا فؤاد››.

وافق ، ولكن على مضض؛ ثم افترق الاثنان.

(١٣)

مشى سامي في أحد الأزقة الخالية. هل استعجل في مناقشة سارة؟ هل يمكن تذكيرها؟ ***كيف ينسى أحدٌ سبب وجوده؟ سبب مجيئة إلى وادٍ في السماء؟!***

خُيِّل لسامي أنه سمع صوتَ خشخشة خلفه. توقّف مباشرةً لينصت: لا شيء. التفت أيضًا: لا شيء. أكمل سامي مشيه بحذر. سمع الخشخشة مجدّدًا. التفتَ سامي ونادى: ‹‹من هناك››؟!

خرج خيال رجلٍ من بين الأزقّة وظلّ يقترب؛ لاح إلى مخيّلة سامي وجه الماحي والسكين مغروسة فيه. هل جاء دوره؟ هل سيتعرّف على قاتله؟

نظر سامي إلى الرجل يقترب. لم يكن خيار الهروب موجودًا في قاموس سامي. ***حتّى لو أردتُ الهروب فقد تأخّر الوقت ... اقترب الرجل كثيرًا.*** ثبّت قدميه وكوّر كفّيه مترقّبًا ، مشى الرجل ببطء بين الظلال ثم سُرعان ما انكشف تحت ضوء القمر.

(١٤)

«رمـزي»؟! لم يكـن سـامي يسـأل ، بـل كـان متفاجئًـا. نظـر الاثنـان إلـى بعضـهما الـبعض دون كـلام. لا ملامـح تكسـو الوجـوه ، ولكـنّ العيـون مليئـة بالمعـاني: بـاللوم ، بالشـوق ، بالعنـاء ، براحـة اللقاء.

كسـرت ابتسـامة سـامي الصـمت ، ومباشـرةً ردّ رمـزي التحيّـة بأحسن منها. جذب سامي رمزي وحضن بعضهما البعض.

التفتَ رمزي إلى الخلف ثمّ نادى: «قلتُ لكِ إنـه هـو»! جاءتْ مـريم تمشـي بعجالـة: «السـلام عليكم» ، قالـت مـريم - وهـي تقـف عـن يمـين زوجهـا - «وعلـيكم السـلام يـا مـريم» ، قالـت بتلطّـف: «إزيّك»؟ أجابها: «بخير».

أعقب سامي: «كيف وجدتماني»؟ أجابه رمزي: «رأيناك مـن بعيد تخرج مـع شـخصٍ قصـير حسـبناه ابتـداءً بدرًا؛ لكـن تبـيّن أنّـه ليس هـو. وأنـت ... لم نكـن متأكّـدين لـو كنـت أنـتَ أنـتَ؛ فلحقنـاك حتى افترقت عن ذاك الغريب .. وهـا نحن».

وقف رمزي على طرفي قدميه الأماميتين ثم أعاد كعبيه إلى الأرض. أكمل: «صـديق جديـد»؟ ابتسـم سـامي: «فـؤاد دليلـي في الوادي. أدفع له ليعرّفني على الوادي أكثر» ، قالت مريم: «فخم يا سامي».

لم ينسَ سـامي غضبه ، لكنّ رؤيتـهما المفاجئة بعد السـجن وقتل الماحي؛ بعثَت مشاعر الشوق في قلبه. ثم - وكأن تلك المشـاعر الجياشة بدأت تنحسـر - تغيّرت ملامح الفرحة على محيّا سامي إلى ملامح حذر.

قـال رمـزي وكأنّـه لاحـظ ذلـك: «سـامي ، آسـفون أنّنـا لم

نخبرك عن الرسالة. هل لك أن تعطينا فرصة لنشرح لك»؟

الفصل الحادي عشر: مَريَمْ ورَمْزِي

(١)

السؤال الأوّل: «متى نفرح بزواجك»؟ وبعدها السؤال الثاني: «متى نفرح بعيالك»؟ وبعدها: «متى نفرح بتخرّجهم»؟ ثم: «متى نفرح بزواجهم»؟ ثم: «متى نفرح بشوفة أحفادك»؟ وبعد التبريكات ، يبقى السؤال الأكثر إلحاحًا لكنّه لا يُنطَق: «متى سنسمع خبر وفاتك»؟

بعد زواجها توقّف قطار الأسئلة عند السؤال الثاني. لا ولد ، لا خِلفة ، لا وليًّا للعهد. كان السؤال الثّاني يقفز شرَرًا من أعين الناس المتّقدة بالفضول. ثم تأتي أسئلة أخرى: «لِمَ لَمْ تنجب»؟ «هل يكون العيب منها»؟

كانت مريم تلجأ إلى المكان الذي آواها دائمًا: مكتبتها. تستقبلها كتُبها بأحضان ثم تضع دفّتيها على أذني مريم لتحميها من تلك الأسئلة المؤذية .. تأخذها إلى حيث تريد: من الإسكندرية إلى بغداد إلى اليونان وروما وباريس ودبلن وطوكيو ... وحيث شاءت.

ولكن مهما سافرتْ بها مخيّلتها دائمًا ما تعود بها إلى غرفة الطبيب الذي أبلغها بعدم قدرتها على الإنجاب .. لم تنسَ وجهه: ذا ندبة على خدّه؛ ندبة امتدّت من أسفل عينه اليمنى حتى اختلطت بلحيته البنية.

(٢)

إن كانت الأسئلة حول مريم تدور في الخفاء؛ فإن الأسئلة حول رمزي كانت تُسأل في العلن. تسأله أمّه: «لم لا تتزوّج ثانية»؟ ويكتفي رمزي بالابتسامة. يكتم الغيظَ وقد علم كم كانت مريم تحلم بالأطفال. كانت تعمل في "حضانة أطفال" لا لحاجةٍ إلى المال، بقدر ما كان حبًّا في الأطفال .. كان يحلمُ بطفلة صغيرةٍ هو الآخر .. يداعب أطفال إخوته وأصدقائه دائمًا .. وأخيرًا يكتم الغيظَ متفهّمًا رغبة أمّه.

«إذن، العيب مِمَّنْ»؟ ذاك هو السؤال الحاضر.

الحقيقة؟ "العيب" كان من كليهما؛ إذ فشل الأطباء في الشرق الأوسط وأوروبا وشرق آسيا .. وفي كل محاولة - دون استثناء- يؤمّلهم الطبيب حتى ينتشون فرحًا؛ وفي اللحظات الأخيرة يأتيهم الخبر كالموجة العاتية وتهدم قلعة آمالهم الطينية التي بنوها عند الشاطئ.

وفي كل مرّة تأتي الأمواج متأخِّرة، لكنّها تأتي .. لا بد أن تأتي .. كسَرَتْ مجاديف مريم لكنّ رمزي استمرّ يجدّف؛ واستمرّت الأمواج تأتي .. لم تعد مريم تريد دخول البحر .. أن تبقى وحيدةً في جزيرتها بكرامتها خيرٌ لها من أن ترمي نفسها في بحر الآمال - بل الأوهام! - ليلفظها مجدّدًا.

جاءت فرصة رمزي للعمل في السعودية مثالية. فرصة تأخذهما بعيدًا .. بعيدًا عن الأسئلة، بعيدًا عن التبريرات، بعيدًا عن تلك العيون المتّقدة.

(٣)

انتهى بهما الأمر إلى الشقّة رقم: (٤١) - عمارة الهُدَى ، في حيّ المربّع. كان استقبال سكّان الشقة رقم: (٤٢) مختلفًا. لم تكن عيونًا متّقدة بالأسئلة ، بل عيونًا محمرّةً من الدموع.

بكى الشاب سامي وأمّه الحامل فقدان ربّ الأسرة. انشغلت مريم ورمزي بأسرة الغريب أكثر عندما أضافت الأسرة فردًا جديدًا إليها بعد أشهر بسيطة من وفاة ربّ الأسرة .. سمّوها "سلمى". وجدت مريم نفسها أمًّا وأختًا وبنتًا عند عائلة الغريب.

نسي رمزي ومريم - أو ربّما - تناسيا حالتهما .. عاشا صفحة جديدة مشرقة من حياتهما ، أو هكذا بدت لهما. وجدت الابتسامة مستقرًّا مؤقّتًا لها على محيّاهما ، وهناك ، في زاوية مظلمة ، انتظرتهما الهموم بترقّب؛ فالحقيقة آتية آتية.

جاءتهم أم سامي ذاك اليوم بخبر "الحكيم". وكأنّ السنين لم تمض ، وكأن مجاديف رمزي لم تتوقّف ، وكأن مجاديف مريم لم تتكسّر ، عادت أمواج الآمال لتقلب حياتهما من جديد.

رفضت مريم أية محاولة؛ فقد أعادت ترميم بقايا روحها المتشظّية ولم تتحمّل خيبة جديدة. دون إخبار مريم طلب رمزي من أم سامي أن ترتب لقاءً مع "الحكيم" وإن ذهب وحده.

ذهبتْ أم سامي لتقابل "الحكيم" ولم تَعُدْ.

بعد أسبوع وجد رمزي رسالتين عند باب شقّته .. إحداهما موجّهة إليه والأخرى إلى سامي. مع رسالة سامي جاءتْ تعليمات إلى رمزي تخبره أن يكشف رمزي الرسالة إلى سامي في: «ظهر ثالث يوم خميس من شهر شوّال» ، ثم أن يترك رمزي الأحداث تتكشّف بحسب تصرّفات سامي.

(٤)

أخبر رمزي زوجته بما حدث في صباح اليوم الذي أوصل فيه الرسالة إلى سامي. أخبرته أنّها لن تشاركه هذا الجنون ، وأن لا وجود للحكيم ، وأنَّ عليهما أن يخبرا الشرطة حالاً.

وعدها رمزي أن يفعل ذلك في حال لم يرغب سامي في زيارة "الحكيم".

لم يتوقّع رمزي أن يجد مريم عند باب شقة ، رقم: (٤٢) لحظة توجّهه مع سامي إلى الحكيم. لم يكن اصطحابها جزءًا من الخطّة أبدًا. وما لم يكن جزءًا من الخطة أيضًا هو سفره إلى عالمٍ غريب: إلى الوادي المعلّق في السّماء.

جاءهما سامي يمشي والحيرة تغمر وجهه. تمتمتْ مريم بصوتٍ منخفض: «لا تقل له شيئًا؛ لننتظر حتى تهدأ الأمور. لننتظرْ حتى نعرف كيف سنخبره بما حدث».

لكن الأمور لم تهدأ. كشف سامي أمرهما قبل أن يتمكنا من إخباره. خرج سامي من الباب.. انتظرا حتى ينفتح من جديد ، وعندما ولجوه لم يكن سامي موجودًا.

الفصل الثاني عشر: التمَّ الشّمْل

(١)

بعد أن شرحا له ما حدث ، ولِمَ حَدَثَ ، وما لَمْ يحدث؛ وبعد أن أجابا على استفساراته واستنكاراته؛ بعد هذا لم يعد هناك ما يمكن سؤاله كان سامي قد رضي لحظة رؤيتهما. الغربة موحشة .. وفيها يصبح أي وجهٍ مألوف وجهًا مرغوبًا؛ لكن مريم ورمزي لم يكونا "وجهين مألوفين" فحسب ، بل كانا إخوة .. عاش معهما سنواتٍ طوال.

تحلّق الثلاثة في المطعم على الطاولة وأكواب الشّاي بين أيديهم. قال سامي: ‹‹ماذا فعلتما مذ أتيتما هنا››؟ أجابه رمزي: ‹‹كنّا نبحث عنك .. مرّ اليوم الأوّل دون أن نجدك .. وبعدها حدث ما لم نكن نتوقّعه›› نظر إلى مريم التي أكملت: ‹‹تاني يوم ، صِحِينا بدري أوي. أبلِ ما الشوارع تمتلي›› توقّفت مريم متخيّلةً الموقف ثم أكملت: ‹‹سمعنا جَلَبَةً في زقاقٍ جانبيٍّ. كنّا سنتجاهله ، حتى سمعنا صوتَ امرأة ...همس امرأة››. شربتْ من كوب الشّاي وأكملتْ: ‹‹سمعناها تطلب المساعدة بصوتٍ خافتٍ مخنوق .. كنّا سنتجاوزها لولا أنّها نادتْ من جديد››. نظرت إلى رمزي وأكملت: ‹‹رأينا جثّةً في بركة دم .. عندما اقتربنا منها تبيّن أنّها كانت››. ‹‹سوسن››! قاطعها رمزي.

نظر سامي إليهما متسائلاً: ‹‹ومن تكون سوسن››؟! أجابته مريم: ‹‹سوسن التي كانت معنا في السفينة . صاحبة العيون الخضراء. ألا تذكرها››؟ قال سامي: ‹‹الفلسطينية››؟ أومأت مريم

برأسها: ‹‹بالضبط! عندما وصلنا إليها لم تقل إلا كلمتين: "إنّه منهم"››. أسند سامي ظهره مندهشًا.

قالت مريم بحماسة: ‹‹هل تعرف ما كانت تقصده››؟ قال سامي مشدوهًا: ‹‹لا ، ولكن ...›› أخذ نفسًا وأكمل: ‹‹رأيتُ الماحي مقتولاً بالطريقة نفسها ، وعندما وصلتُ إليه ، قال الشيء ذاته: "إنّه منهم"››. قال رمزي: ‹‹الماحي؟! لا يُمكن›› أضافتِ مريم وقد "كتّفت" يديها: ‹‹لا أصدّق››!

قال رمزي بعد أن خيّم الصمتُ للحظات: ‹‹قال: "إنه منهم" أيضًا››؟! أومأ سامي وأكمل رمزي: ‹‹ماذا قصدا بتلك العبارة››؟! قالت مريم: ‹‹هناك من يحاول التخلّص منّا: كل من كان في قبو السفينة›› حرّك رمزي يده وكأنّه يهشُّ ذبابة: ‹‹من أين أتيتِ بهذا؟! لم نفعل شيئًا››! قالت: ‹‹بالضبط. كانا غريبين؛ لم يكن لديهما وقتًا كافيًا لتكوين عداوات تستحق القتل››. قال سامي: ‹‹قُتلا في الخفاء. بنفس الطريقة. وقالا نفس الكلمة. لا يمكن أن تكون مصادفة››. تفكّر سامي ***لغز جديد ملعون!***

قال رمزي: ‹‹حسنًا لنفترض أنّ هناك من يريد قتلنا .. كيف يميّزوننا؟ كيف يعرفون أنّنا غرباء››؟ قالت مريم: ‹‹ماذا كان يلبس الماحي››؟ قال سامي: ‹‹ثيابه ذاتها التي أتى بها›› أكملت مريم: ‹‹حتى سوسن .. أعتقد أنّهم عرفوهما من ثيابهما التي لم تطابق لباس أهل الوادي››. قال رمزي: ‹‹لمَ لم يتعرّضوا لنا إذًا››؟!

قال سامي: ‹‹عندما وصلتُ كانت الشوارع مكتظّة .. لا مجال لقتلي .. وعندما خرجت بالليل غيّرتُ ثيابي .. ماذا عنكما››؟ أجابته مريم: ‹‹زوجي يبالغ في النظافة. أول ما رأى أن هناك ثياب نظيفة في الحقيبة التي أُعطيناها أخذني إلى محل ثياب ، وبدّلنا هناك. لذلك لم يعرفوا أننا غرباء على الوادي››.

استدرك رمزي ، متسائلاً: ‹‹لكن لماذا يريدون قتلنا؟ ما الذي

يخافون أن نفعله»؟ أخرجَ سامي الرسالة من جيبه وقال: «نملك هذا»! نظرا إليه دون أن يفهما. أكمل: «ألم تلاحظا أن لا أحد يتذكّر الرسالة أو الحكيم»؟ قالت مريم: «وما يدريهم بالحكيم»؟ قال سامي: «أوه. دعيني أخبركما».

أخبرهما سامي عن فؤاد وعن الأشامسة والبشر. شرح لهما كيف أن كل البشر في الوادي جاء بهم الحكيم إلى هنا؛ أخبرهما عن المهاجرين الثلاثة الأُوَل، وكيف بقي اثنان ونسيا لماذا أتيا ومن أين.

أخبرهما عن المرأة التي أتت قبلهم بسنوات؛ أمّه ربّما؟ أخبرهما عن كل شيء إلا عن سارة. كان يريد أن يبقيها خارج الحوار. لم يكن الوقت مناسبًا. أو ربّما ... ***لأني لا أعرف ماذا أقول عنها؟ ما علاقتي بها؟ وماذا أريد منها؟***

(٢)

كما سأل سامي فؤادًا سألت مريم ورمزي سامي الأسئلة نفسها. أجاب عنها كما أجاب عنها فؤاد. بعد أن استنفدا أسئلتهما قال رمزي وكلُّه حماسة: «وهل فعلاً تعتقد أن هناك ثمرة بهذه الصّفات»؟! قال سامي وقد استند إلى الكرسي و"كتّف" يديه: «أظنُّ ذلك .. لا أعتقد أنّ فؤادًا سيكذب»، قالت مريم: «بل لا أشكُّ بوجودها؛ لم تحدث كل هذه المصائب إلا بسببها».

قال رمزي: «هل تعتقدان أنّ بإمكاننا إيجادها»؟ هزّ سامي رأسه نافيًا: «لا أظنّ .. مرّت سنوات، بل عقود، أو ربّما أكثر وهم يبحثون» قال رمزي مُصِرًّا: «لكنّها موجودة». ***هل كانت هذه نبرة احتجاج في صوته؟***

تجاوزت مريم كلام زوجها، وقالت: «أتظنُّ أن تلك المرأة فعلا والدتك»؟ أجابها سامي: «لا أدري .. لكن يجب أن أذهب

غداً وأبحث».

قال رمزي: «وفي مكتبة القصر قد تجد الجواب»؟ ردّ عليه: «بحسب فؤاد: نعم» ، قالت مريم: «ثمّ ماذا»؟ قال سامي: «لا أدري» ، قالت مريم: «لنقرأ الرسالة من جديد لعلّ هناك شيء لم ننتبه له». للحظة؛ لم يفهم رمزي ماذا قصدت مريم بالرسالة. للحظة نسيها. للحظة أو ربّما أكثر ...

أخرجت مريم الرسالة وفتحتها ، ثمّ علّقت: «أوه نسيت! لا تظهر الأحرف إلا إذا وضعنا الرسالة أمام الشمس». أغمضتْ عينيها وهي تحاول أن تتذكّر ، ثمّ قالت: «الرسالة تأمرنا بالذهاب إلى الجبل إذا أردنا أن نحصل على ما تمنّيناه. وإن بقينا سننسى الجبل كما نساه أهل هذا الوادي».

ثم قالت: «كيف تنسى هذا الشيء الكبير»؟! مدَّت ذراعيها وكأنها ترسم مثلثًا أمامها ، قال سامي: «لا أدري .. لكن بالفعل لا يذكرون أن عليهم الذهاب .. سألتُ ... سألتُ أحدهم بنفسي» ، ومرَّ طيفها.

تأمّل رمزي: «ألا يبدو الجبل بعيداً جدا»؟ تفكّر سامي: بل ***يبدو أنّك مستثقل الذهاب إليه.*** علّقت مريم: «لا تهم المسافة. يجب أن نذهب». إن كان رمزي يستثقل الذهاب إلى الجبل فإن سامي لم يكن يريد الذهاب صراحةً .. على الأقل حتّى يجد أمّه .. لكن ... هل كان هناك سببا آخر؟

ألم يقل الحكيم في الرسالة أن نتواصى ونأخذ بيد بعضنا البعض؟ لِمَ لا أحاول تذكيرها؟

هل كان يحاول تبرير رغبته في رؤيتها بدعوى الالتزام بتوجيهات الحكيم؟ ***بالطبع لا. لكن ...***

قطعت مريم حبل أفكار سامي وقالتْ: «لنعد إلى السؤال:

لماذا يريدون قتلنا»؟ قال سامي: «يبدو أنّ أحداً هنا لا يريد أن تتذكّر الناس الحكيم أو الجبل». قالت مريم: «ابحث عن المستفيد» ، سألها سامي: «ماذا تعنين»؟ قالت: «أكبر مستفيد يكون في الغالب الجاني» ، ثمّ علّقت على نفسها: «لكن ... كلّهم غير مستفيدين ، لأنّهم سيندمون على بقائهم» ، قال سامي: «ولا أظنُّ الأشامسة يريدون بقاءنا هنا أيضًا» ، تنهّد الثلاثة.

لم يبقَ في المطعم سوى قليل من النّاس ، «تأخّر الوقت» قال رمزي ثم أكمل: «أخبرني سامي أين تسكن»؟ أجابه: «في فندق اسمه البرّاق ، بإمكاننا أن نلتقي هنا صباحًا إن أحببت» ، قال رمزي: «لا؛ أخشى إن سرتَ لوحدك مساءً أن يصيبك أحدٌ بسوء» ، أجابه سامي: «لا تقلق لقد ...» قاطعته مريم: «رمزي على حق ، هيّا لنأخذ أشياءك ونذهب إلى شقّتنا».

قال سامي: «شقّتــ"ــكما"»؟! هزّ رمزي رأسه: «نعم. كان الوقت متأخّرًا ثم رأينا لوحة تشير إلى شقق مؤثثة مدعومة من القصر: تُدفع أقساط يومية رمزية. عدا عن الدفع لا يطلبون أوراقا ولا شيئا»! نظر سامي باستغراب: «لا أفهم؟! لا معنى لفعلتكما لمَ تتملّكا شقة يا رمزي»؟ قال رمزي: «بإمكاننا التوقف عن الدفع ونعيد الشقة» ، أضافت مريم: «لم نكن نعرف كم ستستغرق عملية البحث عنك» ثم قال رمزي: «مجرّد ٧٠ أدينة في اليوم. لها غرفتَيّ نوم! الشقة نظيفة جداًّ. غرفتك جاهزة ، وبإمكانك أن ...». رفع سامي يديه ، وقال: «كفى كفى. حسنًا ، سأترك رسالة عند الفندق ليخبروا فؤادًا أين ذهبت».

مشى الثلاثة إلى فندق البرّاق .. من بعيد كانت هناك عينان تراقبانهم بصمت.

(٣)

حاول رمزي أن يكبت مشاعره نحو الثّمرة .. أُسِرَ بالفكرة مذ تفوّه بها سامي. لقد صبر كثيرًا. لقد تأمّل كثيرًا. وها هو الآن في وادٍ معلّق في السّماء. ***لم يعد هناك مستحيل . ثمرة كهذه لا يمكن أن تكونَ مستحيلة.*** وفكرة طفل يحمل اسمه باتت أقرب من أيّ وقت مضى.

(٤)

استلقى سامي في تلك الليلة على سريره الجديد .. ما الذي سيكتشفه غدًا؟ هل تلك المرأة أمّه فعلاً؟

اصطفّت ذكريات مختلفة في ذهنه: تقبيل رأسها ، ابتسامتها ، شاي الصباح معها. لا شيء كشاي أمّه. تسكبُ حبها فيه ، وتحلّيه بروحها ، وتبقيه دافئا بحضورها. قلّب تلك الصّور حتى وجد نفسه ينساب إلى عالمٍ آخر.

وجد سامي نفسه في شقّته في الرياض ، في نفس الدولاب الذي كان يختبئ فيه صغيرًا. لم تزل الغرفة خالية. يخرج من الدولاب ولا أحد يرحّب به .. يتلفّت .. لا أحد .. ***لكن.. ما هذا المكعّب فوق الرف؟*** اقترب سامي ، وإذا به الصندوق الخشبي الأحمر ذو الدائرة البيضاء. ***هل تركتِ رسالةً لي يا أمّي؟***

يذهب ويفتح الصندوق. تخرج أصواتٌ غير مفهومة. لكنّه ميّز بضعة كلمات: «الجبل؛ الحكيم؛ سلمى؛ الوادي؛ الآخرة».

يجد سامي نفسه يطير في السماء في وسط الليل. الهواء بارد هنا ، ويرى الوادي من فوق .. يرفع رأسه كي يرى الجبل. لكنه غير موجود .. لا شيء .. لا يرى سوى الظلام يحيط به. حتى السماء خلت من النجوم ، خلت من القمر. ينظر إلى الأسفل

مجـددًا ، ولا يـرى شـيء. لكنـه الآن يهـوي .. يهـوي إلى السـحيق المظلم. تتسـارع دقـات قلبـه. بـرغم أنّـه يـرى نفسـه يهـوي ، إلا أنّـه يشعر بالدقّات. يفتح فمه ليصرخ ولا شيء يخـرج. تظهـر لـه عينـان مألوفتـان .. تنظـر إليـه بصـمت .. سـارة؟ يتوقّـف كل شـيء لحظـة التقاء عيني سامي بها .. ثمّ يستمر في السقوط.

(٥)

استيقظ سامي على صوت بابه يُطرَق .. للحظات ، لم يـدرك أين هو .. كيف أتيتُ إلى هنـا؟ ، ثم يسـمع صـوتًا مألوفًـا: «خلّصت النـوم يـا ابنـي». تـذكّر أنّـه في شـقّة رمـزي ومـريم. ***كابوس ملعون!*** «حسنًا ، حسنًا. صحيتْ»! جاء صوت مريم حازمًا: «هيّا إذًا».

جلس سامي متأمّلاً الحجرة الخالية. اخترقت أشعّة الشّمس نافذة الغرفـة ولامسـتْ سّـريره. لم يتحـرّك وتـرك الشّـمس تصـافح وجهه. أخرج سامي الرسالة من جيبه وقرأها:

إن أردت تحقيق أمنيتك فاذهب إلى الجبلِ ولا تجعل الوادي مستقرًّا. وإن خالفتَ يحتجب الجبل منكَ ثم تنساه وتضيع أمنيتُك.

ولا تغرّنك السنون في الوادي فإنّها أيام في دنياك؛ ثم يأتي يومٌ يسقط الوادي، ويضِيع سعيك وتختفي مغانمك.

وتذكّر: هي رحلة واحدة فقاتل للوصول إلى الجبل .. واضحكْ في وجه الموت فإنك إن قُتِلتَ في سعيك تحقّق مرادك.

داوم قراءة الرسالة كي لا تنسى الجبل .. وخذ بيدِ من معك وذكّر لعلّ الناس تنتفع بتذكرتك.

سرتْ فيه رعدةً أيقظته ، وأشعرته بضرورة التحرّك.

الفصل الثالث عشر: سِجِل الوَادِي الوَطَنِيّ

(١)

تتجهّز فيروز لتبدأ يومها. تفكّرت: **يوم جديد**. لم تكن متأكّدة لو أنّها قالتها بازدراء.

في حجرتها كل الحُلِيّ. في حجرتها ، كل ما تَتَمنّى. وقفتْ أمام المرآة وقد أمسكت فستانًا ورديًّا بيديها ووضعته على جسدها. تأمّلتْ نفسها للحظات. يوم جديد. هذه المرّة كانت النّبرة أكثر إيجابية.

قبل أن تخفض يديها. تتوقّف. تنظرُ إلى حيث تمسك بالفستان. إلى يدها اليمنى تحديدًا. تمشي بهدوء وتضع الفستان جانبًا. تنظر مرّة أخرى إلى يدها. قفّازٌ أبيض يكسوها. تحدّث نفسها: ما هذا همم؟

لمَ تلبس قفّازًا؟ خلعتْ القفّاز ببطء ونظرتْ إلى كفّها للحظات. تمتمت وهي تنظر إلى كفّها ثمّ لبست القفّاز من جديد.

بهدوء ، تتوقّف فيروز عن كل ما تقوم به وتتوجّه إلى مكتبها ، تفتح الدرج الأوّل وتخرج الأوراق المتناثرة ، تخرج بعض المساحيق ، وتخرج ربطات الشعر. تخرج كل ما فيه بهدوء. في أسفل الدرج تحرّك لوحًا خشبيًّا تساوي مساحته مساحة الدرج. لوحٌ خشبيٌ يخفي ما تحته.

رفعت فيروز اللوح ونظرتَ إلى ما تحته.

الآن تتذكّر.

«يومٌ جديد بالفعل». هذه المرّة قالتها بتلذّذ بصوتٍ مسموع.

(٢)

وصل فؤاد إليهم في الصباح الباكر وتعرّف على مريم

ورمزي. توجّه الأربعة إلى مكتبة القصر ، وتقدّمهم فؤاد. التفتتْ مريم إلى سامي ، وهمست بلكنتها المصرية: «لغته زِبَالة»! ضحك رمزي وابتسم سامي.

مشى الأربعة يخترقون المباني التي صُنعت من الحجر والطين. كانت الأبواب القصيرة المتناثرة تهتف مذكّرةً سامي بمن كان يسكن الوادي .. أطلّت عليهم شرفاتٌ مثلثّة الشكل ومربّعة من فوق. كأنّها عيونٌ تراقب مسعاهم.

اكتظت الطرقات بالنّاس ما بين متسوّقين ومتجوّلين ومنشغلين؛ تحرّكوا غافلين عن ذلك الجبل -تلك الرسالة- الضخم الذي يطلُّ عليهم بصمت.

لفتَ نظرَ رمزي محلٌّ ، عُلِّقت عليه لوحة كُتبَ عليها: ((نبحث عن أيدٍ عاملة بمقابل راتب مجزٍ. للاستفسار؛ اسألوا صاحب المتجر: راشد السّلواني)).

قلّبَ رمزي فكرة العمل - ***ولو لفترة مؤقّتة فقط*** - في ذهنه. ***ما الضّيرُ في ذلك؟*** إن احتاجوا أن يبقوا أيّامًا إضافية بحثًا عن والدة سامي؛ فلمَ لا يتكسّب كي يستطيع تغطية مبلغ الشقّة. ***الشقّة المؤقّتة نعم.*** وبما أنّه في الوادي: ***لمَ لا أبحث عن الثمرة؟*** قبل أن تأخذه أفكاره بعيدًا نادى فؤادًا: «وصلنا! إلى الأمام انظروا».

وقفت أسطوانتان عريضتان في منتصف سور القصر وبينهما بابٌ خشبيٌّ عريض. نُقِشَت مثلّثات على الأسطوانتين وامتدّت على طول سور القصر. من خلف السّور امتدّت عشرات النخيل التي وقفتْ بصمت تراقب كل من يدخل ويخرج وكأنّها جزءٌ من حرس القصر.

وقف قصرٌ ضخم رمليُّ اللون من وراء النّخيل. ملامح

القصر مشابهة لملامح السّور: أسطوانات ضخمة في زوايا القصر الخارجية؛ وشرفات كبيرة بعضها مثلثة وأخرى مستطيلة. كان القصر يشبه قصر المصمك في مدينة الرياض ، لكنه أكبر؛ أكبر بكثير.

كان هناك أربعة من الحرس عند البوابة يتفحّصون كل من يدخل. يرفضون هذا ويُدخلون ذاك. لم يظهر لسامي أنّ بإمكانهم الدخول إلى القصر .. وفي تلك اللحظة – وكأنّ فؤادًا يقرأ أفكاره – أشار إلى بوابةٍ أخرى تقع عن يمين البوابة الرئيسة بمائة متر تقريبًا: «هناك البوابة الأخرى مدخل المكتبة .. في القصر الأشامسة ممنوعون من الدخول ، المكتبة لا بأس».

جاورت المكتبة القصر ، وتوقّع سامي أن يكون هناك مدخلا آخر للمكتبة من داخل ساحة القصر.

بعدما دخلوا فناء المكتبة الخارجي ، استقبلتهم ما يقارب عشرين عتبة تصل إلى باب المكتبة. كانت عتبات المكتبة عريضة في الأسفل نحيفة في الأعلى ، وكأنّ العتبات لسانٌ اندلق من بابها. انحنى رمزي وسامي وبالكاد لامس الباب رأس مريم؛ في حين دخل فؤاد دون عناء.

(٣)

على عكس بابها القصير كانت المكتبة ضخمة. عند دخولهم وجدوا أمامهم طاولة استقبال ، ومن ورائها ساحة مستطيلة الأبعاد فيها عشرات الطاولات التي – وكما بدا لسامي– كانت تُستخدم للمطالعة . حفّت منطقة المطالعة بدواليب الكتب المرتفعة. ومن بين الدواليب انشقّت عشرات الممرّات.

لمّا وقف سامي عند طاولة الاستقبال؛ انتبه أن للمكتبة ستة طوابق كلّها تطلّ على ساحة مطالعة الكتب. نظر سامي إلى الأعلى ليرى سقفًا زجاجيًّا أدخل ضوء الشّمس إلى جنبات المكتبة.

سمع سامي صوت رمزي يقول: «واو» تلاه صوت مريم: «واو بِجَد»! عند الاستقبال، رأى سامي خريطة المكتبة، كانت أكثر تعقيداً مما بدا له ابتداءً؛ فهناك أدوار تحت الأرض، وأدوار أخرى غير الستة التي رآها؛ كما كانت هناك أماكن أخرى للمطالعة أيضًا.

«أمين المكتبة، سيأتي هو الآن، السيّد مهدي»، وأشار إلى رجلٍ متحدّب يمشي ببطء. لبس العجوز ثوبًا بنّيًّا من صوف. كان فؤاد يعلم أنّه حتّى في الصّيف، كانت تصيب مفاصل السيّد مهدي رعشة. ولعلّه أطال لحيته البيضاء الكثّة لتدفئ فكّه أيضًا.

وضع بضعة كتب على الطاولة ثم نظر إلى سامي أوّلاً. أطال النّظر في ضيوفه، وكأنّه يحاول أن يتذكّرهم. كان بياض عينيه كبياض الحليب وسواد بؤبؤته فيه زُرقة. أجال النّظر حتّى وصل أخيرًا إلى فؤاد. ابتسم العجوز ليظهر أسنانه المصفرّة. «مرحبًا بك يا فؤاد»، تحدّث الأمين ببطء وبصوتٍ مرهف.

قال فؤاد: «سيّد مهدي مرحبًا. أصدقائي بك أعرفّهم. سامي، رمزي، مريم» ثم أشار إليهم. أومأ العجوز برأسه تقديرًا: «أهلاً بكم، هل تسمحون لي أن أجلس، مفاصلي لم تعد كما كانت». أجابته مريم: «بالطبع يا عم».

جلس مهدي، وقال: « كيف يمكنني خدمتكم»؟ قال سامي: «سيّد مهدي بودي ...»، قاطعه السيّد مهدي: «أرجوك، سمّني مهدي». ابتسم سامي: «عفوًا ...مهدي، بودّي أن أطّلع على السجل الذي يحوي أسماء مواطني الوادي. هل تعرفه»؟ نظر العجوز إلى الأفق قليلاً وهو يتمتم: «السجل. السجل. السجل»، ثم برقت عيناه: «آه تقصد سجل الوادي الوطني. نعم. يا إلهي، لا يسأل أحد عن هذا السجل».

أخرج العجوز كتابًا ضخمًا من خلف الطاولة؛ فتح الكتاب

وأخذ يمرّر سبّابته على القوائم التي ملأتْ الكتاب ، قال العجوز: «نعم. ها هو» ، أخرج ورقةً وكتب عليها: "سجل الوادي الوطني ، قسم الأرشيف: (١٥٤-ج)". قال: «تفضّلوا» ثم أعطاهم الورقة.

دخل الأربعة في الدهليز الضخم بحثًا عن قسم الأرشيف. بعد عشر دقائق من البحث توقّف سامي فجأةً أمام قضبان حديدية سدّت الطريق. في وسط القضبان بابٌ مقفل.

قال رمزي: «هل ضللتَ الطريق»؟ أجابه سامي: «أبدًا ، بحسب خريطة المكتبة ، فإن قسم الأرشفة من هنا». أشارَت مريم إلى لوحة عُلِّقَت في أعلى القضبان. (**القسم المحظور، ١٣٤-١٤٤**)

اقتربَ سامي حتى كادت القضبان تلمس وجنتيه ونظر.

(٤)

كان الممر - مثله مثل بقية الممرات - لا شيء يميّزه. كتب مصفوفة مغبرة ودواليب طويلة لا نهاية لها. لمح سامي ظلالا متحرّكة من قلب القسم المحظور. قال رمزي وهو يمدُّ عنقه: «ما الذي يخبّئونه هنا يا تُرى»؟ سكتَتْ المجموعة دون أن تقول شيئًا. أكمل رمزي: «هل تعلم يا فؤاد»؟ هزّ فؤاد رأسه نافيًا. استمرّ سامي يحاول اكتشاف هويّة أصحاب الظلال المتحرّكة.

قال رمزي: «انظروا؛ الممر التالي غير مغلق. بإمكاننا أن نأخذ طريقًا آخر» ، تحرّك رمزي ومريم وفؤاد وكاد سامي أن يذهب أيضًا لكنّه نظر نظرة أخيرة إلى داخل القسم المحظور ثم اتّسَعتْ عيناه...

(٥)

مشت فيروز وسارة في أحد ممرّات القسم المحظور: «أليس هذا المكان أفضل من ذاك الكوخ المهترئ همم»؟ اكتفتْ سارة

بالصمتِ جوابًا تتأمّل الكتب العتيقة المصفوفة.

اقتربا من قضبان حديدية في آخر الممر. توقّفتْ سارة تتأمّله بتعجب: «قضبان في مكتبة ، لمَ»! قالت فيروز: «هذا الباب يمنع دخول النّاس إلى القسم المحظور الذي نمشي فيه الآن» ، قالت سارة: «ولمَ»! أجابتها «لأنه محظور».

أعرف أنّه محظور يا حيوانة ، لكنّي أسأل لمَ؟ تمنّتْ سارة لو أنّها قالت هذه الكلمات .. اكتفت بالقبض على قفل كان على القضبان ، يشبه قفلاً آخر رأته على باب ثانٍ مرّت به في القسم المحظور .. **هذا المكان مليء بالأسرار.** سألت سارة: «ومن يملك حقّ فتح الباب»؟ قالتْ فيروز: «لنعد إلى موضوعنا فلدي مهام أخرى كما تعلمين».

ظنّت سارة أنها سمعت حركة قريبة خلف القضبان ، هل كان هناك أحد؟ *لا أظن ، لا أحد يأتي إلى المكتبة أصلاً!* جاء صوت فيروز ليجبرها أن تعود من هواجسها: «اتّفقنا على تفاصيل الزواج يا سارة . سيأتي أخي الأمير يزيد ليخطبكِ. وسنعلن الزواج بعدها مباشرةً في أحد احتفالات الوادي الأسبوعية». *سأتزوّجه إذن. مهما تأمّلتُ الكتب ، أو نظرتُ إلى القضبان ، أو تخيّلتُ وجود أشخاص خلفها ، فالواقع سيضرب ، ولن يتغيّر من أجلي.*

(٦)

بعد أن ابتعدتْ سارة وتلك المرأة - أخت الأمير يزيد - أسند سامي رأسه على دولاب الكتب خلفه. أنفاسه لم توقف غليان الدم في قلبه.

ستتزوج؟ ذهبت أحلامك الوردية أدراج الرياح يا سامي.. لكنّي شعرت أن بيننا شيئًا مختلفا. ترى هل شعرت هي بنفس الشيء؟ لعلها لم تُلقِ بالا لمشاعرك يا سامي!

عاد رمزي وقال: «هيه ، ما بك؟ الطريق من هنا» مجرّد أن ناداه رمزي ، اعتدل سامي في وقفته ، سأل رمزي: «هل أنتَ على ما يرام»؟ أجابه: «نعم ...نعم هيّا».

حاول سامي أن يبرّر مشاعره. ***كان هناك شيئا .. نظراتها ، ابتسامتها ، حديثها. كانت هناك أشياء!*** استمرّ سامي غارقًا في أسئلته في حين ضاع الأربعة بين دهاليز المكتبة حتى أفاق على صوت رمزي صائحًا: «لقد وصلنا»! ثم قال الكلمة السحرية التي تمكّنت من انتشال سامي من دوّامة الأسئلة: «هل تعتقد أنّنا فعلاً سنجد اسم أمّك»؟ كجزر البحر ، انكمشت مشاعر سامي تجاه سارة إلى أعماقه ، وامتدّت آماله لرؤية والدته.

استغرق الأربعة قرابة ربع الساعة الإضافية بحثًا عن السجل ، حتى صاحت مريم: «وجدتُه»! أخرَجتْ السجل ، ثم مشتْ إلى طاولة المطالعة ووضعتْه عليها. وجد الأربعةُ قائمة طويلة من الأسماء كُتِبَتْ بخطِّ اليد.

قالت مريم: «انظروا! حتّى عناوين الأشخاص مكتوبة»! قال رمزي بذات الحماسة: «قد نجد عنوانها أيضًا. قد نجدها»! قلّبت مريم الصفحات تبحث عن اسم "سامية العقيق" ، لكنَّ الصفحات لم تكن مرتّبة هجائيًّا.

تناثر الغبار في كل مرة قلبتْ فيها مريم الصفحات الأثرية الصفراء .. استوقفتها عدّة أسماء: سامية الرحيم ، سراج العقيق ، سارة العقيد. كلّما لمحت اسمًا مشابهًا لاسم أم سامي تحمّست ، ثمّ سَرعان ما تختفي الحماسة.

بعد مرور مدّة قال رمزي: «اقلبوا الكتاب إلى الصفحة الأخيرة». التفتتْ إليه مريم وقالت: «لِمَ»؟ قال رمزي: «غالبًا كانوا يسجلون أسماء مَنْ وصل أولاً بأوّل ، وبما أنّنا نعتقد أن هذه السيدة هي من أواخر من وصلوا؛ فلا بد أن اسمها قد أضيف

أخيرًا›› ثم أتبع: ‹‹هيا اقلبي الصفحة››.

لم يشأ سامي أن يفرح ، فالوقت مبكّر. ***مبكّر جدًّا***. بدأت مريم بتقليب الصفحات بسرعة فانشقّت إحداها بالخطأ. كانت الأوراق عتيقة. حرّكت يدها بحذر الآن ، كل صفحة سجلت مئات الأسماء. بعضهم ذهبوا وآخرون بقوا. وصلت إلى آخر صفحة ووضعت يدها على آخر اسم وقالت ...

(٧)

‹‹إنّها هي! وها هو العنوان››! قال سامي والحماس يتفجّر في داخله: ‹‹فؤاد ، هل تعرف هذا العنوان››؟ أجابه: ‹‹نعم؛ ومن مسكنكم قريب››.

(٨)

وهم خارجون ، انتبه رمزي أنَّ مريم كانت تحمل كتابين؛ فسأل: ‹‹إيه ده››؟ قالت: ‹‹كتب قد تكون مفيدة›› ثم مدّت يديها لتريه: ‹‹المرشد المفيد في تاريخ الوادي السعيد›› و ‹‹المختصر في الأوامر الأميرية››. قالت: ‹‹لعلّنا نفهم هذا المكان أكثر››.

أراد سامي أن يقول: ‹‹ولمَ تأخذين كتبًا؟ سنجد أمّي ونرحل من هذا المكان››! لكنّ الوقت مبكّر جدًّا لإعلان الانتصار.

حالما خرجوا من المكتبة تفاجؤوا بأنّ الشّمس قد أوشكت على المغيب. نظروا إلى بعضهم البعض في حَيرة: ‹‹هل استغرقنا كل هذا الوقت في المكتبة››؟! سألتْ مريم ، ثم أعقبت: ‹‹مستحيل››! نظروا إلى فؤاد الذي قال ببلاهة: ‹‹ماذا››؟ سأله رمزي: ‹‹هل بالإمكان شرح ما الذي يحدث››؟

نظر فؤاد مستغربًا ولم يقل شيئًا ، قال رمزي: ‹‹دخلنا هنا في أوّل النّهار. والآن الشمس تغرب ونحن لم نقض سوى ساعة

بالكثير في المكتبة»؟! قال فؤاد: «ألا تغربُ الشمس في بلادكم»؟ قال رمزي: «بلى ، ولكن ليس بهذه السرعة! لا ينبغي للشمس أن تغرب الآن حيث ...» ، قاطعه سامي: «وما يدري فؤاد ما الوقت الذي ينبغي أن يمر قبل غروب الشمس» ، قال رمزي: «ولكن أمس لم تغرب بهذه السرعة»؟! قال فؤاد: «الوقت متغيّر ، غير ثابت هنا. هل هو ثابت عندكم»؟ لم يُجبه أحد.

ما إن بدأ الأربعة بالحركة حتّى سمع سامي صوتًا يناديه. التفتَ وإذا بها سارة خرجت للتو من القصر. كانت سارة تنظر إلى سامي ابتداءً لكن عندما لاحظتْ الثلاثة الآخرين معه توقّفت. تفهّم سامي الأمر؛ فالتفتَ إلى من معه وقال لهم: «اذهبوا وسألحق بكم» ، قالت مريم: «إلى أين»؟ قال سامي: «منزل والدتي قريب من شقّتكم -كما قال فؤاد - اسبقوني وسألحق بكم».

لم يتحرّك أحد . قالت مريم: «ما الذي ستفعله؟! ومن هذه التي تناديك»؟! تفكّر سامي قليلاً ثمّ قال بعد تردد: «سأخبركم عندما ألحق بكم». فتحت مريم فمها لتجادله لكنّ رمزي قال: «حسنًا يا سامي ، سننتظرك في الشقّة» ، قالت مريم: «ولكن ...» ، قاطعها رمزي: «لا عليكِ. هيّا فلنذهب». والتفتَ إلى فؤاد ، قال سامي: «لا عليك يا فؤاد ، اذهب معهما وسألحق بكم بعد لحظات. أدلُّ الطّريق». تردّد فؤاد قليلاً ثمّ لحق برمزي وزوجته ، ومشى سامي في الاتّجاه الآخر.

(٩)

أقبل سامي عليها لكن ... هذه المرّة كانت ملامحه قاسية. وهذه المرّة لم يتبسّم. فرحتْ لرؤيته ، وصاحب فرحتَها الشعور

بالتوتر. شعرت بدقّات قلبها تعلو. ***هل سمع الشارع صوت قلبها؟ هل سمع سامي الصوت؟***

ولكن هذه المرّة ، شيء آخر زاحم مشاعرها. لم يكن التوتر اللذيذ فقط ... هل كان قلقًا؟ ***مَنْ هؤلاء؟ ولماذا هو هنا؟ هل كان في المكتبة؟ لمَ هذا الوجه القاسي؟! أم هو وجهٌ حزين؟*** «مرحبًا سامي» ، تدفّقت الدماء إلى وجنتيها واكتست حمرة ، «أراكَ في منتصف الليل ، ثم تتسلل إلى منزلي ، والآن هنا. بدأت أشك أنّك تطاردني». توقّعت سارة أن يبتسم لكنّ ملامحه لم تتغيّر.

نظرتْ إلى القصر ثم إلى سامي وقالت: «هل لنا أن نتحرك ، لا أريد الوقوف هنا». التفتت وتركت القصر خلفها ثم بدأتْ تمشي .. قال سامي وهو يقف من ورائها: «لماذا؟ كي لا يراك زوجك الجديد»؟

شعرتْ سارة بقلبها يهوي وكأن صدرها وهن ولم يعد يستطع حمل تلك المضغة النابضة الثقيلة. ملأها ذلك الشعور ولم يترك مكانًا لأي شيء آخر .. لم تمر أية فكرة في ذهنها ، لم تحدّث نفسها ، لم تلتفت .. قالتْ: «ماذا تقصد»؟ أجابها: «سمعتكِ في المكتبة» ، ثمّ أكمل: «سيغدق عليك الأمير بكل ما تتمنّين. لا تقلقي. أتمنّى لكِ حياة سعيدة» .. لم تلتفت.

حاولت أن تتمالك نفسها .. وما عساها أن تفعل؟ قالت بهدوءٍ مصطنع: «شكرًا» ثم رأت سامي يتجاوزها ويلحق بأصحابه.

(١٠)

وقف جعفر من بعيد يراقب حديث خطيبة الأمير وذاك الشاب الغريب .. لم تتغيّر ملامح وجهه القاسية .. لم تتغيّر وقفته.

(١١)

قعدت مريم على كرسيّ في "منزلها" الجديد تقلّب صفحات الكتابين. قالتْ دون أن يسألها رمزي: «تاريخ البشر يبدأ دون ذكر قدومهم. هكذا وكأنّهم هنا منذ الأزل» لم يعلّق رمزي .. كان يتأمّل الأرض بصمت ويده على ذقنه .. أكملتْ: «يسجل تاريخهم حقبة ما قبل الملكية وبعدها».

استمرّت تقرأ وتخبر رمزي بأبرز ما وجدته. قالت: «قبل الملكية دعا جاسم للبحث عن الثمرة ، وتقديم جوائز لمن يجدها. بل قاد تحالفًا بين أهل الوادي لتقديم مساعدات وقروض ميسّرة لمن يريد شراء أدوات تنقيب أو لمن يبحث عن مسكن ...» لم يقل رمزي شيئًا. أكملتْ: «لقد يسّروا للنّاس نسيان الجبل»!

(١٢)

بعد مدّة تمتمتْ وعيناها في الكتاب: «علينا أن نذهب إلى الجبل همم..» ، قال رمزي دون أن يلتفتْ إليها: «هل فعلاً تعتقدين أن الثمرة حقيقية»؟ أجابته: «ربّما .. وأنت»؟

قال: «أعتقد. وسيمكّننا من ...» ثم سكت. قالت مريم: «يمكّننا؟ يمكّننا مِن ماذا؟ إنجاب طفل مثلاً»؟! قال: «وما الخطأ في ذلك؟ كنتِ تنكرين كل شيء ، وها نحن في وادٍ معلّق في السماء» ، قالت: «صحيح. وقلنا أمنيتنا في الدرعية. والرسالة تقول: علينا الذهاب إلى الجبل» أجابها: «لكن الثمرة موجودة هنا. أكد ذلك فؤاد».

قالت: «إنتَ بتهزّر؟! وماذا تريدني أن أقول؟ تريدني أن أقول: هيّا بنا نذهب وننقب عن الثمرة»؟! قال: «ولمَ لا»؟ قالت:

«ألم تقرأ الرسالة؟! إن انشغلنا هنا سننسى الجبل ، ثم سنعود إلى عالمنا خاليَي الوفاض» ، أجابها رمزي: «دعينا على الأقل نجرّب»!

بدأتْ مريم تلحظ عناد رمزي حيال هذا الموضوع ، فحاولت تغيير استراتيجيّتها في النّقاش .. قالت: «ومن أين لنا المال الكافي لنبقى هنا»؟ قال: «لقد رأيتُ مكانًا بإمكاني العمل فيه» أجابته: «رمزي الرسالة تقول: إننا..» ، قال: «أعلم ما تقول الرسالة .. لقد أزعجتيني بها .. ثم صدّقيني لن ننزلق كما انزلق الآخرون» ، قالت مريم: «حتى إن وجدتَ الثمرة؛ فإن أثرها محصور على الحياة في الوادي. وأنت تعلم كيف يمر الوقت بشكل غريب هنا. سنعود إلى حياتنا كلمح البصر. أمّا ما تمنّيناه فسنناله إذا قمنا بالمهمّة التي وُكِلَتْ إلينا».

قال رمزي: «حسنًا دعينا نؤجل الحديث في هذا حتّى ننتهي من قضيّة أم سامي. سآخذ الوظيفة حتّى يتبيّن لنا ما إذا كانت أم سامي موجودة أم لا. بعدها نتحدّث ، على الأقل نكون ضربنا عُصفورين بحجر واحد».

قالت مريم: «رمزي. يا رمزي ، أنت تخاطر بالأهم ، تقول الرسالة: إننا سنندم» ، قال رمزي: «لا تكوني سوداوية ، كلما قلتُ شيئًا اقتبستِ شيئًا من الرسالة وقلتِ: إننا سنترك الوادي»! قالت مريم: «سوداوية ، كئيبة ، بإمكانك تسمية الحقيقة أي شيءٍ تريد حتّى تتجنّب مواجهتها. لكنّنا عائدون يا رمزي. جرى لك إيه»!

دخل سامي عليهم فالتفت رمزي إلى مريم وقال: «للحديث بقيّة» ، ثم نظر إلى سامي وقال: «ما بك»؟ أجابه: «لا. لا شيء». جلس ثم قال: «أين فؤاد»؟ قال رمزي: «قال إنّه سينجز مهمّة خاصّة ، وقال إنّه لن يطيل».

قالت مريم: «لقد وعدتَ أن تخبرنا ماذا كنت تفعل. هيّا»

سكتَ سامي. نظر إلى رمزي؛ ليراه ينتظر الإجابة أيضًا. تنهّد ، ثم أخذ نفسًا عميقًا.

حكى قصّته مع سارة .. بدأ بذكر الأحداث فقط ، ثم بتحفّظ شاركهما ما كان يشعر. استمع رمزي ومريم بإنصات دون أن يقولا شيئًا. عندما وصف ما حدث معها عند باب القصر اعتدل رمزي في جلسته ، في حين وضعت مريم يدها اليمنى على عينيها ولسان حالها يقول: «مُش كده»! وفعلاً حالما انتهى سامي قالت: «مش كده يا سامي»!

قال رمزي: «قلبي معك يا سامي؛ صدّقني ، لكنّي لا أجد سببًا يجعلك تظنُّ أنّها مغرمة بك. هِيَ أوّل ما واحدة بتبصّ لك يعني حبّتك»؟! كاد أن يقول سامي: «لكنّكما لم تريا نظرة الإعجاب التي رأيتها»! لكنّه فضّل السكوت.

قالت مريم – وقد وجّهت حديثها إلى رمزي – : «وماذا عن وقوفها معه عند باب بيتها .. كانت تخاطر بسمعتها بمجرّد أن سمحت للناس – والجيران تحديدًا – أن يروها مع شاب غريب. أعتقد أن الحكاية فيها إنَّ»!

سكت الثلاثة قبل أن تضيف مريم: «على أي حال اسمع يا سامي ، سارة كما تقول على وشك الزواج .. من الخطأ محاولة التواصل معها .. لا معنى ولا فائدة من ذلك أبدًا» ، قال رمزي: «أتّفق».

في تلك اللحظة سمع الثلاثة طَرْقَ الباب .. قام رمزي قائلاً: «لابد أنه فؤاد»؛ بالفعل دخل فؤاد قائلاً: «عن التأخير فؤاد يعتذر» ثم أضاف: «إلى العنوان .. بنا هيا»؟ التفتَ رمزي إلى سامي ومريم وقال: «بنا هيّا».

(١٣)

احتاجوا إلى وقتٍ قليل ليصلوا إلى العنوان .. هل كانت عشر دقائق أم خمس؟ لم يستطع سامي أن يفهم كيف ينساب الوقت في الوادي. استأنس بوصف مريم عندما قالتْ: «كأنّي أبدأ بمشاهدة فيلم ، ثمّ فجأة تتجمّد الشاشة لأقلّ من ثانية ، لأجد نفسي دون مقدّمات في منتصفه .. ثم يتكرر ذلك حتى أصلِ إلى نهاية الفيلم. وبرغم ذلك؛ أشعر أنّي مررتُ بالتجربة دون انقطاع .. كالأحلام ، تقفز من مشهد إلى آخر لكن أعلم تمامًا كيف وصلت إلى هنا».

كان البيت صغيرًا: نافذة عن يمين الباب ونافذتان في الدور الثاني. لم يرَ الأربعة أي ضوءٍ منبعث منه .. اقتربَ سامي من الباب ليطرقه؛ لكنّه وجده مفتوحًا. ***هل نسيتِ أن تغلقي الباب يا أمّي؟***

طرق الباب ونادى: «يمّه»؟ لم يسمعوا حركة من داخل المنزل ، قال رمزي: «هل تعتقد أنّها سمعتك»؟ قال سامي: «نومها خفيف ، لو كانت في الداخل؛ لسمعتْ».

أعلن صرير الباب عن قدومهم ، ولم يستقبلهم سوى الصمت.

خطا سامي بضع خطوات ، ونادى من جديد: «يمّه»؟ صارَع سامي العتمة ليرى .. سمع صوتَ مفتاحٍ يتحرّك ، ثم رأى نورًا من جهة المدخل.

اتّضح لسامي أن فؤادًا قد أسرج مصباحًا بقرب الباب. أكمل فؤاد إدارة المفتاح ، وازداد توهّج الشعلة حتّى أضاء المصباح الغرفة بالكامل: "كنبة" خضراء عليها لحافٌ من صوف؛ عن يمينها ويسارها طاولتان صغيرتان ؛ مكتبة من أربعة رفوف في مقابلها؛ مطبخ صغير؛ ودَرَج صغير يؤدي إلى الطابق الثاني. «يبدو أن الخالة استقرّت هنا» قال رمزي وهو يتأمّل المكان.

عبق المكان برائحة الغبار برغم أن الأثاث لم يزل مرتّبًا: كما تحبّ أمّي. توجّه إلى المطبخ ووجد رغيفًا قد تعفّن قليلاً. ***متى ذهبتِ؟ بضعة أيّام ربّما؟ هل أنتِ الآن في طريقك إلى الجبل أم أنّكِ وصلتِ؟***

لم يكتفِ سامي برؤية الأثاث المهجور؛ بل تخيّل سامي أمّه تسكن هذا المكان .. شمّ رائحتها .. شعر بطيف وجودها.

توجّه سامي إلى الأعلى .. لم يتوقّع رؤيتها ، وما خاب ظنّه. عاد إلى الأسفل يجر رجليه خائبًا. عندما رأته مريم قالت: ‹‹لا شيء .. هاه››؟ أومأ رأسه إيجابًا. ربت رمزي على كتف سامي: ‹‹لا بأس››.

ماذا الآن؟ أأبحثُ في المدينة؟ بلاشك ذهبَتْ إلى ...لكنّ شيئًا أوقف كل ما كان يدور في ذهنه.

(١٤)

تمتم سامي: ‹‹لا أصدّق››! قالها لنفسه أكثر من أن يكون قالها لغيره. ‹‹ما بك››؟ سألتْ مريم لكنه لم يجبها.

اقتربَ من مكتبة والدته ليجد صندوقًا بحجم قبضته على الرف العلوي. لولا أنّ سامي كان يعرف الصندوق الأحمر وأنّ أمّه كانت تستخدمه دائمًا لترك رسائل؛ لولا ذلك؛ لما انتبه للصندوق الصغير.

أخذ سامي الصندوق من أعلى الرف وتأمّله. سأله رمزي: ‹‹ما هذا››؟ أجابه: ‹‹كان لدينا صندوقا يشبهه في شقّتنا؛ كانت أمّي تستخدمه لترك رسائل لنا إذا خَرَجَتْ من المنزل›› ، قالت مريم: ‹‹هل تعتقد أنها تركتْ لك شيئًا››؟

أجابها بفتح الصندوق ثم نظر إلى ما بداخله فوجد ورقة

مطوية. فتحها سامي وعلّقتْ مريم: «إنّها رسالة»! ذهب سامي إلى المصباح وقرأها.

"بُني،

لا مكان في هذه الورقة للإطالة.

إن وصلتكَ رسالة الحكيم وأتيتَ إلى الوادي بحثًا عني فلا تبقَ هنا. أدِّ المهمّة واذهبْ إلى الجبل يا سامي؛ اذهبْ ولا تنتظر..!

كنتُ أحسبُ أنيّ لن أُفتَن في هذا المكان. لكني نسيتُ كل شيء. نسيتُ الرسالة، ونسيت الجبل، ونسيت سلمى .. وبحسب أوامر القصر قيل لي إنَّهم سيحتفظون بالرسالة في غرفة الأسرار في المكتبة مع رسائل كل مَن في الوادي .. أخبروني أني يمكنني طلبها وإعادتها في حوزتي متى ما رغبتُ في ذلك.

لكنّي نسيتُ.

نسيت .. حتى جاءتني طفلة في السوق تحسبني أمّها. سألتها عن اسمها وإذا بها تقول "اسمي سلمى". تذكّرتُ كلَّ شيء لوهلة. ومباشرةً قرّرتُ ألا أبقى هنا ليومٍ آخر. عدتُ إلى منزلي وكتبتُ هذه الرسالة. أتمنّى ألا أكون تأخَّرتُ .. بُني، لا تبقَ هنا. اذهبْ إلى الجبل يا سامي. اذهبْ ولا تنتظر"!

أحسّ سامي بوجعٍ في قلبه وتمتم: أمّي. كانت حيّة إذن. كانت في الوادي. كانت في هذا المنزل. منذ قرأ رسالة الحكيم في الرياض؛ شعر سامي بتأنيب ضمير. كيف يفقد سامي الأمل في لقائها بعد غيابها بضعة أشهر فقط؟ كيف تخلّى عنها بهذه السهولة؟ بعد أن قرأ اسمها في المكتبة وتأكّد من وجودها في الوادي قطع عهدًا ألا يهنأ له بال حتّى يجدها. إنّها حيّة ترزق.

وسيقوم بكل ما بوسعه للقائها.

لكن ماذا يفعل الآن؟ كان أمله أن يجدها هنا. هل وصلت إلى الجبل؟ إن وصلتْ فلمَ لم تعُد إلى الرياض؟ هل لا تزال في الوادي؟ هل هي في خطر؟ قالت مريم: «الرسالة واضحة؛ فلنذهب إلى الجبل» ، قال سامي: «نعم ...» ثم أخذ نفسًا ، وأكمل: «لنعُد إلى الشقّة ونأخذ الصرّة السوداء ونتحرّك».

تأمّل فؤاد ما يحدث بصمتٍ. وقد خيَّم الوجوم على سكّان عمارة الهدى.

(١٥)

عاد الأربعة أدراجهم. بعد خمس أو عشر دقائق أشار فؤاد إلى الأمام: «ساحة الاحتفال هذه .. واحتفال يوجد اليوم» ، قالت مريم: «ولمَ يحتفلون»؟ أجابها: «مناسبات واحتفالات القصر ينظّمها .. ترعاها الأميرة فيروز .. كل أسبوع هناك احتفال .. الناس تتنافس للحضور .. تتزيّن .. تتحضّر .. والبعض يتنافس للمشاركة» ، قالت مريم: «هذا يفسّر الصخب في الأسواق والمحلات الغريبة» ، قال فؤاد: «إنّها احتفالات ليستمتعوا بوقتهم» وأشار إلى الأمام.

(١٦)

ازداد الصخب كلّما ازدادوا قُربًا. انكشف أمامهم منخفضٌ بيضاويٌّ كبير؛ حجمه كحجم ملعب كرة القدم. كانت الجموع متجمهرة في المدرّج الذي تحلّق حول المنخفض. في الطرف الأيسر من الساحة كانت هناك شُرفة بارزة مكشوفة على الملعبِ. توسّطت الشرفة ثلاثةُ كراسٍ.

«مدهش»! قال رمزي. ثنّت مريم بارتياب: «فعلاً».

خرجَ ثلاثة أشخاص من الشرفة ، وتعالتْ أصوات الصفير والتصفيق. قال فؤاد: «الملك جابر .. الأميران فيروز ويزيد». توجّه الثلاثة إلى طرف الشرفة ، وألقوا التحية على الحاضرين. جلس الملك ثم الأمير عن يمينه والأميرة عن شماله.

استمرّ الأمير والأميرة بتوزيع الابتسامات والتحيات على الحاضرين. كان سامي يقف بعيدًا عن الشُرفة. لم تكن تعبيرات وجه الملك واضحة .. هل كان الذي يراه سامي وجومًا على وجه الملك؟ شحوبًا؟ بدا وكأنّ الملك لم يشعر بكل هذا الزخم من حوله. كان غارقًا في تفكيره .. ***بماذا تفكّر يا ملك؟***

خلف الملك وقف رجلٌ يلبس ثوبًا ذا أكمام واسعة وعلى وجهه...

وكزَ رمزي سامي ، وأشار إلى الرجل ثم قال لزوجته: «مريم ، انظري». نظرتْ مريم وقالت: «عِينيَّ بتزغلل والاَّ هو لابس قناع»؟! قال سامي: «فؤاد ، مَنْ هذا»؟ أجاب: «الوزير .. هو الوزير أدهم». قال سامي: «ولمَ يلبس قناعا»؟ «في المعركة مع الأشامسة سهمٌ ناريّ أصاب فمه .. احترقَ نصف وجهه ، وشُلّ لسانه» ، سأل رمزي بصفاقة: «وما فائدة وزيرٍ لا يتحدّث»؟ قالت مريم: «يتحدثون عن طريق الكتابة .. لا مشكلة في ذلك أبدًا يا رمزي». ظلّ الوزير واقفًا دون حركة.

أشار الأمير يزيد إلى رجلٍ في قلب الساحة. أومأ الرجل الذي بدا وكأنّه قائد الحفل. أشار إلى خمسة متحلّقين حوله وبدؤوا بدقِّ الطبول .. شيئا فشيئا خفتت أصوات الجماهير. استمرَّت الطبول تقرع ، جاءتْ مجموعة أخرى تحمل طبولاً أخرى وبدؤوا كذلك في الدق. كان القرع يشبه وتيرة دقّات القلب.

للحظة شعر سامي أنّ دقّات الطبول؛ تماهتْ مع دقّات قلبه. دم دم. دم دم. دم دم. دخلت مجموعات إلى الساحة من مداخل

مختلفة حولها تنساب انسيابًا. توافقت خطوات الجموع مع دقّ الطبول. إذا دق الطبل؛ تحرّكوا. وإذا سكتَ؛ سكنوا. استمرّوا بالمشي حتى تحلّقوا حول المطبلين ليشكلوا حلقات إنسانية متوازية بعضها أكبر من بعض. تغيّرت وتيرة دق الطبول وتنوّعت ، ومع تنوّعها تحرّك المتحلّقون بشكل متناغم غريب. صفّقت الجماهير بحرارة.

اتّجهتْ أعينُ الحضور جميعًا إلى الأسفل تلتهمُ المشهد. في حين نظر سامي إلى الأعلى: وقف الجبل الضخم شاهدًا على نسيانهم. ***كيف وصلوا إلى هذا الحال؟ تُرى .. لو تذكّروا الجبل ، هل كانت الأولويات التي وضعوها لأنفسهم ستبقى كما هي؟ هل سيكون الاحتفال مُهمًّا كما يبدو الآن؟***

«هل ترى ما أراه»؟ قالت مريم – وقد استقرّت عيناها على الجبل – أومأ سامي إيجابًا دون أن ينظر إليها: «نعم».

«وما الذي ترونه»؟ سأل رمزي. أشارتْ مريم: «هذا جنون؛ عليهم السير تجاه الجبل ، وهاهم يعزّزون بقاءهم في هذا الوادي ويتفنّنون في نسيان سبب مجيئهم إلى هنا»؛ قال رمزي: «ثمّ ماذا»؟ قالتْ: «ثم ماذا؟! الوادي مجرّد جسر إلى غاية .. إلى حياة حقيقية ، وها هم جعلوا الوادي غايةً وحياةً».

استمرّ رمزي ينظر إلى الاحتفال ، وقال: «ناس مبسوطة وبتحتفل؟ لماذا التضييق؟ هم أحرار»! قالتْ مريم: «لديهم مسؤولية: يسوقون أنفسهم إلى الهلاك» ، قال رمزي: «كيف»؟ قالت: «كم من هؤلاء جاؤوا إلى هنا بغية الذهاب إلى الجبل ، المريض والفقير والمهموم والمصاب ثم يأتون هنا ويُبعدُ القصر الرسائل إلى غرفة مقفلة ، ثم يدفعونهم إلى البحث عن الثمرة» ، قال رمزي: «عدنا إلى موضوع الثمرة» ، قالتْ: «ليس ذاك يا رمزي. ألا ترى كيف أنّه وبمجرّد التشريع لهذه الأمور التي

تتعارض مع الذهاب إلى الجبل؛ بمجرّد تشريعها ينسون غايتهم وأهدافهم››؟ قال رمزي: ‹‹كل امرئ؛ مسؤول عن نفسه››.

تدخّل سامي وتحدّث بنبرة هادئة: ‹‹قُل لي رمزي ، هل قرأتَ الرسالة اليوم››؟ قال: ‹‹لا .. لمَ؟ هل خرجتْ كلمات جديدة››؟ قال سامي: ‹‹لا. ماذا عنكِ يا مريم››؟ قالتْ: ‹‹نعم. عدّة مرّات››. سكت الثلاثة.

تأمّلت مريم السماء وهمست: ‹‹ داوم قراءة الرسالة كي لا تنسى الجبل››.

(١٧)

لم تزل الطرقات مكتظّة والأصوات متعالية عندما وصلوا إلى شقّة رمزي ومريم. استأذن فؤاد لينجز أمرًا قبل أن يعود إليهم بعد: ‹‹بسيطة لحظات››.

بعد ذهاب رمزي ومريم إلى حجرتهما لأخذ حاجياتهما ، انتظر سامي على "كنبة" الغرفة يقلّب صفحات كتب مريم متململاً. لم تدمْ مدّة حتّى طُرقَ باب الشقة. سمع سامي حركة سريعة من حجرة رمزي ومريم ثم دخلا الصالة.

سأل سامي مستغربًا: ‹‹مَنْ يكون››؟

جاء طرق الباب مجددًا.

مشى الثلاثة ببطء. فتح سامي الباب ولم يصدّق ما رآه .. ذهب التشنّج وارتخى الثلاثة. لم يكن تهديدًا ، بل على العكس تمامًا.

(١٨)

نظرتْ سارة إلى سامي أولاً ، ثم إلى الغريبَين الذين وقفا

خلفه.

قالت لنفسها: ***ما الذي أفعله هنا؟*** وقفَ الثلاثة ينظرون إليها.

قالتْ سارة: «مرحبًا» ، ثم أومأت إلى الطويل ذي الأذنين الطويلتين ، والمرأة النحيلة التي تسببت ابتسامتها في اختفاء عينيها خلف وجنتيها ، قالتْ النحيلة: «مرحبًا سارة. أنا مريم وهذا زوجي رمزي أهلاً بكِ» ، ثمّ مدّتْ يدها. صافحتها سارة بتردد ، ثم أومأتْ من جديد إلى الطويل ... رمزي.

كادت سارة تعتذر عن مجيئها وتعود أدراجها؛ لولا أن بادرتها مريم: «تفضّلي». ***لا يمكن أن أدير ظهري وأذهب الآن. سأبدو كالبلهاء.*** استجمعتْ قواها وقالتْ: «شكرًا لكِ .. أودّ التحدّث إلى سامي».

(١٩)

خطا سامي ومريم بضعة خطوات بعيدًا عن المبنى. أخذت سارة نفَسًا وبعد تردّد قالتْ: «ما قلتَه لي عند القصر ... لم يعجبني أبدًا .. لا يحق لك ...» ولم تكمل.

منذ أن تركها واقفةً عند القصر؛ شعر سامي بخليط من المشاعر: الغيرة ، الحزن ، الحسرة ، والعجب أنه وضع نفسه في هذا الموقف. لكن بعد أن خرجت الكلمات من فمه شعر بأمرٍ آخر.. هل أخطأ؟ هل تمادى؟ هل هذا ذنب يشعر به؟ قال: «أعتذر عمّا قلته»!

لم تتوقّع سارة أن يأتِ الاعتذار بهذه السرعة. اكتفتْ بالنّظر إليه. أكمل سامي: «لقد تجاوزتُ حدودي. كنتُ أظنُّ أنّكِ..» ، ثم سكت. هل كان يبحث عن الكلمات؟ هل وجدها لكنّه حبسها؟ قال: «هل تحبّينه»؟ قالت: «سامي ، أنت لا تعرف ظروفي ، ولا سبب ما

قمتُ به. لا تفترض شيئًا عنّي» ، قال: «هل تريدين الزَّواج منه»؟ مدت عينيها إلى الأفق وقالت: «لا»!

قال سامي: «دعيني أوصلك لمنزلك قبل أن تخلو الطرقات؛ لا أود تكرار تجربة آخر مرّة ، ولا أريد أن أقع بيد الأمن مرّة أخرى».

مشيا قليلاً في الطرقات ، ثم حاول سامي أن يكسر حاجز الصمت: «كيف عرفتِ مكان إقامتي»؟ قالت: «لقد قلتَ لي عندما التقيتُ بكَ أوّل مرّة أنّك تسكن فندق البرّاق؛ فذهبت إليه وأخبروني بعنوانك الجديد». أومأ سامي ولم يقل شيئًا.

استمرّت خطواتهما تقرع الطريق. لملم سامي جرأته مجدّدًا ، جرأته التي كانت حاضرة دائمًا إلا أمامها ، بعد أن لملمها عاد سامي إلى السؤال: «سارة ، هل .. لا ترغبين في الزواج منه ، صحيح»؟

أخبرته سارة بكلّ شيء .. أخبرته بوضع أسرتها ، ودَيْن أبيها ، ويزيد ، وفيروز. قطَّب سامي حاجبيه و"كتّف" ساعديه وهو يستمع إليها. لم يقتنع بما قالت؛ ***لكنّها اتّخذت القرار ، أليس كذلك؟ ما عساي أن أفعل؟***

عندما انتهتْ وجد سامي نفسه يقول في تفهّمٍ لم يعتد عليه: «لا بد أنّكِ منزعجة من كل هذا». قالت: «أكثر ممّا تتصوّر». قال: «هل المبلغ كبير»؟ قالت: «نعم».

التفت سامي إلى الطريق الذي لم يزل فيه مارّة ، ثم عاود النظر إليها: «هناك حل ، لكنّي لا أظنُّ أنّكِ ستقتنعين به». قالت: «حسنًا .. وما هو»؟

(٢٠)

مشى سامي مع سارة نحو منزلها. شرح سامي كلَّ شيءٍ. أخبرها باختفاء والدته ، ومرض سلمى ، وبرسالة الحكيم الغريبة التي ظهرتْ على باب بيته .. وصف لها رحلته مع رمزي ومريم إلى الدرعية؛ ثم كيف وضعوا أمنياتهم في المحل الأثري القديم. أخبرها أنّهم استفاقوا في هذا العالم الغريب ، وكيف سيقوا إلى الوادي . أخبرها بالرسالة ، وشرح لها أنّ عليهم الذهاب إلى الجبلَ. وأخيرًا تحدّث عن والدته ، وعن حجرة الأسرار في المكتبة ، وكيف أنّ فيها كلّ الرسائل.

وبين الحين والآخر استرق نظرات إلى محيّاها .. ما تزال حُمرة وجنتيها ظاهرة تحت ضوء القمر.

عندما انتهى لم تقل سارة شيئًا؛ نظرتْ إلى الأرض تتأمّل ، وكأنّها تريد أن تتخذ موقفًا؛ قال سامي: «هذا العالم يا سارة ... عالمٌ افتراضي. سنبقى هنا لمدة بسيطة ، ولا توجد سوى ثلاثة احتمالات: إمّا أن نذهب إلى الجبل ، وإمّا سنموت هنا لسببٍ أو لآخر ، وإمّا سيسقط الوادي».

أكمل: «أعلم أنّي قد أبدو كالمجنون بالنّسبة لكِ ، لكن هذه الحقيقة. هل تريدين أن تعرفي ما الجنون؟ هذا الوادي هو الجنون.. الحياة هنا مؤقّتة .. أن تتزوّجي بأمير مؤقّت ، للحصول على مال مؤقّت ، كي تحافظي على بيتٍ مؤقّت ، في وادٍ مؤقّت ، في عمرٍ مؤقّت وتضيّعي فرصةَ تحقيق سعادتك الحقيقة بالذهاب إلى الجبل؛ هذا هو الجنون».

فتحت سارة فمها لترد عليه .. لكنه أكمل: «النّاس هنا يتسابقون إلى الاحتفال .. أعينهم إلى الأسفل .. ينظرون إلى ساحة الاحتفال ، في حين يرتفع الجبل من فوقهم ..» ، وأشار إلى

الجبل: «هذا ما يجب عليهم أن يضعوه نُصبَ أعينهم».

قالتْ سارة: «وكيف تريدني أن أصدّق كل هذا الجنون»؟! قال: «لو جلستِ مع رمزي ومريم؛ لأخبراك بالشيء نفسه؛ هل من المعقول أن يُجَنَّ ثلاثة أشخاص ويصدّقون الوهم نفسه ، في الوقت ذاته»؟ قالت: «صحيح ، ولكن هذا ليس ...» قاطعها: «والأنشودة .. ماذا عن الأنشودة؟ أنتِ تقولين أنّها أنشودة ألّفها أبوكِ ولا يعرفها أحد .. كيف عرفتُها إذن»؟ قالت: «سامي ، هذه الأمور غريبة بالفعل ، لكنّها لا تثبت لي وجود شخصٍ في الجبل ، أو أن هناك رسائل مخفيّة» ، قال: سامي: «حسنًا. هل تعرفين الأشامسة»؟

قالت: «القِصار . الأعداء» ، قال: «حسنا! سَلِي أيًّا منهم. هل سأتواطأ معهم أيضًا»؟ قالت: «يجب أن تحذر منهم سامي. هم الأعداء».

قال سامي: «حاولي» ، ثم بعد برهة قال: «تذكّري. كيف بدأ كل شيء؟ هل تذكرين طفولتك هنا؟ لقد كانتْ عندنا .. في عالمنا .. ليس هنا».

لم تقُل شيئًا وتأمّلت الجبل. ***هل نجحتْ في تذكيرها؟*** في تلك اللحظة تذكّر سامي أنّ هناك خبر مهمٌّ لم يقله: سيذهبُ إلى الجبل حالما يعود إلى مريم ورمزي .. سيترك الوادي وسيتركها.

في المقابل ، سكتتْ سارة تحاول أن تقنع نفسها بحديثه. شعرتْ أنَّ شيئًا ما في صندوقٍ مغلق في أعماق أعماقها يحاول الخروج .. يحاول أن يصل إلى وعيها دون نجاح. أكملتْ: «ما المطلوب إن اقتنعت»؟

قال: «ذكّري والديكِ وإن لم يقتنعا تذهبين معنا إلى الجبل» ، قالت: «ثم ماذا»؟ قال: «تعودين إلى حياتك الحقيقية

وقد تغيّر حالك إلى الأفضل».

لم تكن قد اقتنعت .. ولم يكن ذهنها صافيًا لمثل هذا. قبلت الزواج من أبله ، ورأت سامي في الليلة نفسها ، والآن يخبرها أن حياتها كلّها وهم.

اقتربَ الاثنان من مفترق الطرق ، قال سامي: «لقد اتّفقنا أنا ورمزي ومريم على الذهاب إلى الجبل الليلة لكنّي ...» ثم وجد نفسه يقول: «سأقنع رمزي ومريم بالانتظار يومًا إضافيًّا. سأنتظرك يا سارة .. لا أريد أن أتركك .. لنذهب سويًّا».

(٢١)

وقفَ الاثنان عند مفترق الطرق .. وجدتْ عينيه العسليتين تحيطان بها. لم تعرف ما تقول .. تدفّقت الدماء إلى وجنتيها ، وشعرت بحرارةٍ تتولّد في داخلها.

«سامي ، هذا نبلٌ منك .. لكن» ، دون أية مقدّمات ، انفجرتْ صورة موحشة كالبرق في مخيّلتها .. لا تعرف من أين أتتْ الصورة ، وهل كانتْ حقيقية أم لا .. لكنها كانت ستغزو أحلام سارة الليلة.

جاء صوت سامي من بعيد: «سارة ، هل أنتِ على ما يرام». قالت: «نعم أنا .. أنا بخير». قال: «أأنتِ متأكّدة»؟ قالت: «نعم».

فتح سامي فمه ليسأل مجدّدًا ، لكنّه أغلقه من جديد. قالت سارة وهي تنظر إلى الأثير: «لنلتقي غدًا في المكتبة .. أريد أن أتحدّث مع والدي؛ لأني حتى الآن لم أقتنع». قال سامي: «لا يمكن أن أطيل المكوث .. ماذا عن الظهر»؟ قالت: «مناسب .. مساءً سيأتي الأمير لخطبتي».

لم تُضف شيئًا إلى ذلك .. اكتفت بالنظر إليه نظرة أخيرة.

ودّعتهُ بعينيها ، لا أكثر. وكانت لغة العيون تكفي.

(٢٢)

عادت سارة إلى منزلها ، وأغلقت الباب.

(٢٣)

مشى وحيدًا في الطرقات عائدًا إلى شقّة رمزي ومريم .. ***غدًا خطِبتها.***

(٢٤)

لم يتخيّل سامي في عمره كلّه أنّه سيتعرّض للاغتيال .. هذه الأحداث تكون للمناضلين أمثال: الشيخ أحمد ياسين ، أو للجواسيس ، أمثال: جيمز بوند. أمّا أن يحاول أحدٌ قتل سامي: الموظّف البسيط من الشقّة ، رقم: (٤٢) ، عمارة الهُدَى ، حيّ المربّع؛ فلم يتوقّع حدوث هذا.

ثم يأتي السؤال الضروري والجوهري: لماذا؟ ***لماذا يريد هذا الملثّم قتلي؟ ما الذي فعلته لكي أستحق أن أُقتَل؟***

هذه هي الأسئلة التي عصفتْ بذهنه وهو يرى السكّين أمامه.

خلَتْ الطرقات من الناس بعد أن ذهبتْ سارة إلى منزلها. وهذا الزقاق المظلم تحديدًا كان ساكنًا من دون أيِّ صوت. حتّى الرياح سكنتْ. وكأنّ الوادي كلّه سكن ودخل منزله ليشاهد الحلقة الأخيرة من مسلسل: (سامي في بلاد العجائب)؛ (سامي في زقاق الموت)؛ (سامي يُقتَل ولا يعرف لماذا)!

ماذا كان سيحدث في المشهد؟ هل سيتعارك مع الرجل ويطرحه أرضًا ثم يقتله كما في أفلام هوليوود؟

لكنّها مجّرّد أفلام.

برغم هذا السكون الموحش إلا أنّ سامي كان ممتنًّا له. لولاه؛ لما استطاع أن يسمع خطوات الملثّم خلفه. لولا السكون ، لما استدار سامي. لولاه؛ لوجد نفسه مطعونًا من الخلف. ولولا ذلك لما استطاع أن يحمل اللوح الخشبي الذي كان على مقربةٍ منه ليدافع به عن نفسه.

كان سامي على بُعد دقيقتين بالكثير من منزل رمزي ومريم. ***لو كنتُ أستطيع الهروب إليهم ، لكن ...***

لكن الملثّم قد سدّ الطريق على سامي في الزقاق الجانبي. الجدار من خلف سامي والملثّم من أمامه.

ماذا الآن؟

لمْ يترك له الجاني فرصة الإجابة.

(٢٥)

استلقتْ سارة على سريرها وتحسّست فخذَها. وقد أخذها فكرُها إلى مكانٍ بعيد. هل كانت الصورة التي برقتْ في مخيّلتها حقيقية؟ هل كانَ حديثُ سامي سبب ظهورها ، أم هل كانتْ مصادفة؟ أغمضتْ عينيها. ***يستحيل. هذه الصورة تُصادم واقعي ، أم هل واقعي مجرّد خيال؟*** أغمضتْ عينيها جيّدًا.

كانت حجرتها تصغر شيئًا فشيئًا ، ثمّ حدث نفس الشيء لبيتها ثم لحيّها ثم للوادي بأكمله. رأتْ سارة كلّ شيءٍ يصير إلى ذرّة صغيرة .. تحوّلت الذرّة إلى بذرة مغروسة في أرضٍ قاحلة.

سمعتْ سارة رعدًا في السماء .. رفعتْ رأسها لترى المطر ينهمر وإذا بالبذرة تتحوّل إلى نبتة صغيرة في غاية الجمال. أخذتْ النبتة كلَّ انتباهها. هل كانت النبتة تلمع؟ أم هل كان هذا بريق

سحرها؟

وكأنّها انفصلتْ عن جسدها ، صارتْ سارة ترى المشهد من فوق .. رأتْ سارة نفسها تقف أما النبتة ، وتهتم بها .. تعتني بكل تفاصيلها حتى طالتْ النبتة وكبرتْ وزادت بريقًا. في حين بقيت سارة معلّقة في السّماء تشاهد نفسها.

سمعتْ صوت رعدٍ آخر .. رفعت رأسها إلى السماء مجدّدًا وإذا بالغيوم تنقشع وحيث ينبغي أن تكون الشمس كان هناك شيئًا آخر في السماء .. لم يكن وجه سامي .. لم يكن لما رأت أنف أو فم أو أذنان؛ بل كانت كلماته. وكأن كلماته الليلة تحوّلت إلى صورٍ مندمجة تشكّلتْ على هيئته .. رأت أنشودة أبيها في فمه ، ورأتْ مريم ورمزي في أذنيه ، رأتْ عينيه العسليّتين دون تغيير ، ورأتْ الرسالة التي تحدّث عنها. ***هل كانت صفراء اللون؟ وكيف لي أن أعرف لونها؟*** غلّفتِ الرسالة وجه سامي.

حاولتْ أن تعيد النظر وإذا بهذه الصور - وجه سامي - تختفي وتحلّ مكانها شمسٌ ساطعة.

أرسلتْ الشمس أشعّتها إلى الأرض .. أعادتْ سارةُ النظر إلى الأسفل حيث كانتْ .. رأتْ سارة نفسها قد شاختْ .. لكنّها لم تزل تعتني بالنّبتة التي غدت الآن مصفرّة .. هل كانت سارة تعتني بالنّبتة طوال عمرها؟ لا يمكن .. لم تمضِ سوى لحظات بين هطول المطر وشروق الشمس.

عاودتْ النّظر إلى النبتة وإذا بها صارتْ حُطامًا .. شعرتْ برعبٍ شديد يداهمها .. أحسّت بدقّاتِ قلبها تضربُ بكل قوّة ومع كلّ ضربة اهتزّتْ الأرض القاحلة حتى تطاير حطام النبتة مع الريح.

استمرّت الأرض في زلزالها حتى انشقّت الأرض من حيث

كانت النبتة .. لم تزلْ سارة معلّقة في السماء تشاهد نفسها عند موضع انشقاق الأرض .. نادتْ سارة نفسها تدعوها إلى الهرب. نظرتْ سارة إلى الشمس .. رأتها تنشقُ أيضًا عندما عاودت النظر إلى نفسها لترى إن هربتْ أم لا ، ولكن ..

لم تعد سارة الآن معلّقة في السّماء ، بل كانت الآن هي نفسها التي جلست عند النبتة ترعاها. كانت الآن قرب موضع انشقاق الأرض. حاولتْ أن تهرب ، لكنّها لم تستطع .. نظرت إلى نفسها وتبدّت أمامها تلك الصورة التي برقت في مخيّلتها قبل أن تودّع سامي تلك الليلة .. نفس الصورة التي أخافتها ، لكنّها كانت تجسّدها الآن. حاولت الهروب لكنّها لم تستطع. كانت تجلسُ على كرسي ولم تستطع الحركة. برغم محاولاتها الحثيثة ، إلا أنّ قدميها لم يستجيبا .. نظرت إلى الأسفل فإذا عن يمين ويسار الكرسي عجلات كبيرة. حاولتْ للمرّة العاشرة الوقوف دون فائدة.

زادت قوّة دقّات قلبها .. بالتوازي زادت قوّة الزلزال واتّسع الشق أكثر.

فجأة عادت سارة مرّة أخرى إلى السماء تنظر إلى الأسفل ، لكنّها كانت تجلس على ذات الكرسي ذي العجلات الدائرية الكبيرة وهي معلّقة في الفضاء .. شيئًا فشيئًا بدا رأسٌ مدبّبٌ يشق الأرض .. استمرّ الرأس بالارتفاع حتّى تبيّن لها أنّه جبل يخرج من الأرض! لم يكن أيَّ جبل. كان جبل الوادي العظيم.

استمرّ الجبل ينمو حتى عانق عنان السماء. نظرتْ إلى قمته التي باتت تقترب من الشمس شيئًا فشيئًا.

في لمح البصر؛ اختفى كلّ شيء. بقيتْ وحدها في ظلامٍ دامس. لا شيء سوى سارة ، والكرسي ، وقدميها اللتين لا تستجيبان!

الفصل الرابع عشر: الاغْتِيَال !

(١)

لم يتصوّر سامي أن يكون الدّم بهذا الدفء؛ لقد جُرِحَ كثيرًا وهو صغير ولم يلحظ هذا الأمر. ربّما لأنّها كانتْ مجرّد قطرات. أما أن يُصَبَّ الدمُ صبًّا فقد كان الأمرُ مختلفًا .. رأى سامي السائل الأحمر الدافء ينسابُ كالماء؛ ظنَّ أن الدم أثقل من ذلك ، أكثر لزوجةً ، ربّما كاللبن. لكنّه كان كالحليب يهدر.

(٢)

«أين ذهب»؟! كان رمزي قد قطع الصالة ذهابًا وإيابًا بضع عشرة مرّة ، قالتْ مريم: «دعه يتفاهم مع سارة». قال: «لكنّه تأخّر جدًّا. لو كان يريد إقناع إسرائيل أنّ يتراجعوا عن احتلال فلسطين لنجح».

أكمل مسيرته ذهابًا وإيابًا ، واستمرّتْ مريم تقرأ .. بعد لحظات قال: «سأخرج لأتأكّد». قالت مريم دون أن ترفع رأسها عن الكتاب: «حسنًا».

خرج رمزي إلى الطريق ولم يرَ سامي .. بل لم يرَ أحدًا. كان الطريق ساكنًا تمامًا. مشى قليلاً لعلّه يجد سامي وسارة في أحد الأزقّة الجانبية ، لكن ... ***سامي واد محترم ، لن يتعمّد الاختلاء بفتاة في زقاقٍ مظلم.***

استمرّ في المشي لدقيقة أو دقيقتين ، ثمّ قرَّر العودة. **يمكن**

وصّل البنت لبيتها .. قبل أن يستدير سمع حركة في زقاقٍ قريب.

(٣)

استند الملثّم على الجدار وقد أشهر سكّينه .. في الجهة المقابلة كان رجلٌ آخر يترنّح وقد وضع يده على رأسه .. ***لا؛ لم يكن رجلاً آخر. كان..*** «سامي»! نادى رمزي. ثمَّ أتبعه بـ: «هيه أنت»!

(٤)

التفتَ كلٌّ من سامي والملثّم وإذا به رمزي.

استغلَّ سامي التفات الملثّم واستجمع قواه - أو ما تبقَّى منها - وركله في وسط صدره. طار الملثّم إلى الخلف وارتطم رأسه بجدار حجري.

نادى رمزي مجدّدًا: «سامي»! ثم ركض إليه. نظر إلى الدم يسيل من سامي. التفتَ إلى الملثّم ، ثمّ عاود النظر إلى سامي ، ثمّ التفتَ مرّة أخرى إلى الملثم وركل وجهه.

قبل أن يتمكّن رمزي من فعلِ أيِّ شيءٍ آخر؛ ارتكز الملثم على ركبتيه ، ثم استند على الجدار ، وهرب.

الفصل الخامس عشر: اشْتَقْتُ لِلْحُلْم الصَّغِير

(١)

انطلقتْ سارة في الصباح الباكر متوجّهةً إلى القصر .. زاحمتها الأفكار كما زاحمها النّاس في الطرقات.

تصرّفَ أبي بشكل غريب .. حينًا أشعر أنّه تذكّر هذا الـ ... الحكيم؛ وفي أحيان ينظرُ إلي وكأنّي أهذي .. أمّي تنظر إلي كأنّني بلهاء .. ربّما أكون كذلك .. كيف أصدّق هذا الرجل الغريب؟!

استمرّتْ سارة تشقّ طريقها. تحسسّت فخذها ثمّ استدركتْ. ***حتّى لو كان الحلم كأنّه حقيقة. ولو...*** استمرّت تتحسّس فخذها. ***أنا أمشي وقدماي بأفضل حال. وهذا الـ(سامي) ، هل يظن أنّي سأترك كل شيءٍ من أجل عالمٍ آخرٍ افتراضي؟ من أجل كنزٍ في قلبِ جبل؟ كنز في ...*** ومن دون أية مقدّمات حدّثتها نفسها بأنشودة جاءتْ من الماضي السّحيق:

ها نحن ذا ... على دروب كنزنا ... نسير معًا وآمالنا ... تسير قبلنا.

حالما انتهتْ من آخر كلمة توقّفتْ تمامًا في وسط الطريق . ناداها رجلٌ كاد أن يرتطم بها: «انتبهي يا حمقاء».

وضعتْ يدها على فمها ، واتّسعتْ عيناها. ***من أين أعرفُ هذه الأنشودة؟ تحرّكتْ*** عيناها يمنةً ويسرةً؛ بحثًا في صفحات ذاكرتها. برقت صورتها على سريرٍ أبيض وفتياتٍ يجلسن حولها .. كانت إضاءة الحجرة شديدة البياض. لا ، لم يكن ضوء الشمس ولا ضوء

المصباح الزيتي الذي اعتادتْ عليه.

كانَ قماشًا أبيض ، يلفّ وركها إلى أخمص قدميها. لم تكن ملامح الفتيات واضحة لكنّهن لم يكنّ صديقاتها في الوادي ، هل كنَّ يزرنها؟ هل كانتْ مريضة؟ مصابة؟ ربما.

كنَّ جالسات يشاهدنَ صندوقًا على طاولة أمام سريرها. لكنّ الصندوق كان .. يضيء .. نعم .. كن يشاهدون صندوقًا مضيئًا .. بل كانَ الصندوق يُنشدُ هذه الكلمات .. وفيه صور متحرّكة .. تمتمت: ***وكنزنا في الجزيرة؟ جزيرة الكنز؟***

كلّما حاولت عصر ذاكرتها لتتذكّر المشهد أكثر زادت الصورة إبهامًا .. ***من أين جاءت هذه الأنشودة ؟ وكيف حفظتها؟*** كاد أن يرتطم بها شخصٌ آخر .. ***حيوان! إلى أين تذهب هاه؟ لم أنت متعجل؟!*** لم تقل ذلك. لكنّها اكتفتْ بابتسامة تجاهه ورفع يدها آسفةً.

قرّرت معاودة السّير في اتجاه القصر. ***أنتِ تختلقين الأحلام يا سارة ثم تصدّقينها ما بكِ! كل هذا لتذهبي وتهربي مع حبيبك سامي؟ همم!***

(٢)

شارف الصباح على الانتصاف؛ وازداد الجو حرارة .. برغم ذلك؛ سَرَى في جنبات القصر هواءٌ عليل ، خفّف من وطأة لهيب النّهار.

وقف الحارس عند باب مكتب الأمير معلنًا قدوم الزائرة.

مدّ الأمير كلتا يديه إلى الهواء مهلّلاً. أبرزتْ ابتسامته أسنانه البيضاء المصطفة بإتقان وذقنه المدبّب. ارتسم حاجباه بشكلٍ مثالي. لطالما شكّت سارة أنّه يحفّها. قال يزيد: «سيّدتي! ما

أجمل اليوم الذي أصبّح فيه على رؤيتك! أتطلّع إلى أعوام مديدة نصحو فيها سويًّا»!.

مقزّز! اكتفتْ سارة بانحناءة بسيطة: «مرحبًا سمو الأمير». قال: «كيف أصبحتِ اليوم يا سيّدتي»؟ قالت: «بخير ، وأتمنّى لكَ المثل». قال: «وما سرّ هذه الزيارة المفاجئة الجميلة السعيدة»؟

قطّبت سارة حاجبيها؛ ***ما سرُّ الزيارة؟ حسنًا يا يزيد: أود أن أعلم لو كان القصر يعرف عن شخصية أسطورية تعيشُ في الجبل .. وأود أن أسأل لو أنّكم أخفيتم رسائل سحرية في حجرة اسمها حجرة الأسرار.***

قطع الأمير تفكيرها ، قائلاً: «فهمت. فهمت ، اشتقتِ إليَّ ، هممم»؟

... إلا الحماقة أعيتْ من يداويها!

ولوهلة لفتَ انتباه سارة أنّها لا تذكر مصدر هذه المقولة أيضًا. ***هل أعرفها من عالمٍ آخر؟ أم هل هذه وسوسة؟***

قالت: «الحقيقة يا حضرة الأمير لقد ..». قاطعها: «لا. لا. لا. أرجوك. ناديني حبيبي يا حبيبتي». برغم أنّ سارة كانتْ تظنُّ أنها تجيد التمثيل ، إلا أنّها ابتسمتْ ابتسامة ربّما كانت أرخص ابتسامة شهدها الوادي! قالت: «لا ينبغي هذا يا حضرة الأمير ، نحن لم نتزوّج بعد». سكتَ الأمير للحظات ثم قال: «هممم. حسنًا حسنًا. كم أنتِ حكيمة يا حبي .. قصدي ، يا مولاتي». ***وع !***

غمز لسارة وأكمل: «ما رأيك أن تناديني باسمي: يزيد»؟ قالتْ: «هذا اقتراحٌ جميل يا حضرة الـ ... قصدي يا يزيد» ، قال: «هل تحبّين أن أناديك بمولاتي؟ أم سارة». «كما تحب».

سكتتْ سارة. ***ماذا أقول .. ماذا أقول؟***

قالتْ: «هل أخبرتك أنّي أحبُّ القراءة»؟ قال: «لا يا مولاتي». ***يا كذّابة! ليس لديك كتاب واحد في بيتك!*** أكملتْ: «نعم. وحقيقةً سمعتُ عن غرفة مليئة بالكتب المتميّزة هنا في مكتبة القصر».

قال: «أها ، تعنين القسم المحظور. بإمكاننا أن نذهب إليه سويًّا إن شئت .. لديّ المفتاح انظري». وأشار إلى حلقة فضيّة فيها مفاتيح على مكتبه.

قالتْ: «كم أنتَ ذكي يا حضرة الأمير .. قصدي يزيد .. في الحقيقة كنتُ قد سمعت أن فيها حجرة اسمها غرفة الأسرار». تعالتْ نبرة صوتها وهي تقول اسم الغرفة كما رفعتْ حاجبيها أيضًا. خرجتْ الجملة وكأنّها تسأل سؤالاً.

قال يزيد: «غرفة الأسرار .. لا أعلم عمَّ تتحد..» ، ثمّ برقتْ عيناه. حدّق في عينيها وأطال النّظر .. هل كشفها؟

قال: «أها .. غرفة الأسرار» ، وأطال مدّ حرف الألف. «نعم ، نعم .. تذكرتها .. ماذا تريدين من تلك الغرفة البالية»؟! قالتْ: « سمعتُ أنّ فيها كتبًا نادرة ، فأثار فضولي».

أشار إلى نفس حلقة المفاتيح وقال: «بإمكاني أن أريَكِ المكان؛ هل ترغبين في الذّهاب»؟ قالت: «أخشى أن تكونَ مشغولاً يا حضرة الأمير؛ بإمكاني الذهاب لوحدي إن شئتَ».

قال: «ولمَ لا أذهب؟ كيف أضيِّعُ فرصة إمضاء وقتٍ إضافيٍّ معكِ يا مولاتي»؟

جاء صوتٌ من عند الباب: «وأين تريدان الذّهاب في هذا الصباح»؟ أخذتْ سارة نفسًا عميقًا ثم التفتتْ بكامل جسدها.

(٣)

دخلتْ الأميرة فيروز المكتب تمشي ببطء. نادى يزيد مرحبًا: ‹‹أهلاً حضرة الأميرة أختي››!

قالتْ الأميرة فيروز بلا مبالاة: ‹‹أهلاً››. نظرتْ إلى سارة ، وأكملت: ‹‹أظنّ أنّنا اتفقنا أنّكِ لن تزوري القصر حتى الخطبة ، أليس كذلك››؟

قالتْ سارة: ‹‹بلى صحيح. أخذتني الحماسة و ...›› ، ثم خفضتْ عينيها وسكتت. نظرت سارة إلى يزيد ووجدته قد خفضَ نظره أيضًا وكأنّ أمًّا وقَعَتْ على طفليها وهما يشاغبان.

تغيرتْ نبرة الأميرة فيروز إلى نبرةٍ مرحّبة .. مرحبّة لكن مصطنعة: ‹‹حسنًا ، أيّتها الأميرة الصّغيرة ، دعينا نلبّي طلبك. أخبريني ، كيف يمكننا مساعدتك هممم››؟

قالتْ سارة: ‹‹لا داعٍ بإمك ...›› قاطعها يزيد: ‹‹كنتُ أريد أن أريها ...›› ، ***اسكتْ اسكتْ أيّها الأبله!*** ‹‹ ...غرفة الأسرار في المكتبة››.

أغمضتْ سارة عينيها وتنهّدت ، ثمّ عاودت النّظر إلى الأميرة. أخذتْ الأميرة تحوم حول الغرفة تتأمّل الموجودات فيها.

‹‹غرفة الأسرار؟ هممم ، ولمَ تريدين الذّهاب هناك››؟ فتحتْ فمها لتجيب ولكنّ يزيد سبقها: ‹‹لمطالعة الكتب هناك›› ، ثمّ اعتدل في وقفته: ‹‹زوجتي يا فيروز مثقّفة››! قالتْ الأميرة فيروز: ‹‹لكنّكِ كنتِ تتأمّلين المكتبة ذلك اليوم وكأنّك تدخلينها للمرّة الأولى››. ***الملعونة كشفتني!***

أكملت فيروز بتلذّذ: ‹‹ثمّ عن أية كتب تتحدّثون؟ ومَن قال إنّ في غرفة الأسرار كتبا؟ سمّيت بـ"غرفة الأسرار"؛ لأنّه لا ينبغي

لأحد الاطلاع على ما بداخلها .. بإمكانك الذهاب إلى القسم المحظور أيّتها الأميرة الصّغيرة .. أمّا الغرفة فلا كتب فيها» ، ثمّ توجّهتْ فيروز نحو الباب ، لكن قبل أن تخرج وجدت سارة نفسها تسأل: «مولاتي ، هل سمعتِ عن وجود شخص في الجبل»؟

لم تستطع سارة رؤية وجه الأميرة؛ إذ إنّها لم تلتفت ، لكنّها شعرتْ أنّ الأميرة تفاجأت. ولكن، ***لمَ تتفاجأ؟*** خُيِّل إلى سارة أن الأميرة وقفتْ لمدّة أطول مما ينبغي. التفتتْ الأميرة بوجهٍ خالٍ من الملامح تقريبًا. كان هناك هدوءًا ***مصطنعا ربّما؟*** قالت فيروز: «الجبل؟ أي جبل»؟ تفحّصت سارة وجه الأميرة. ***هل تتظاهر؟*** قالت: «الجبل الكبير في آخر الوادي .. سمعتُ أنّ في الجبل رجلاً» ، ابتسمتْ فيروز وقالتْ: «أها ، ثمّ ماذا»؟

"ثم ماذا؟" .. سؤال منطقي. بحثتْ سارة سريعًا عن إجابة. ***أبي علّمني ألا أكذب ، لكن ... آسفة يا أبي،*** قالتْ سارة: «ربّما يعرف عن مكان وجود الثّمرة» عضّت سارة على شفتها السّفلى.

قال يزيد: «لو كان يعرف مكانها لاستخرجها واستخدمها. ولعلم الجميع بذلك. ما بك يا سارة»؟ أومأت الأميرة إلى الأمير وقالت: «أخي معه حق» ، ثم التفتتْ إلى سارة: «دعي هذه الأمور . زواجك قريب .. وزيارتنا لبيتكم مساء اليوم» ، وخرجتْ.

مهما اقترب زواجها من الأمير ما تزال سارة في أعماق أعماقها تؤمن أنّه لن يحدث.

الفصل السادس عشر: القُفّاز

(١)

مشتْ فيروز بكل هدوء بين جنبات القصر ، متجّهةً إلى حجرتها. كلُّ حارسٍ مرّت عليه اعتدل في وقفته .. كل عامل في القصر؛ تجمّد في مكانه حالما رآها.

دخلتْ الحجرة وأوصدت الباب الخشبي من ورائها. ألقت نظرة على موجودات الغرفة: سرير؛ لوحات؛ دولاب ثيابها؛ صندوق مقتنياتها؛ مرآة ، صينية من فضّة ، و ...

صينية من فضّة. توجّهتْ نحوها. عليها رأت كأسًا وإبريقًا من فضّة. تأمّلتهما للحظات ثم بضربة واحدة هَوَت بيدها على الصينية؛ فتطايرت وما عليها حتى وقعتْ على الأرض. أطلقت الفضّة صوت طرقها على الأرض الحجرية مدويةً.

ما إن توقّف صوت الصينية؛ حتى تصاعد صوت شهيقها وزفيرها. كانتْ وحدها في الحجرة ولم يسمع هذا كلّه أحدٌ سواها.

كلمة واحدة فقط تسمرّت أمامها: كيف؟! "كيف" كان سؤال اللحظة؛ سؤال الساعة ، بل ربّما سؤال العمر. كيف لا وقد يهدد كلّ ما بنته؟ كيف لا وقد أوصدتْ جميع الأبواب.

طلبت من أحد الحرّاس أن يأتيها بجعفر.

وقفتْ الأميرة وتوجّهت إلى مكتبها ، فتحت الدرج الأوّل ثم أخرجت كل ما فيه بهدوء. في أسفل الدرج أمسكت فيروز اللوح الخشبي الذي ساوت مساحته ، مساحة الدرج؛ ثم رفعت اللوح

ونظرتْ إلى ما تحته. أخرجتْ ورقة خالية لم يكتب عليها شيءٌ وتوجّهتْ بها إلى النّافذة. وضعتْ الورقة عند أشعّة الشّمس وبعد لحظات بدأتْ حروفٌ تتشكّل.

(٢)

سمعت طَرْقًا عند الباب. «مولاتي» ، ثم انحنى جعفر انحناءة بسيطة. قالت: «أريد أن أعرف اسم وعنوان كل من يعرف...» الوضيعة. تلذّذتْ بقولها في مخيّلتها لكنّها اكتفت بقول: «سارة». أومأ جعفر. أكملت فيروز: «أريد أن أعرف كل من يعرفها ويتحدّث إليها. بل كل من ينظر إليها أيضًا»! أومأ جعفر برأسه: «مولاتي» ثم خرج.

(٣)

دخلتْ الأميرة على أبيها. ***الجميع سيخضع للتحقيق.*** كان أبوها يتصرّف بغرابة منذ مدّة. ربطتْ الأميرة التصرّفات الغريبة بلقاء الملك بتلك المرأة غريبة الأطوار في السّوق. ***ما اسمها؟ سناء؟ سميّة؟***

وجدتْ الوزير عند الملك. قالت: «مولاي الملك ، حضرة الوزير» ، ثمّ أومأتْ برأسها. بادلها الوزير أدهم الإيماءة دون كلام. وجدتْ ورقاتٍ على الطاولة يكتب فيها الوزير ما يريد ، ويجيب أبوها عليها.

قال الملك: «مرحبًا بُنيّتي» ، لم ينظر إليها. جلس على عرشه بجسده ، لكنّ عقله كان محلّقًا في مكانٍ بعيد. ***هل نجح في تذكّر الجبل ، أم لا يزال يحاول؟***

قالت: «أبي ، هل لا زلتَ تخطط للذهّاب»؟ أجاب: «نعم يا بُنيَّتي. يجب أن أسافر» ، قالتْ بحنان مصطنع: «.. وإلى أين»؟

إن قال الجبل ، فستعلم أنّ المصيبة قد حلّتْ. لم يقل أبوها شيئًا ، ظلّ يتأمّل الهواء من حوله دون كلام: «لا أدري».

قالتْ: «يا مولاي ، يا أبي ، يا حبيبي ، لا شيء سوى الفراغ يحفُّ بجنبات الوادي يمينًا ويسارًا ، والجبل من أمامنا والمرتفع الطويل من خلفنا. هل ستذهب إلى الغابة في الشمال؟ أم تسكن في السوق؟ هيّا. الليلة خِطبة ابنك. وغدًا الإعلان».

نظرتْ إلى الوزير أدهم - الذي كان مستشار الملك المؤتمن - من حُسن حظّ الأميرة أنّه نسي الجبل والحكيم تمامًا. وما زال معها يحاول إقناع الملك بأن يركّز في إدارة البلاد. ذهبتْ إلى أبيها وقبّلتْ رأسه: «دُمتَ لنا عزًّا وفخرًا».

التسريب ليس منه. يجب عليها احتواء الموقف. إن تذكّر الملك؛ فكل شيءٍ سيتغيّر.

(٤)

كانَ أوّل يوم عمل لرمزي؛ رضي صاحب المحل بتوظيفه مباشرةً ووجد نفسه مساعدًا لأشرف السّكّري صاحب المخبز. لم يكن المحل كبيرًا. ربّما أربعة أمتار في أربعة. كان الفرن في الخلف ، في حين عُرِضت المخبوزات على أرفف مختلفة الأحجام .. كان المكان مكتظًّا بالمخبوزات وبالزبائن أيضًا.

تفكّر رمزي: ***مسكين سامي؛ كان حاله سيِّئًا لكن ليس بالغ السوء.***

لحسنِ حظهم أنّ الجيران ساعدوهم وجلبوا الطبيب. كانت ليلة طويلة جدًّا. وكان النقاش مع مريم أصعب. ***لكن لا حجّة لها. لن نستطيع الذهاب بسبب إصابة سامي. ولا ضَيْر أن أشغل نفسي حتى يستصح ، وحالما يقوم ... حالما يقوم سيحلُّها ألفُ حلاَّل.***

(٥)

عندما انتصف النّهار وخفّ الزّحام؛ أخرج أشرف السّكري طاولة وكرسيين ووضعهما في الزّقاق عند مدخل المحل. جلس كلٌّ من رمزي وأشرف السّكري ، يشربان الشّاي بعد يومٍ متعب. قال رمزي: «كيف استطعتَ أن تدير المحل وحدك»؟ غمز أشرف وقال: «عمالة ممنوعة». أخذ رشفة من الشاي ثمّ أكمل: «ابن أختي لا يحبُّ المدرسة؛ واكتشفتُ أنّه كان يهرب منها؛ وأنا أحتاج إلى مساعد؛ فاتّفقت معه ألا أخبر والدته إن رضي أن يساعدني»!

ابتسم رمزي ، قائلاً: «وأين هو الآن»؟ أجاب: «لقد أوقعت بنا أختي يوم أمس. فلك أن تتخيّل مدى سروري برؤيتك هذا الصّباح»! ثم وضع يده على ظهر رمزي. كان أشرف كبير السّن ، كان شاربه وحاجباه البيضاوان كثيفين جدًّا؛ كأنّه بابانويل دون اللحية الطويلة.

أخذ رمزي نَفَسًا؛ وتأمّل المحلات من حوله. كانت كلّها مفتوحة ومكتظّة عدا واحدا مغلقا عليه لوحة كُتبَ عليها: «أبو الغلا للسكريّات والحلا». وبجواره تمامًا محلٌّ آخر اسمه: «حلويات هالة». تناول رمزي رشفة من الشّاي ، ثم سأل: «هل كان أبو الغلا للسكريات بهذا السوء»؟ قال أشرف: «لا؛ لا حلوى؛ تعلو حلويات أبو الغلا».

«لماذا أغلق المحل إذن»؟ أخذ أشرف رشفة شاي ثم أطرق رأسه قليلاً قبل أن يقول: «الهدف من أي تجارة هو أن تضع بضاعة: تبيعها لتستغني بأثمانها .. لكن ... دعني أسألك: ما الشرط الأساسي لينجح التاجر هنا»؟ قال رمزي: «هناك شروط كثيرة للنجاح» ، قال أشرف: «الشرط الأساسي هو ألا تهفو نفس التاجر إلى تلك الأطباق ، ولا يسيل لعابه عليها وألا يشتهيها كلما نظر إليها» ، قال رمزي: «تقصد أن أبا الغلا ماذا؟ كان يأكل ما

يبيع»؟! قال أشرف: «إلى حدٍّ ما؛ كانت نفسه تهفو إلى الحلوى، ويتذوّق منها بين كل حين وآخر. يفطر منها، ويتغدّى منها، ويتعشّى منها. باختصار: فقد الشرط الأساسي؛ تحوَّلت قناعة بيع الحلوى من وسيلة للتجارة إلى غاية: الاستغناء بثمنها. لا أن تصير غايةً في حدٍّ ذاتها فيشتهيها ويصبو إليها؛ انقلبت الأولويات لدى أبي الغلا ولم يعد يبيع ما يكفي لتغطية تكاليفه. ولم يعد ينظر إلى المحل بعين الحاكم عليها المدير لها .. صار هو تابع للحلوى. وانفرطت السبحة»!

هزّ رمزي رأسه .. أكمل أشرف: «لا ينجح التاجر؛ حتى يرى البضاعة على أنّها بضاعة فقط. لابد أن يجتثها ومغرياتها من قلبه. إن استطاع فؤاده ألا يقع أسيرًا لبضاعته فسيتحرر لتحقيق غايته». مرَّ طفلٌ صغيرٌ بهم ودخل المخبز، قام أشرف وقال: «هيّا .. زبونٌ آخر».

الفصل السابع عشر: سارَة تبحث !

(١)

عندما انتصف النهار ، ذهبتْ سارة إلى المكتبة؛ حيث اتّفقتْ أن تلتقي بسامي. ***ما لي ذاهبة إلى المكتبة لمقابلة شاب مجنون؟***

لكنّه لم يكن مجنونًا .. كان يتحدّث عن أمور لامستْ شيئًا ما في داخلها. وتلك الصورة التي برقتْ لم تكن من وحي خيالها. ***لكن لا يمكن أن تكون حقيقية أيضًا!***

وصلت المكتبة في الموعد المحدّد وانتظرتْه عند قسم التاريخ كما اتّفقا. أخرجتْ بعض الكتب وحاولت قراءتها ، لكنّها لم تستطع. كانت تترقّب مجيئَه في أي لحظة. كلّما سمعتْ صوتًا رفعتْ رأسها لتنظر ما إذا كان سامي.

انتظرت مدّة طويلة ولم يأتِ. جاءها أحد موظّفي المكتبة: «هل بإمكاني مساعدتك»؟ قالت: «لا شكرًا».

لا يمكن أن أنتظر هنا طوال اليوم. يجب أن أتجهّز للخِطبة.

بدأ الضجر يضرب سارة. سألتْ نفسها: ***هل أخطأت بمجيئي؟*** ثم سألتْ نفسها سؤالاً أهم: ***هل ذهب إلى الجبل وتركني؟ أم ... هل حدث له مكروه؟***

(٢)

كانت ليلة سوداء. صارعت الفراش؛ كي تُبعِد أحداث تلك الليلة عن مخيّلتها: ضحكات الأمير يزيد الكريهة؛ ونظرات الأميرة

فيروز التي كان ملؤها الازدراء؛ صورتها وهي تحمل صينية الشاي إلى خطيبها.

أدّتْ المهمّة .. الآن يستطيع والداها العيش بمأمنٍ من أية قروض وفوائد ربوية .. بمأمنٍ من أيٍّ تهديد .. لكن ماذا عن سارة؟

وماذا عنّي؟ أديتُ واجبي. وانتهى الأمر. ثمّ ماذا؟

الفصل الثامن عشر: المَلِك

(١)

أطال الملك الجلوس في كرسيّه - كما هي عادته في الآونة الأخيرة - جلس غارقًا في هواجسه ، لا يدير البلاد.

فوّض كل شيء إلى فيروز ويزيد. كان يعلم أن فيروز ، هي التي تسلمت مقاليد الحكم وتقود الوادي. أما ابنه ، فقد كان ...*معتوهًا. واجهةٌ جميلة فقط. ارتحنا منه يوم أمس وخطبنا له من يريد. لعلّه يهدأ..*

نظر إلى رفيق دربه الوزير "أدهم" .. لم يتغيّر مع مرور الزّمن كما لم يتغيّر الملك نفسه. أحيانًا يكون الثبات أمرًا مرغوبًا ، لكن في الحالة هذه؛ كانَ أمرًا مريبًا. شيءٌ ما في داخله كان موقنًا أنّ كلَّ شيء يتغير مع الزمن .. ينضج .. يكبر .. يشيخ .. لكن الشعرات البيض على ذقنه ، هي هي. التجاعيد ، هي هي.

تلوح في مخيّلته صورٌ غير مألوفة. تناديه. يشتاق إلى ... لا يعلم ، لكنّه يشتاق وكفى. يشتاق ويشعر بالذنب. ربّما. لكن لمَ؟ ما الذي فعله. تلمّس الملك سلسلة في رقبته تخفي قرشًا ذهبيًّا صغيرًا. لا يتذكّر من أين جاء بالحلقة الذهبية هذه .. تقول ابنته أنّها هديّةً منها ، لكنه لا يذكر أنّها أهدته إياها.

يمدُّ الوزير ورقةً إليه ويقرؤها: «إعلان خطبة الأمير بعد قليل». أخيرًا سيتزوّج ابنه الرقيع .. ***هل ينبغي أن أشعر بشفقة تجاه تلك الفتاة الصغيرة؟ بالطبع لا. تلك الفتاة تعرف ما تريد .. تريد***

المال والقصر والخدم والهيبة .. مسكينة تظنُّ أنّ شيئًا كهذا سيسعدها .. لا سعادة بدون الثّمرة.

قطع جعفر تفكيره وقال: «مولاي الملك. الحفل سيبدأ عمّا قريب» ، اكتفى الملك بالنّظر إلى وزيره ومستشاره .. وقف الاثنان وتوجّها إلى الساحة.

(٢)

كان القمر مضيئًا. امتلأت ساحة الاحتفال بالجماهير. سمع الملك الأبواق تنادي من خلف ستار الشّرفة المطلّة على السّاحة. ***احتفالان في بضعة أيّام ، لا بد أنّهم سعداء.*** شعر الملك بفخر؛ فقد أنجز الكثير ، استتبَّ الأمان ، واستقرّت البلاد إداريًّا ، وها هم يحتفلون فَرِحِين.

لكن ، لمَ لمْ يشعر بالسعادة؟ خالطه شعورٌ آخر. أقرب وصف استطاع الوصول إليه هو أنّ هذه الإنجازات كلّها زائفة ، مزوّرة ، غير حقيقية .. وأعاد السؤال نفسه مجدّدًا: لماذا كان يشعر بكل هذا؟

دخل الملك الذي قوبل بعاصفةٍ من التصفيق. حيّا الحاضرين تحيّة سريعة ثم جلس في كرسيّه.

وقف الأمير يزيد ليعلن عن خطبته من "الأميرة" سارة.

خرجت الأميرة الجديدة من خلف السّتار ، ووقفت بجانب الأمير .. تفكّر الملك: ***لا شك أنّها ستفرح بهذا اللقب ريثما تكتشف زيفه .. الألقاب للحمقى أمّا العظماء فلا يحتاجون لغير أسمائهم.***

(٣)

ختم الأميرُ حديثَه للجماهير: «أدعوكم إلى النّوم مبكّرًا إذ

أنّنا لن نحتفل الليلة»، سكتَت الجموع تترقّب، ثمّ أكمل الأمير: «ناموا جيّدًا فغدًا سنحتفل. سنحتفل احتفالاً لم ولن يشهد الوادي مثله». قوبل إعلان الأمير بعاصفة من التّصفيق.

في المقابل، فعل الملك أمرًا لم يفعله منذ مدّة: ابتسم. ***أبله ... لكنّه يجُيد الخطابة.***

عندما هدأت الجماهير، توقّف الأمير والأميرة الجديدة عن التلويح إلى الجماهير وعادوا وقبّلوا كتف الملك .. قامت الأميرة فيروز وصافحت أخاها ثم التفتتْ إلى الأميرة الجديدة وحضنتها.

جلس الملك يتأمّل هذا المشهد ويده على السلسلة يتلمّسها دون أن ينتبه.

وقف واستدار؛ ليعود إلى القصر لكنّه سمع أصوات همسات. لم تكن الهمسات من داخل الشرفة. كانت أصوات الهمسات تأتي من الجماهير. تعالت الهمسات حتّى صارت تمتمات، ثم تحوّلت التمتمات إلى شهقات.

استدار الملك وتوجه إلى طرف الشّرفة وأطلّ على السّاحة.

رأى رجلاً غريبًا في السّاحة يجرُّ قطعة كبيرة من قماشٍ أبيض .. كُتِبَ عليها شيء بالأخضر. لم يستطع الملك قراءة ما كُتِب. دخل خمسة حرّاس إلى السّاحة يركضون. عاود الملك النظر إلى الجملة المكتوبة. حنى رأسه إلى اليمين حتّى تمكّن من القراءة، حرّك شفتيه وهو يقرأ الحروف:

اذهبوا إلى الجبل . الوادي وهم

ظلّ رأس الملك منحنيًّا للحظات ولم تتغيّر ملامحه في حين ارتفعت أصوات اللغط من بين الجماهير المتفرّجة. رأى الملك

علامات الحيرة على محيّا ابنه ، والنيران المشتعلة في عيني ابنته ، والدهشة تعلو ملامح الأميرة سارة.

(٤)

وقف رمزي فاغر الفم ، ومريم رافعة الحاجبين في أعلى المدرّج يشاهدان الحدث أمامهما. دون أن تلتفتْ قالت مريم: «هذا ليس جزءًا من الحفل».

ركض الرجل الغريب من فوهة الملعب ، وقفز إلى المدرّجات. بدأتْ الجماهير تفسح له المجال ، وبقي بعضهم يتأمّل اللوحة التي فرشها الرجل.

وهو يصعد المدرجات هاربًا قال رمزي: «المجنون .. إنّه يقترب منّا». ثم على بُعد بضعة أمتار منهما خرج الرجل من بين المدرّجات.

تلفّت بحثًا عن مخرج حتّى وقعتْ عيناه عليهما .. اتّسعتْ عيناه وتعقّد حاجباه.

توقف للحظات يعاود النظر إليهما من بُعد ، ثم أكمل عَدوَه. لم يتمكّن الحرس من اللحاق به أو معرفة هُويّته ، لكن قبل أن يهرب عرف رمزي ومريم تمامًا مَن يكون.

نظر رمزي إلى زوجته فاغر الفم ، ثم قال: «مستحيل»! قالت مريم: «ظننته ذهب إلى الجبل ...أو قُتِل ربّما».

(٥)

انتهى الحفلُ ، وبقيت الطرقات مزدحمة. قال رمزي: «علينا استغلال الزحام للعودة إلى المنزل. «محنا نائصين فلأة تانية ، وراي شُغل» ، قالتْ مريم: «رمزي»! قال: «عندما يتعافى سامي

وتقرران الذهاب وقتها نتحدّث».

سكتت مريم برغم رغبتها في جداله لكنّ رمزي عاد مجددا وقال: «قال لي أشرف السّكري إنّه بنفسه وجد الثّمرة عند النهر الغربي الجاري قبل أن تقع من يده وتختفي ثم..» قالت: «يا رمزي كفى .. كفاك ...». ولأوّل مرّة يصرخ رمزي في وجه زوجته: «أنتِ كفى! أنا لم أضرّ أحدًا. أنا حرّ ما دام أنّي لم أعرّض حياتي أو حياتكم لضرر ببحثي عن الثمرة. إن لم تريدي الذهاب إلى المنزل؛ فسأذهب وحدي! مع السلامة»! ثم مشى دون أن يلتفت .. وقفت مريم مصدومة للحظات .. ***لقد جُنّ الرجل!***

مشت مريم خلف رمزي بصمت وأعادتْ ما قاله رمزي في ذهنها: «أنا حر ما دام أنّي لم أعرّض حياتي لضرر ببحثي عن الثمرة» تفكّرتْ: ***على أي أساس يفهم معنى كلمة "ضرر"؟! يعرّض رمزي حياته الحقيقية في الرياض إلى التهلكة ولا يعده ضررًا! بل حريّة شخصية؟! وأيُّ ضرر أكبر من هذا؟!***

عضّت على شفتها واسترجعت ما قرأته ليلة أمس: ***لم يَضع أهل الوادي إلا لأن قلّة تجرّأت بالبحث عن الثمرة علنًا حتّى تقبّل النّاس هذه الفكرة وصار يمارسها عدد أكبر ... صارتْ عادة .. وتقبّلهم للخطأ جعل زوجي يستسهلها.***

تذكّرت كلمة سمعتها في "الراديو": الإنسان كائن اجتماعي، يتأثّر بما يرى، ويسمع؛ وبمجرّد أن يمارس المرءُ الفعل الخاطئ في العلن؛ فإنه يتحوّل مباشرةً من أمرٍ شخصي إلى قضية مجتمع.

الفصل التّاسع عشر: حَفْلَةٌ في الشقّة

(١)

دخلت مريم الشقّة ووجدت سامي مستلقيًا على "الكنبة". كان زوجها قد وصل قبلها بلحظات ودخل غرفة النوم. قالت بذهنٍ مشتّت: «كيف حالك الآن يا سامي»؟ قال: «أفضل بكثير .. بإمكاننا الذهاب إن أردتما» ، قالت مريم: «لا تبدو بصحّة جيّدة. هل أنت متأكّد»؟ أومأ سامي برأسه.

كانت مريم تعلم أنه يضغط على نفسه. ***يحتاج إلى راحة ليوم آخر على الأقل***، قال سامي: «فلنذهب» ، تنهّدت مريم ، وقالت بصوتٍ منخفض: «لن يكون الأمر بهذه السهولة». قال سامي وقد خفض صوته أيضًا: «لِمَ»؟ تنهّدت مجدّدًا. قال سامي: «رمزي»؟ قالت مريم: «رمزي».

في هذه الشقّة الصغيرة ، كان سامي يسمع كلّ ما يدور بينهما ، وكان على علمٍ بموقف رمزي ومريم.

قال سامي محاولاً تغيير الموضوع: «دعيني أسألك: ماذا تتوقّعين أن نجد في الجبل»؟ نظرت مريم إلى الأرض تتفكّر: «الحكيم ربّما»؟ قال سامي: «هل تعتقدين أنّه سيحقّق أمنيتك»؟ قالت: «أتمنّى ذلك .. لم أترك الرياض وآتي إلى وادٍ معلّق في السّماء لأتسلّى»! قهقه سامي. نظر من حوله ، ثم أتبع: «كيف لكلٍّ هذا أن يكون حقيقة»؟ سكتت مريم وأومأت برأسها.

قال: «يعني ... رسائل سحرية ، جبل في السماء. سفينة

طائرة .. زمن يمر بغير انتظام» ثم اعتدل في جلسته وأكمل: «أعني ... ليقوم بكل هذا ، الحكيم بحاجة إلى قدرات خارقة. ألا ينتابك فضول؟ من يكون»؟ قبل أن تجيبه سمعوا صوت طرق الباب.

(٢)

بينما كان رمزي يدخل قام سامي ببطء وفتح الباب. وقف رمزي ومريم خلفه مترقّبين. خرج الصوت المألوف: «جميعًا مرحبًا»! قال سامي: «مرحبًا فؤاد. تفضّل». جلس الأربعة في الصّالة. قال فؤاد: «كل ليلة ، إلى الجبل نتفق الذهاب ، ولا نذهب».

لم يكد فؤاد يجلس حتى سمع الأربعة صوت الباب يُطرق من جديد؛ نظروا إلى بعضهم البعض في حيرة .. جاء صوتٌ من خلف الباب: «سامي؟ مرام؟ رمزي؟ هل أنتم موجودون»؟ عندما سمعت الصوت ارتخت مريم ، وقامتْ ، وفتحت الباب: «مرحبًا سارة. واسمي مريم لا مرام».

قالت سارة: «أ ...أهلاً مريم .. عذرًا .. عذرًا أتيت من دون موعد». ابتسمتْ مريم وقالت: «تفضّلي».

قالتْ سارة: «ظننتُ أنّكم رحلتم .. كنت قد واعدت سامي عند المكتبة لكنّه ...» ، ثمّ رأت رأسه المعصوب. «ما الذي جرى لك»؟! قبل أن يجيب رأتْ فؤادًا فأشارتْ إليه ، وقالت: «ما الذي يفعله هنا»؟! قال رمزي: «هل تعرفينه»؟ قالتْ: «لا؛ ولا ينبغي أن نحتك بالأشامسة أو نتحدث معهم».

وقف سامي: «أعتذر منكِ يا سارة؛ حاول أحدهم قتلي ، و..» ، «قتلك؟! ولمَ يريد أحدٌ فعل ذلك»؟ سألت بحاجبين مرفوعين.

أخـذتْ مـريم يـدَّ سـارة وجلسـت معهـا علـى "كنبـة" منفصـلة. ألقـتْ سـارة نظـرة أخـرى علـى فـؤاد وهـي تجلـس ، قـال رمـزي: «لا بأس .. فؤاد كائن أليف .. لن يعضّك» ، ثم التفت رمـزي إلى فـؤاد وقـال: «فـؤاد ، يسـعدني أن أعرّفـك علـى الآنسـة .. قصـدي الأمـيرة سـارة». ثم التفت إلى سارة وقال: «مولاتي هذا فؤاد».

وقـف فـؤاد وقـال: «الأمـيرة أنـتِ! زوجـة يزيـد الأمـير»! ، ثمّ تغيّـرتْ ملامـح وجهـه واعتـدل في جلسـته. نظـر سـامي إليـه مقطّـب الحـاجبين .. *ما به؟*

جلسـت سـارة ، وأخبرهـا سـامي بمـا حـدث لـه. عنـدما انتـهى قالتْ: «ولكن ، لمَ يريدون قتلكم؟ مـن المسـتفيد»؟ قالـت مـريم: «لا داعٍ إلى ذلك. فتّش عن المستفيد .. المستفيد هو من يريد قتلنا».

قالـتْ سـارة: «وهـذا الرجـل الـذي كـان في السـاحة .. هـل تعرفونـه»؟ قالـت مـريم: «نعـم. اسمـه أيّـوب .. كـان معنـا منـذ وصلنـا».

قال سامي: «هل تصدّقينني الآن يا سارة»؟ لم تُجبه سـارة ، لكنّهـا تنهّـدتْ ولسـان حالهـا يقـول: لا خيـار لـدي سـوى تصـديقك. أكمل سامي: «الآن صرنا خمسة نشـهد بـالأمر نفسـه .. أنـا ورمـزي ومريم وأيوب وفؤاد .. هل ما زلتِ تعتقدين أن حياة الـوادي حقيقيـة أبدية»؟

حملقـت سـارة إلى الأسـفل وكأنّهـا تشـاهد شـيئًا لا يـراه أحـد سـواها ، قالـتْ بصـوتٍ خافت: «رأيـتُ صـورًا في منـامي .. لا أملـكُ سببًا منطقيًّا .. لكن .. صورًا من الماضي . صورًا مـن .. مـن مـاضٍ آخـر خـارج الـوادي . صـورًا حقيقيـة . صـورًا لي وأنـا مُقعـدة علـى كرسيٍّ متحـرّك لا أستطيع تحريك قدمَيَّ . لم تكن إصـابة مؤقتـة ، بل كانت حالة دائمة» ، ثم استمرّتْ تنظر إلى الأثير.

قال رمزي: «هل يعني ذلك أنّكِ صرتِ تستطيعين المشي مذ أتيتِ إلى هنا»؟ قالتْ سارة دون أن تلتفتْ: «أعتقد ذلك» ، أكمل رمزي: «هل استخدمتِ الثّمرة؟ هل وجدتيها»؟ نظرت إليه متعجبة: «لا» قال سامي: «إن جئتِ معنا إلى الجبل ، وكان مرادك أن تستعيدي عافيتك فستنالين ذلك إذا عُدّتِ إلى الدنيا».

قالت سارة مستدركة: «لقد سألت الأميرة فيروز والأمير يزيد عن الجبل وعن حجرة اسمها حجرة الأسرار» ، ثم حكت لهم ما دار بينها وبين فيروز. عندما انتهت دنتْ مريم: «وهل تعتقدين أنّهم يعلمون عن الجبل؟! لأنّهم إن كانوا يعلمون فهذا يعني أنّهم يريدون إخفاء الحقيقة .. وإن كان الأمر كذلك فلا شك أنّهم هم من يأمرون بالقتل».

تنهّدتْ سارة: «أمّا الأمير يزيد؛ فلا أعتقد أنّه يعلم شيئًا. لكن فيروز ... عندما سألتها عن الجبل تجمّدتْ في مكانها .. سكتت ، وأطالت السكوت. أعتقد أنها حاولتْ إنهاء النقاش بشكل سريع. وهي عادةً ما تتلذذ بإظهار صحّة كلامها. لكن هذه المرّة استعجلتْ» أعقبتْ بعدها: «دخلتْ مكتب يزيد ، وعندما علمتْ بالموضوع حاولت إنهاء النقاش ، وخرجتْ بسرعة دون أن تطيل .. لم يأخذ دقيقتين .. خروجها السريع كان غريبًا».

قالتْ مريم: «كل المؤشّرات تقول أنّها تعلم» ، قال سامي: «والملك»؟ قالتْ مريم: «أكيد ، فهو المستفيد الأكبر» قالت سارة: «لا أظن يا مريم .. رأيتُ وجهه في الساحة .. كان الخوف والحيرة يملآن محيّاه .. بل كان مصعوقًا! يزيد لم يكن يعلم ما يحدث .. أمّا الأميرة فرأيتها .. كانتْ غاضبة».

قالتْ مريم: «وما الحل الآن؟ نجازف ونخرج الآن إلى الجبل»؟ قال رمزي: «ماذا عن هؤلاء الذين يحاولون قتلنا .. إن كانتْ الأميرة فيروز تحاول قتلنا بالسّر فإنّ مسرحية أيّوب ستكون

غطاءً لها لترسل جيوشًا .. لا بد أن نكون حذرين ، وأقترح أن نبقى هنا قبل أن نفعل أيَّ شيءٍ فيه تهوّر» ، قالت مريم ممتعضة: «رمزي ، أنت تريد أن تبقى حتى تستمر في البحث عن الثمرة».

قبل أن يجيب رمزي قالت سارة: «لا يمكن أن أذهب الآن وأترك والديّ .. يجب أن أحاول مجدّدًا .. ربّما لو استطعتُ دخول غرفة الأسرار وأخرجتُ لهما رسالتيهما لاستطعتُ أن أريهما دليلاً ملموسًا لعلّهما يتذكّران».

ثمّ قالتْ – وكأنّها للتو تتذكّر – : «سامي ألا تملك هذه "الرسالة"»؟! قال: «نعم» أكملت: «حسنًا! لمَ لم ترِنِي إياها لتثبت لي دعواك منذ البداية»؟! قال: «لو أريتك الرسالة منذ اليوم الأول – وأنتِ لا تعرفينني ولا تصدّقين هذه الحقيقة – لظننتِ أنّها خدعة بصرية» ، تداخلتْ مريم: «للأمانة ظننتُها خدعة بصرية أيضًا قبل أن أطير إلى وادٍ معلّق في السّماء»!

قالتْ سارة: «حسنًا بعد أن حاولت إقناعي أوّل مرّة ، لِمَ لمْ تُرني الرسالة بعدها»؟ قال سامي: «رأيتكِ ليلاً ، والرسالة لا تظهر حروفها إلا إذا اخترقتها أشعّة الشّمس» ، ثم وقف قائلاً: «سآتيكِ بالرّسالة الآن» ثم ذهب إلى غرفته.

قالتْ مريم بهدوء: «اسمعي يا سارة ، كلّما جلسنا هنا تناسينا الجبل» ، عاد سامي وبيده الرسالة ، ثم أكملتْ مريم: «أخبرنِي – سامي – هل لازلتَ ترى الجبل بوضوحٍ كما كنت تراه في أوّل يوم»؟ هزّ سامي رأسه نافيًا: «لم أعد أكترث له كالأوّل ، وإن نظرتُ نحوه شعرت بوجود ضباب كثيف حوله».

قالتْ مريم: «سنذهب الليلة يا سارة؛ لا يمكن أن ننتظر». ردّت سارة: «ولا يمكنني ترك والدَيَّ» ، أجابتها: «الجميع مسؤول عن نفسه يا سارة. لمَ تحرمين نفسك الشفاء»؟ كادتْ أن ترد عليها سارة لولا أن سمعوا صوت طرق على الباب للمرّة الثّالثة في

تلك الليلة. نظر رمزي إلى الأعلى وضحك: ‹‹إيه المسخرة دي››! ثم قام وقال: ‹‹سأفتح الباب›› خيّم الصمت على الصالة. استمعوا إلى صوت صرير الباب بترقّب ، ثمّ إلى صوت رمزي يقول: ‹‹أنت››؟!

(٣)

استقبلت الشهقات الرجل الذي دخل الغرفة .. نظر إليه سامي. *لم يتغيّر، هو هو ..* ابتسامة أوحتْ بأنّه مطمئن اطمئنانا تاما لكل ما حدث ويحدث أو سيحدث. قام سامي وضمّ الرّجل: ‹‹كيف أنتَ يا أيّوب››؟ اتّسعتْ ابتسامته: ‹‹أهلاً سامي›› ، ثمّ التفتَ إلى مريم وأومأ برأسه: ‹‹مريم››.

قام فؤاد وصافحه: ‹‹فؤاد اسمي›› ، ‹‹مرحبًا››. قال سامي: ‹‹أعرّفكَ بسارة›› ، قال رمزي: ‹‹الأميرة سارة››. صاحَبَت ارتفاعَ حاجبَي أيوب الدقيقين ابتسامةٌ رسمتْ خطوط تجاعيد إضافية عند عينيه. أومأ برأسه: ‹‹أهلاً بالأميرة›› ، قال رمزي: ‹‹اجلس .. اجلس››.

ارتصَّ فؤاد وسامي ورمزي على "كنبة" ، وجلست مريم وسارة على "الكنبة" الأخرى ، في حين جلس أيّوب على الكرسي الفردي وحده. سأل رمزي: ‹‹كيف وجدتنا››؟ قال أيّوب: ‹‹تفاجأتُ عندما رأيتكم عند السّاحة .. كانت مفاجأةً سارّة أنّني رأيت وجوهًا مألوفة ، ومفاجأة غير سارّة أنكم لازلتم هنا›› ، ثم التفتَ إلى مريم: ‹‹بعدما تخفّيتُ أخذتُ أرقبكم حتّى وصلتم إلى هنا››. ثم أضاف: ‹‹ظننتكم ستتوجّهون إلى الجبل›› ، قال سامي: ‹‹توقّعتُ أن تكون أنت أول الواصلين .. ما الذي حدث››؟

الفصل العشرون: مَقَابِرْ بَارْبَار

(١)

انسابتْ سيّارة من نوع كورولّا على "أسفلت" شارع البديع المستوي. برغم رطوبة جَو البحرين ، إلا أن السيارة كانت شديدة البرودة من الداخل.

أقلّت السّيارة ثلاثة أشخاص: أب وابنين. كان أبوهما يستمع إلى موجز الأخبار كما هي عادته عندما يعيد ابنيه من المدرسة جلس الأخوان في الكرسي الخلفي يتسامران.

تعدّتْ السّيارة مركز الدفاع المدني عن يمينهم ثمّ مجمّع (حدائق النّاصر). امتلأتْ واجهة المجمّع بالمحلّات: مطاعم ، مقاه ، بقّالات ، مركز رعاية أولية ، مؤسسة لصناعة الأرضيات الأسمنتية.

تأمّل عمر أسماء المحلات حتى قرأ: (صبر أيّوب للمشاوي). نادى أخاه الأصغر: «هناك مطعم عن يميننا اسمه على اسمك يا أيّوب».

ابتسم أيّوب الشريف دون أن يلتفتَ ، وقال: «صِفه لي عمر» ، قال أخوه بحماسة: «المطعم صغير. لوحته بيضاء. ومكتوب: (صبر أيّوب) بالأزرق. هل تذكر اللون الأزرق»؟ قال أيّوب: «نعم . لون البحر». إلا أنّ أيوب لم يرَ البحر من قبل.

كان إذا سُئل أيّوب عن اللون الأزرق؛ سمع أمواج البحر ، وإذا سئل عن اللون البنّي؛ أحسّ بحبيبات الرّمل تتسرّب من بين

أصابعه ، وإذا سُئل عن اللون الأصفر؛ أحسّ بدفء أشعّة الشّمس.

أمّا اللون الأبيض؛ فكان سيّد الألوان. كان يسمع كثيرًا أنّ قلب أمّه كان أبيض. ولذلك كلّما سئل عن اللون الأبيض سمع صوتًا دافئًا يأتيه من بعيد. صوت أمّه الذي لم يسمعه سوى صغيرًا.

أكمل عمر: «ويوجد رجل سمين جدًّا - مثل أبي - يأخذ الطلبات». نادى أبوهم دون أن يلتفت: «هيه». كركر الأخوان ، وارتسمتْ ابتسامة على محيّا أبيهما دون أن يراها أحدٌ.

(٢)

وصلوا المنزل. نزل أبوهم ليفتح صندوق السيّارة الخلفي ، وخرج عمر أوّلاً ثم ساعد أخاه على النزول من السيارة. مدّ أبوهما العصا وناولها لأيّوب ثم ناوله حقيبته. تحسّس أيّوب الطريق أمامه بعصاه ، في حين ركض عمر إلى الداخل ، مشى أبوهما خلف أيّوب حتّى دخلوا المنزل جميعًا.

(٣)

عندما يكبر الإخوة تبقى المحبّة كما هي: محبّة عارمة يشعر بها الطرفان تجاه بعضهما البعض. إلا أن قشرة رقيقة من القسوة تكسو تلك المحبة ، فتتوارى المحبة خلف الضحكات ، والسخرية ، والتنافس ، فالإخوة لا يفصحون عن مشاعرهم بلغة منطوقة. بل تبقى تلك المشاعر معلّقة تنتظر سياقًا خاصًّا ومبرّرًا جيّدًا لتنزل وتكسر هذه القشرة وتفيض المشاعر دون مواراة.

(٤)

عمر الآن في الصفّ الثالث الثانوي؛ وأخوه في الثّاني الثانوي. جلس أيّوب في "الفسحة" وحيدًا .. عادةً ما يكون مع صديقه أرشد

الذي كان غائبًا اليوم.

يعتقد النّاس أنّ الأعمى لا يعرف ما يحدث أمامه لأنّه لا يرى.. النّاس يخطئون كثيرًا.

وقف أمام أيّوب المتنمّرون الثلاثة: يوسف وبندر وإبراهيم. تقدّم شقيّهم يوسف وأخذ يلوّح بكفّه أمام وجه أيّوب دون أن يلمسه. سمع أيّوب كركرتهم المكتومة .. بعد إحدى عشرة سنة في المدرسة اعتاد أيّوب على التنمّر ، والسّخرية ، والاستهزاء. والاعتياد لا يعني التقبّل.

كان دائمًا ما يسمع أنّه شُجاع؛ لأنّه يصارع الحياة وهو أعمى. ***لستُ شجاعًا ، لم يكن لدي خيارًا.***

استمرّت كركرة الأولاد أمامه للحظات ، قبل أن يسمع صوت شيءٍ يرتطم بيوسف. شعر بجسد يوسف يلامس قدميه ثم سمع أخاه من فوق يوسف يقول: «يا حيوان»! بعدها انضمّ إلى صوت أخيه أصواتٌ أخرى ، وأدرك أيّوب أن عمر لم يأتِ وحده.

(٥)

وجد أيّوب لنفسه وظيفة محترمة في قسم خدمة العملاء في شركة "داداباي" في حين التحق أخوه بالسلك العسكري.

كان أيّوب يشقُّ طريقه إلى العمل كل صباح وحده: يمشي بصحبة عصاه في الجانب السكني من مدينة الرفاع الشّرقي ، ثم يدلفُ إلى الجانب التجاري منه ، حتى يصل أخيرًا إلى محطة الحافلات. كان يعرف كل حَجَرة ملقاة على الطريق ، وكلّ رصيفٍ مكسور ، وكل تقاطع .. يُلقي أيّوب تحيّته على من يعرفهم في المحلّات ، ويبادلونه التحية.

اعتاد أيّوب أن يصل إلى منزلٍ خالٍ في الساعة السادسة

مساءَ كل يوم .. يغيّر ثيابه ، ويعدّ الشاي لنفسه وحيدا ، ويجلس يستمع إلى التلفاز حتّى يأتي عمر في ساعة متأخّرة.

أمّا الليلة؛ فقد اضطُرّ أيّوب أن يتأخّر.

وصلت الحافلة إلى محطّة الرّفاع الشّرقي في الساعة الحادية عشرة مساءً. أمسك حقيبته بيساره وعصاه بيمينه ثم نزل من الحافلة. تحسّس المحطّة من حوله ثمّ توجّه إلى منزله بكل ميكانيكية.

لم يستقبله لغط الشارع وصوت الباعة كما اعتاد. وصل إلى المنطقة السكنية التي كانتْ خالية في تلك السّاعة أيضًا. هنا ، استقبله صوت حفيف الأشجار. تفكّر أيّوب: ***على الأقل سأصل وأجد عمر في ...***

قبل أن يُكمل فكرته ، تعثّر أيّوب بقدمٍ مدّها أحدهم وقع على إثر ذلك أرضًا. ارتطمت ركبتاه بالأرض أولاً ثم كوعه ثانيًا. صرخ أيّوب بعد أن سرتْ شرارة ألم في جسده.

سمع أيّوب هسهسة خطواتٍ من حوله. ***شخصان؟ لا ... ثلاثة.*** جاء الصوت الأوّل: «هيّا يا رعد ، أسرعٍ» كانت أنثى.

ارتكز أيّوب على راحة يديه ثم وقف: «من هناك»؟! نادى أيّوب بصوتٍ مرتفع. لعلّ أحدًا يسمعه. أحسّ باقترابِ شخص من أمامه ثم سمع الصوت الثاني ، يقول: «اهدأ يا صديقي الكفيف» كان صوت الرجل خاليًا من الرحمة.

أخذ أيّوب يلوّح بعصاه في الهواء ، لكنّ أحدًا لمسه من الخلف. سمع صوت كركرة الرجل الثالث. استدار أيّوب ولوّح بعصاه من جديد. قالتْ المرأة وقد اتّضح أنّها كانت من تقودهم: «كفاك عبثًا يا يزيد؛ هيّا خذ ما عنده ولنذهب قبل أن يرانا أحد».

قال يزيد: «هيه يا فيروز ، أنتِ تسرقين المتعة من كلّ شيء» ، وقال رعد: «حسنًا حسنًا. هيّا بنا». وقبل أن يتمكّن أيّوب من فعل أيّ شيء ، قام رعد "بتكتيفه" من الخلف .. جرّت فيروز العصا من يد أيّوب في حين اقترب يزيد الذي قال: «والآن؛ أرجو ألا تقاوم .. سأضع يدي هنا لنرى ماذا تخبّئ». أحسّ أيّوب بيد يزيد تقترب من جيبه ، لكن قبل أن تلمسه استند أيّوب بظهره على رعد وركل يزيد.

شعر أيّوب ببريق من الأمل .. ربّما لو دفع رعدًا أكثر حتى يرتطم بجدار لاستطاع الانفكاك ، ثم بعدها.. قبل أن تكتمل تخيّلاته ضربته فيروز بعصاه على رأسه ، وضغط رعد حتّى شعر أيّوب أن كتفه ستنخلع.

سمع أيّوب صوت يزيد يقترب من جديد: «حاولنا أن نكون طيّبين أما الآن فعليـ..» شيءٌ ما ارتطم بيزيد. أرخى رعد مسكته بأيّوب ، ثمّ دفعه أرضًا. وكما هو الحال مع يزيد ، سمع أيّوب صوت ضربة تهوي على رعد ، ثم صوت وقوعه وارتطامه بشيءٍ قاسٍ .. هل كانت حجرة؟ صخرة؟ جدار؟ طرف الرصيف؟ لم يعلم أيّوب ما الذي حدث تحديدًا لكنّ صوت الارتطام صاحبه صوت شيءٍ ينكسر. نادتْ فيروز: «ابتعد عنّي» إلا أنّ مصيرها لم يكن مختلفًا عن صاحبيها ، وسمعها تقع على الأرض.

«هل أنتَ على ما يرام»؟ جاء صوتُ عمر بهدوء ، قال أيّوب: «نعم بخير» في حين أعانه عمر على الوقوف.

سمع أيوب صوتَ فيروز: «حبيبي .. رعد .. قم» ثم بعد برهة صرختْ: «ماذا فعلتم»؟! لم يقل عمر شيئًا. مرّت بضع ثوانٍ ثم سمع أيّوب صوت صرخة مكتومة. سأل أيّوب: «ما الذي حدث»؟ استمرّ عمر في صمته؛ وكان ذلك الصمتُ مقلقًا.

نادى يزيد: «لقد ، قتلتَ ابنَ عمّي»! في تلك اللحظة سمع

الجميع دويَّ سيارة تقف أمامهم ، ثم صوت رجلٍ يتحدّث من خلال مكبّر: «قف مكانك»!

(٦)

بعد ساعاتٍ من الحدث أشرقت الشمس على أيّوب الذي جلس وحيدًا في منزله. لم تُعِر الشرطة اهتمامًا لحقيقة أنّ الثلاثة كانوا يحاولون سرقته ، ولم تهتم بأنّهم ضربوه وآذوه .. مهما حاول عمر أن يشرح لهم ، ما رأى من الشرطة سوى جريمة قتل. وشهادة فيروز ويزيد المكذوبة دفعتهم لإلقاء القبض على عمر على ذمّة التحقيق .. أمّا فيروز ويزيد فقد أخذوهما شاهدين.

سأل أيّوب نفسه: ***ماذا أصنع؟*** ثم استنكر: ***ماذا أصنع؟! وما يمكنني صنعه وأنا كفيفٌ بلا فائدة؟!*** غُصّ أيّوب بتلك المشاعر واعتصر قلبه. ***لو كان أبي على قيد الحياة .. لو كانت أمّي ...*** لكنّه لم يُكمل الفكرة وغرق في حسرته.

لم يعتد أيّوب على البكاء. علّمه أخوه ألا يُظهر ضعفه لأحد. لكن أيّوب في تلك الليلة كان وحيدًا. ذرفتْ عينه الكفيفة دمعة دافئة ، انسابتْ على خدّه سمع أيّوب صوت الباب يفتح لكنّه لم يقل شيئًا ، نادى الرجل: «أيّوب! أيّوب! أين أنت». «عمر»؟! دخل عمر على أيوب وقال ثلاث كلمات: «علينا أن نذهب».

(٧)

في شقّة مفروشة في منطقة الجفير ، جلس الأخوان يرتشفان الشايَ بصمتٍ. اهتزّتْ يد عمر التي كانت تمسك الكوب فجمع يده اليسرى إلى اليمنى. قال عمر: «كانوا سيضعونني في سيّارة الشرطي الذي وصل أوّل ما حصلتْ الـ ...» سكتْ. وما عساه أن يقول؟ أوّل ما حصلتْ الجريمة؟ لم تكن جريمة .. كان حادثًا غير متعمّدٍ. أكمل عمر: «لكنّ شرطيًّا آخر جاء من خلفي. وأكاد أقسم

أنّه لم يكن أحدٌ هناك من قبل» ، قال أيّوب: «ماذا تعني»؟ أجاب عمر: «أعني أنّي لم أرَ أحدًا في الجهة التي أتى منها الشرطي الغريب ابتداءً. لكنّي أدرتُ رأسي ، وإذا بصوته يأتي من ذات المكان الخالي».

قال أيّوب: «ربّما مع لغط الحدث لم تنتبه». أطرق عمر رأسه ولسان حاله يقول: لا يُمكن. إلا أنّه سكتَ قليلاً ، ثم قال: «ربّما».

أكمل عمر: «جاء الشرطي الغريب وقال للأوّل أنّه سيأخذني معه إلى مركز الشرطة. وافق الأوّل ، وأدخلوني في سيّارته. نظر إليَّ من خلال مرآة السيارة الأمامية وبادلتهُ النظرة .. أكاد أقسم أنّه كان يبتسم .. كانَ ملتحيًا وقمحي اللون يميل إلى السُّمْرَة. ومع سُّمْرَته رأيتُ ندبة أكثر اسمرارًا على خدّه الأيمن». ارتشفَ عمر من الشاي ، ثم أكمل: «فجأةً أوقف السيّارة على جانب الطريق ، ونزل ، وفكّ القيود من يدي» قال أيّوب: «نعم»؟! قال عمر: «أقسم لك! بعد أن فكّ القيود أعطاني رسالة ثمّ تركني وذهب».

(٨)

جلس الجميع يستمعون إلى قصّة أيوب دون تعليق. أخبرهم أنَّ أخاه خرج في يومٍ من الأيّام ثم اختفى بعد ذلك؛ في حين ظلّ أيّوب يبحث عنه دون جدوى: «مرّتْ السنون وأنا أبحث حتّى فقدت الأمل. أخذتني رحلة البحث إلى مكانٍ مظلمٍ .. كنتُ أعيش وحيدًا. وبرغم أنّي لا أرى إلا أني- ولأوّل مرّة منذ ولادتي- شعرتُ أنّي أعيش في ظلام .. وفي ليلة يأسٍ ناديتُ لا أدري مَن: دلّني وإلا ما فائدة الحياة من دون أخي؟! سمعتُ صوتًا عند الباب.

ناديتُ لم أسمع إجابة. توجّهتُ إلى الباب وإذا بمظروف قد وصل من تحت الباب .. حَوَتْ الرسالة رموزًا بارزة بطريقة برايل.

كان فحواها مشابه جداً لرسالة أخي. أمرتني أن أذهب إلى مقابر باربار؛ لألتقي بالحكيم ثم ...» ، قال سامي: «ثم ماذا»؟ابتسمَ أيّوب: «ثمّ التقيتُ بكم» اتّسعتْ ابتسامته: «رأيتكم بعينَيَّ».

(٩)

«أدركتُ أنَّ هذا المكان مختلف؛ أنّه حقيقي. أن تبصر بعد أن تكون كفيفًا ...» ضاعتْ الكلمات ، ولم يستطع أيّوب وصف تلك المشاعر: «جُبْتُ طرقات الوادي باحثًا عن أخي» ، قال سامي: «وما يدريك أنّه في الوادي»؟ قال أيّوب: «بعد أن قرأتُ الرسالة تبيّن لي أنّه لو وصل إلى الجبل لعاد إلى البحرين. هكذا كنتُ أفكّر» ، ثمّ أكمل أيّوب قصّته: «بعد يومين من البحث ، وإذ كنتُ عند طريقٍ مزدحم التقيتُ ببدر وأخبرني أنّه سيذهب إلى الجبل مباشرةً. أخبرته أنّي أريد البقاء للبحث عن أخي. حاول أن يثنيني لكنّي لم أرغب .. وفي وسط الزحام ... رأيته» ، قالت مريم: «عمر»؟! قال أيّوب: «نعم؛ لكنّه لم يعرفني. اخترقتُ طريقي بين المارّة متوجّهًا إلى أخي وأضعتُ بدرًا .. لكنّني لم أكن أفكِّر فيه. وجدتُ أخي أخيرًا بعد كل هذه السنين».

سأل سامي: «هل عرفك»؟ هزّ أيّوب رأسه نافيًا ثم قال: «لم يعرفني .. حاولتُ مرارًا وتكرارًا تذكيره لكنّ الوادي تعاظم في نفسه .. صارَ بناء المنزل ، والبحث عن الثمرة ، وجمع الآرامات غايته هنا». سكتَ أيّوب قليلاً ثم أكمل: «بدلاً من أن يكون الوادي وسيلة إلى غاية .. صار غاية بحد ذاته».

لم ينتبه أحد لكنّ رمزي في تلك اللحظة اعتدل في جلسته. على وقع كلمات أيّوب ذهب فكره به بعيدًا. ذهب إلى أشرف السّكري وحديثه عن محل أبي الغلا للحلوى .. الرجل الذي أكل الحلوى بدلاً من بيعها.

أكمل أيّوب: «قلتُ في نفسي: غفلة عمر جزء من غفلة محيطه. إن صحا المجتمع من سُباته سيصحو هو .. فكانتْ محاوَلَتي الليلة في السّاحة آخر محاولاتي» ، اعتدل في جلسته ثم قال: «لكن لا يمكنني أن أبقى هنا أكثر». خيّم الصمت عليهم.

قال رمزي: «لكنّ والدة سامي تذكّرتْه» ، قال أيّوب: «هل والدتك هنا»؟! أجابه سامي: «كانتْ هنا ثم ذهبت. أظن أنّها ذهبت» ، قال أيّوب: «وهل تذكّرتك فعلاً»؟ قال سامي: «نعم» ، قالتْ مريم: «والدة سامي لم تبق هنا سوى أشهر قليلة من أشهرنا. ما يعادل ربّما بضعة سنوات هنا. أمّا أخوك يا أيّوب فقد بقي ما يعادل سنوات في عالمنا وربّما قرونًا هنا». ثم تلتْ: «ولا تغرّنك السنون في الوادي فإنّها في دنياك أيام». التفت سامي إلى سارة ، وقال: «سارة ، علينا الذهاب حالاً». أضافت مريم: «رامبو يحتاج إلى الغد ، ثمّ سنتحرّك؛ عليك أن تستريح». قالت سارة: «رامبو»؟

قالت مريم: «دعكِ من هذا. ما عليكِ معرفته أننا سنمشي غدًا صباحًا حالما تمتلئ الطرقات»؛ لديكِ محاولة أخيرة مع والديك. لا يمكننا البقاء هنا» وقفت وقالت: «سأعود الآن قبل أن تخلو الطّرقات» ، قال فؤاد: «الذهاب على فؤاد أيضًا».

الفصل الواحد والعشرون: المُوَاجَهَة

(١)

هل فعلها الأشامسة الأوغاد؟

لا؛ يستحيل. لقد أخبر الأشامسة الأميرة فيروز بكل زائرٍ جديد وصل إلى الوادي منذ أن طلبت منهم ذلك. ***قبل كم سنة كان ذلك؟ قبل كم عقد؟*** حاولتْ الأميرة أن تتذكّر. ***لا يهمّ منذ متى.***

توجّهتْ مع جعفر وعشرة من الحرس الموثوقين إلى مقرّ المتمرّدين. كانت محظوظة جدًّا بجعفر .. ***الملعون عينه ثاقبة يرى كلَّ شيء*** .. لم تتوقّع أن يرجع جعفر بسرعة بعد أن أمرته بمراقبة سارة. عاد وأخبرها عن المتمرّدين. ***بدون شك سأجد "مجنون الساحة" بمعيّتهم.***

ثم نزل عليها نفس السؤال من جديد: ***هل فعلها الأشامسة الأوغاد؟***

لقد أخبرها الأشامسة بقدوم كل زائرٍ ، كلّ مهاجر ، كلّ حالم. فعلتْ الأميرة كل ما ينبغي فعله كي يبقى كل من جاء إلى الوادي. ***ولمَ لا يبقون؟*** لقد وفّر القصر -بإيعاز من الأميرة فيروز- كل ما يحتاجه شعبها .. كل ما يريدونه .. وكل ما تحتاجه الأميرة فيروز لتبقى في الحُكم.

أخذتْ تعضُّ بأسنانها حتى شعرتْ أنّها ستتكسّر. ***الوضيعة ورفقتها! لن تهدم ما بنيته منذ أوّل عهدي بالوادي.***

(٢)

في الماضي البعيد ، استقبلهم الأشامسة بود وترحيب. كان هاجس البشر البحث عن الثمرة. في بداية انتشارهم ذهب من ذهب إلى الجبل وبقيتْ مجموعة. وصل أبوها قبلها .. وكان من الذين بقوا في الوادي.

مجموعة كبيرة من الذين مكثوا في الوادي مازالوا يتذكرون الجبل لكنهم سُحروا بالثمرة والتنقيب عنها. لم تحارب الأميرة فكرة الجبل أو الحكيم ابتداءً .. لو فعلتْ ذلك لانقلبَ الناس عليها. لذلك دعتْ إلى جمع الرسائل "للحفاظ عليها تحسّبًا من مشاغبة الأشامسة". وضعت الرسائل في القصر ابتداءً وسمحتْ للناس بقراءتها متى ما أرادوا.

ثمّ ضيّقت الوقت المسموح للقراءة شيئًا فشيئًا. لم تسمح بقراءة الرسائل في الظهر؛ "فالظهر كان وقت العمل"؛ ثم منع القصر استقبال الزائرين قبل المغرب نظرًا لأن "تكلفة حراسة وإدارة غرفة الرسائل مرتفعة"؛ بعدها صارت الزيارات مسموحة في نهاية الأسبوع فقط ، وشيئًا فشيئًا قلّ الزوّار حتّى لم يعد يأتِ أحد.

بعدها ، مُنِع الإنكار على من يدعو إلى البقاء في الوادي والبحث عن الثمرة ، من باب: "احترام الحريات الشخصية". وصار الحديث عن الجبل أو الحكيم من القضايا: "الإيمانية الخاصة" التي لا ينبغي لها أن تظهر على السطح؛ ولا ينبغي أن تؤثّر في إدارة الوادي.

كانتْ مرحلة محاربة الحديث عن الجبل أو الحكيم مرحلة حرجة لكن في غاية الأهمّية؛ فإن اعتقد الناس أن الحياة في الوادي هي البداية والنهاية ولا شيء قبلها أو بعدها؛ فستصير

معاييرهم لتحديد أمثل الطرق لإدارة المجتمع تختلف تمامًا عمّا لو كانوا ينظرون إلى الوادي كمرحلة مؤقتة ، كجسر ، للوصول إلى حياة أخرى أكثر أهمّية .. بهذا التغيير صارتْ الأولوية -شيئًا فشيئًا- تميل لصالح حياة الوادي بدلاً من الحياة الحقيقية.

كان المنعُ من الحديث وحده غير كافٍ ، أمرتْ الأميرة بالمساعدة في توسّع محلات بيع معدّات التنقيب عن الثمرة. كان أبوها الملك يؤمن بالثّمرة ، وكان حريصًا على إيجادها. كثّفت صحيفة "الوادي اليوم" حديثها عن حُلم إيجاد الثمرة بإيعاز من الأميرة. حاولتْ قدر المستطاع أن تجعل الناس يعتقدون أن الغاية من وجودهم في الوادي هي البحث عن الثمرة ، بدلاً من الذهاب إلى الجبل .. صارتْ الصحيفة سلاحها؛ تنشر أخبارًا عن أدلّة وهمية تقرّب الناس إلى الثمرة.

بالإضافة إلى ذلك ، قامت الصحيفة بالاستهزاء بأيّ رجلٍ أو امرأة تتحدّث عن حياة خارج الوادي وتصمه بالتخلف والرجعية. كانتْ الأميرة تؤمن تمام الإيمان بأن أسهل طريقة لإبعاد النّاس عن فكرةٍ ما لا يكون عن طريق إثبات أنّها فكرة خاطئة ، بل الاستهزاء بمن يروّج لها .. الناس يخافون من السخرية أكثر من خوفهم من أن يكونوا مخطئين.

وبعد كل هذا؟ كانوا يمجّدونها .. كيف لا ، وقد وفّرت كل شيء. "أميرة الشّعب"؛ هكذا كانت تلقّب. لم تكن الأميرة فيروز كبقية الناس. لم تكن تهمّها الثمرة ، كان كل همّها بقاءها في القصر: أميرة مطاعة. كل ما تتمنّاه وجدته في الوادي. أمّا الحياة "الحقيقية" كما يسمّونها ، فذلك ***ماضٍ أسود***.

تعاونتْ فيروز مع الأشامسة وأخبروها بكلّ من يأتي إلى الوادي ، وكانت تتعامل مع كل زائر جديد على انفراد وبطرق مختلفة ، ودائمًا تنجح في أن تنسيهم الجبل .. ***بالمطرقة أو بالحلوى***

.. لكلٍّ دواء.

(٣)

الآن تقف الأميرة أمام مبنى المنشقّين ، المخرّبين ، الخارجين عن القانون. ركل الحرس الباب ودخلوا دون استئذان في حين انتظرت الأميرة بمعيّة جعفر.

تفكّرت الأميرة بأنّ عليها إنهاء هذا الأمر بهدوء دون أن يعلم أبوها أو أخوها. بعد لحظات جاء أحد الحرَس: «الطريق مؤمّن يا سيّدتي». دخلتْ الأميرة ورأتْ ثلاثة رجال وامرأة جاثمين على ركبهم مكبّلين.

تفحّصتهم الأميرة: امرأة منمّشة الوجه ، ورجل طويل ذو أذنين كبيرتين ، وثالث ذو أنف بارز يحدّق فيها بحنق ، ورابعٌ... ***هذا هو المجنون الذي ركضٍ في السّاحة. لِمَ يبدو مألوفًا؟ ولِمَ ... ولِمَ يبتسم؟!*** ثمّ قرّرتْ: ***لا يهمّ الآن.***

أشار جعفر إلى اثنين من الحرس وقال: «تفحّصوا المكان» ثم التفتَ إلى ثلاثة آخرين وأكمل: «وأنتم أحيطوا بالمكان وأمّنوا المخارج كلّها».

وقفتْ الأميرة فيروز تتأمّلهم: تكفي قلّة قليلة لإحداث تغيير كبير .. تغيير يقلب ملامح مجتمع .. ***تُرى ما حجم البلبلة التي أحدثوها؟*** قالت الأميرة: «زعزعة الأمن وشرخ وحدة الوادي .. لماذا»؟ تأمّلت الشقّة المهترئة: «لأجل إيمانيّات؟ دروشة؟ زهد»؟ لم يقولوا شيئًا .. نظرتْ إليهم وهي تخطو أمامهم.

قالتْ ذات الوجه المنمّش: «لقد غيّرتم ملامح وأولويات الناس ، وأضعتم مصلحتهم بمجرّد أن سمحتم بالإعلانات عن البحث عن الثمرة.. بمجرّد أن أبرزتم في جريدتكم القدوات

الخاطئة: الناس الذين يبحثون عن الثمرة».

قالتِ الأميرة بهدوء: «نحن نعطي أولوية للحريّات الشّخصية .. لست إلهًا يا صاحبة الوجه المرقّش». قالتْ مريم بدون تردد: «الحريّات الشخصية تُقيّد إن أضرّت بمصلحة المجتمع» ، قالتْ الأميرة: «مصلحة المجتمع؟ ومن يحدّدها؟ أنتم»؟ أجابتها مريم بحزم: «يحدّدها الذي أتى بنا إلى هنا».

لم تُجب الأميرة والتفتت إلى المتبسّم صاحب الوجه المألوف: «أخبرني: بعدما فعلتَ فَعلتك في السّاحة ، ما الذي كنت تؤمل أن يحدث بالضبط»؟ قال الرجل: «كنتُ أذكّركم بالجبل الذي نسيتموه يا سيّدتي» ، قالت فيروز: «آه ، نعم الجبل» ، ثم تفحّص الرجل فيروز ، وقال: «هل ..» اتّسعتْ عيناه ، وقال: «أنتِ تتذكّرين»؟! أضاف رمزي: «تتذكّرين وستقتلينا كما قتلتِ البقيّة»!

قالت الأميرة: «لا أعرف عمَّ تتحدّثون»؛ ثم ابتسمتْ وأكملت: «لستُ متوحّشة» التفتتْ إلى جعفر: «لا تأخذهم إلى السجن الرئيس ، خذهم إلى معتقل القصر في الساحة الخلفية .. وتأكّد ألا يراك أحدٌ». لا يُمكن أن تضعهم الآن في السجن الرئيس. الظروف لا تسمح بالدخول مع مدحت في مهاترات.

(٤)

من بعيد ، وقف فؤاد وسارة ينظران إلى الأميرة تقود سامي ورمزي ومريم وأيّوب مكبّلين.

الفصل الثاني والعشرون: غُرْفَةُ الأَسْرَار

(١)

لم يتوقّع سامي أن تكون ساحة القصر الخلفية بهذا الحجم. دهليز من الأروقة المشجّرة والمياه الجارية استقبلتهم. أخيرًا وجد سامي نفسه عند مبنى صغير من طابق أرضيٍّ واحد.

دخلوا من الباب الوحيد ووجدوا مكتبًا أمامهم وبضعة كراسي ، وعن اليمين ثلاث زنزانات. في كلّ واحدة أربعة أسِرّة. سيقوا إلى واحدة منها بصمت. لم يكن هذا المكان هو نفسه المعتقل في قبو القصر الذي زُجَّ فيه سامي في أول ليلة وصلها إلى الوادي ، كان المكان في زاوية بعيدة داخل أسوار القصر.

جاءوا أولاً بأحد موظفي القصر ، حيث رسم صورهم على مجموعة من الأوراق ، ثمّ قبل أن يودعوا سامي ورفاقه في الزنزانة أخذ أحد الحرس على عاتقه تفتيشهم وأخذ كل مقتنياتهم: الآرامات ، الأدينات ، وأهم من هذا كلّه أخذ الرسّائل ووضعها داخل المكتب الوحيد في السجن.

عندما طلعت الشمس لم يبقَ معهم سوى ثلاثة حرّاس أحدهم كان للتوّ قد عاد وبيده اليمنى وجبة الإفطار وبيده الأخرى صحيفة "الوادي اليوم". عنوان صارخٌ تموضع في الصفحة الأولى: **(الوطن صامد أمام محاولات التفرقة)**. وفي أسفل العنوان رسم لصورهم.

على الجانب الأيسر من الصفحة تصدّر مقالٌ بعنوان

(المواطنة تجمعنا):

يعيش مواطنو الوادي حالة غير مسبوقة من الأمن والاستقرار والرفاهية. هذه الإنجازات التي استطاع القصر تحقيقها بالطبع لم تُرضِ الجميع. في كل الأزمنة يوجد الحَسَدَةَ والمتطرفون والمنغلقون الذين يريدون تفتيت هذه الإنجازات الملموسة وتمزيق النسيج الوطني بإدخال أيديولوجياتهم الخاصّة في الحياة العامّة.

ولم نصل إلى ما وصلنا إليه من استقرار ووحدة؛ لولا أننا تجاوزنا مرحلة الغيبيات إلى مرحلة التمدّن. وسيبقى هذا الوطن يجمع أبناء الوادي فياضًا بالنّعم. وسيبقى الوادي الملاذ الآمن الذي يحمي أبناءه من التشرّد؛ ولأنّ الوطن أكبر من كل شيء فحمايته واجبٌ على جميع أبنائه. والمواطن أهم ركن من أركان الأمن؛ لذلك ، إن رأيتم أحدًا يثير الشغب؛ بلّغوا السلطات في ... اقرأ المزيد في الصفحة رقم (٥).

جلس المساجين ينتظرون مصيرهم بصمت.

(٢)

تسارعت خطوات الأميرة سارة في جنبات القصر. وكما تسارعت الخطوات تسارعتِ نبضات قلبها. لم تتوقّع أن يكون الأمر بهذه السهولة. كانَ خطيبها مشدوهًا بالأحداث الأخيرة وبترتيبات احتفال الخطبة عصر اليوم ، ولم يتطلّب الأمر جهدًا كبيرًا لتأخذ

مفاتيح غرفة الأسرار من مكتبه .. لم تَرَ الأميرة فيروز ولم تكن تودّ أن تراها أساساً.

لا أريد أن أراها الآن ، ولا غداً ، ولا أبداً.. لا.. لا.. أريد أن أراها بعد أن أفضحها أمام الجميع. هذه الحالة الوحيدة التي أتمنّى فيها رؤيتها.

ضمّت سارة المفتاح إلى صدرها وركضت نحو المكتبة. لا. لم تركض. كانت تمشي مشيها الطبيعي. لكنّ قلبها كان يركض.

دخلت سارة المكتبة من جهة القصر ، ثم أكملتْ هرولتها حتى وصلت إلى القضبان التي تفصل القسم المحظور عن بقيّة المكتبة. فتحت القفل ليدخل فؤاد من الجهة الأخرى من الباب.

لم تكن تنوي أن تصطحبه معها لكنّه أصرّ .. لو أنّها لم تكن مشغولة بإنقاذ والديها وسامي ورفاقه ***وربّما الوادي كلّه*** لشعرتْ بعطفٍ تجاهه .. ربّما قليلٍ من الامتنان أيضاً.

«هل ستكفي هذه»؟ أشارتْ سارة إلى الحقائب التي أتى بها فؤاد: «كلّ ما استطعت أن أجلبه هذا».

خطّطتْ سارة أن تذهب إلى غرفة الأسرار وتجمع أكبر قدر يمكن جمعه من الرسائل ثمّ تنثرها جميعًا في مدرّجات السّاحة. وأثناء حفل الخطوبة الذي أعلن عنه يزيد ، كانت ستعلن عن الرسائل وتدعوهم لوضعها على أشعّة الشّمس. ***خطّة ركيكة ، لكنّها قد تنجح!***

كان هذا أملها في أن تذكّر والديها. قد لا يكفي فقط أن تريهم الرسالة التي أعطاها إياها سامي. كما قال أيّوب: ***غفلتهم جزء من غفلة من حولهم. إن صحا المجتمع من سباته سيصحيان هما أيضًا. أو شيءٍ من هذا القبيل.***

تسارعتْ خطواتهما بين أرفف الكتب وعشرات الممرّات

الممتدّة حتى وصلا إلى باب غرفة الأسرار.

قال فؤاد: «باب الغرفة كيف تعرفينه»؟ قالتْ: «هو الباب الوحيد في القسم المحظور الذي ...» سمعتْ سارة وقع خطواتٍ خلف أحد رفوف الكتب.

(٣)

ظلّ الأربعة في سجنهم ينتظرون مصيرهم المجهول .. التفتَ سامي إلى أيّوب ليجد ذات الطمأنينة التي رآها منذ تعرف عليه تعلو محيّاه.

قالتْ مريم يائسة: «أخذوا رسائلنا وسنبقى هنا حتّى ننسى» ثم قالت: «ستنجز فيروز ما كنت تريد فعله» ، قال رمزي: «ما الذي تقصدينه»؟!

قالت مريم: «وما يهمّك أنت؟! أنت تريد البقاء هنا في هذا الـ ... هذا الوهم. الآن ، سنبقى ، وسننسى. ثم نعود ونخسر كل شيء».

اتّسعتْ عينا رمزي ثم – ولأوّل مرّة منذ أن تعرّف عليهم سامي – لم يردّ رمزي عليها.

هل اقتنع أخيرًا؟ لم يكن سامي يعلم ، لكن رمزي بدا شاحب الوجه منكسر الروح على غير عادته منذ ...

منذ متى؟ منذُ صرخت مريم؟ منذ رُمينا في السجن؟ منذ قُبِضَ علينا؟ أم منذُ حكى أيّوب قصّته؟

(٤)

سحبتْ سارة فؤادًا دون أن تشرح له ، واختبأت خلف أحد أرفف الكتب.

نظرتْ إلى فؤاد ووضعتْ سبّابتها على شفتيها. أومأ فؤاد برأسه ثم وضع سبّابته أيضًا على شفتيه ولم يقل شيئًا. مدّت سارة رأسها بحذر.

مرّ حارسان .. زفرتْ سارة: «ظننتها فيروز» ، ثم نظرتْ مرّة أخرى إلى الممر. قالت: «ذهبوا. هيّا». مشت سارة ببطء تتلفّت ، حتّى وصلت إلى الباب.

أدخلتْ سارة المفتاح وقلبها ينبض .. في مثل هذه المواقف الحساسة كانت دائمًا ما تشكُّ في نفسها. وكانت الأخطاء تحدث دائمًا. هذه المرّة تسارعتْ الأسئلة ***هل أخذتْ المفتاح الخاطئ؟*** أدارتْ المفتاح ، وانفتح القفل. وبدلاً من أن تهدأ زادتْ قلقًا. دفعت سارة الباب المعدني الذي أصدر صريرًا ودخلتْ.

(٥)

سكت الأربعة مدة طويلة بعد كلمات مريم لرمزي. كان سامي سيبقى صامتًا لولا أنَّ شيئًا ما كان يشغله ، قال: «هناك شيءٌ يحيّرني» التفتوا إليه ثمّ أكمل: «لو كانت فيروز خلف قتل سوسن والماحي ، لمَ لم تقتلنا»؟

قال رمزي: «لأنّها في الأوّل كانت تعمل في الخفاء ، أمّا الآن فقد جعل أيّوب المعركة في العَلَن».

هزّ سامي رأسه: «لكنّ هذا لا يمنع أن يقتلونا الآن .. ما الذي ينتظرونه»؟!

(٦)

دخل فؤاد ، في حين تأمّلتْ سارة الغرفة دون حركة.

كانت قاعة أكثر من كونها غرفة. أرضيّتها مرقّعة بالأبيض

والأسود كطاولة الشِّطْرَنْج. امتلأ الجدار الأيمن والأمامي بأدراج صغيرة مرقّمة كأنّها عُلَب ساردين ، في الجهة المقابلة ملأت النوافذ الجدار الأيسر .. كانتْ كلّها مفتوحة وظهرتْ قضبان حديدية من خلفها. ***لا أحد يدخل أو يخرج من هنا سوى من عند الباب.***

خطتْ سارة بضع خطوات داخل القاعة حتى اقتربت من مجموعة أرفف. حاولتْ فتح درجٍ ، «مقفل». استمرّت تجوب الغرفة بخشوع. كانتْ أحجام الأدراج متشابهة. عدا مجموعة أرفف خضراء اللون.

كانتْ الأدراج الخضراء أكبر حجمًا ومطرّزة ولا رقم عليها. كُتب على أحدها: "الملك جاسم"؛ والثاني: "الأميرة فيروز"؛ والثالث الأمير يزيد"؛ والرابع: "الوزير أدهم".

نادى فؤاد: «دولاب مفاتيح هنا»! وأشار إلى دولاب كبير الحجم. نظرتْ سارة إلى الدولاب المفتوح: مفاتيح مرقّمة. «لكلّ درجٍ مفتاح هيّا ساعدني».

أخذت سارة مجموعة مفاتيح مرقّمة وبدأت بفتح الأدراج بحسب رقمها. كما توقّعت ، وجدتْ الرسائل داخلها. استمرّت سارة تجمع الرسائل ، وبقي فؤاد عند دولاب المفاتيح.

«ما بك يا فؤاد هيّا ساعدني». لم يلتفت فؤاد وظلّ يغوص بين المفاتيح. «فؤاد! ما بك»؟! التفتَ فؤاد: «مفتاح الملك عنه أبحث» ، قالت سارة: «وما يهم؟ الرسالة رسالة لا فرق بينها». لم يجبها فؤاد ولم يلتفت.

لن أستطيع جمع كل الرسائل دون مساعدته.

مشتْ إليه سارة وتأمّلتْ الدولاب ثمّ برقتْ لها فكرة. أخرجتْ مفتاح غرفة الأسرار من جيبها ثم ذهبتْ إلى درج الملك. أدخلت

المفتاح في قفل الدرج ثمّ أدارته. أخرج القفل صوتًا ثم... انفتح!

«فؤاد ، هيّا فتحتُ درج الملك». لم يستطع فؤاد رؤية ما في الدرج نظرًا لقصره. أخرجت سارة محتوى الدرج الوحيد: رسالة.

«هيّا ، أتيتك برسالة الملك ، الآن ساعدني أجمع بقيّة الرسائل». قال فؤاد بإحباط: «فقط هذا»؟ أومأت سارة برأسها: «نعم». ذهب فؤاد إلى طرف الغرفة وسحب طاولة ووضعها عند الدرج. وقف عليها وتأمّل الدرج بنفسه ، قالتْ سارة: «هل كنتَ تبحثُ عن شيءٍ آخر» قال فؤاد: «البقيّة افتحي»؛ فتحت سارة درجي الأمير يزيد والوزير لتجد رسالتيهما أيضًا ، ثم فتحت درج الأميرة وفوجئت بما في داخله؛ مدَّ فؤاد بصره وهو واقفٌ على الطاولة وفوجئ أيضًا.

(٧)

لم يتحدّث رمزي أو مريم إلى بعضهما البعض منذ انفجرتْ مريم.

مرّت ساعات؛ وبعد مدّة من الصمت قال رمزي: «مريم» .. ثم دون مقدّمات أكمل: «آسف» نظرتْ إليه متفاجئة لكنّها لم تقل شيئًا.

قال: «كنتُ مغفّلاً»؛ ثم أعقب: «بعدما سمعتُ قصّة أيّوب. وربطّتها بقصّة سمعتها في العمل اليوم ... لا أعلم. لكنّي أدركتُ أنّ هذا كلّه ليس لعبة. بدلاً من أن يكون الوادي جسرًا ووسيلةً إلى غاية. صار هو غاية. صرت آكل الحلوى بدلاً من بيعها» هنا قطّبت مريم حاجبيها. يبدو أنّها لم تفهم ما يقصد .. بل بدا أن لا أحد في الزنزانة فَهِمَ ما يقصد بالحلوى ، لكنّه أكمل: «ثمّ عندما رأيت وجهك بعد أن سحبوا الرسالة منك ، علمتُ أنّهم لم يأخذوا الرسالة فقط ، بل انتزعوا منك أمنية حياتك .. أمنية حياتنا ..

كنتُ مغفّلاً يا مريم» ، فتح فمه ليقول أكثر ثم أغلقه.

لم تعتد مريم على هذا النوع من الكلام من زوجها. قالتْ: «حسنًا. لا بأس» ، ثم قالت: «كنتُ أعلم أنّك مغفّل منذ تزوّجتك يا رمزي .. وأعتقد أنّ هذا يجعلني أنا مغفّلة أيضًا»! ثمّ ابتسمتْ وبادلها رمزي الابتسامة.

(٨)

عدا الغبار كان الدُّرجُ خاليًا تمامًا. لا وجود لرسالة أو أيّ مقتنًى آخر. ***إذا لم تكن الرسالة هنا فأين*** ... ثمّ اتّسعتْ عيناها. ***لا يمكن ...***

(٩)

خيّم الليل على المساجين. ذهب أحد الحرّاس وبقيَ الثّاني وحيدًا جالسًا على كرسيّه "يشخر" في نومٍ عميق. وكما نام السجّان نام السجناء عدا مريم. كانت تتفكّر في أمرهم. أخذت الأميرة الرسائل منهم.. إن بقوا في الزنزانة هكذا ، لا شكّ أنّهم سينسون. ***ثمّ ماذا؟ ستُطلقنا؟*** نظرت إلى سامي الذي نام كجثّة هامدة ، ثمّ إلى أيّوب الذي أدار ظهره راقدًا ، ثم إلى زوجها الذي نافس شخيرُهُ شخيرَ الحارس.

نظرتْ إلى سقف الحجرة. ***ما معنى هذا كلّه؟*** ثم استدارتْ على جانبها الأيسر. ***لماذا لم نقاوم؟ ما الذي كان سيحدث؟ ستقتلنا؟*** ثمّ تذكّرت نص الرسالة: ***«وإن قُتلتَ في سبيل الجبل؛ فإنّ لك مقامًا محمودًا» ، الموتُ من أجل الوصول إلى الجبل خيرٌ من البقاء فيه أحياء إن كان هذا يعني أنّي سأعود إلى الدنيا خالية الوفاض.***

سمعتْ مريم حركة الحارس يقوم من كرسيّه. ***كم هو مزعج!*** استدارتْ على جانبها الأيمن ونظرتْ من بين القضبان وإذا

بالحارس نائم مكانه. ***من أين جاء الصوت إذ*** ... ثمّ انتبهتْ أنّ رجلاً ملثّمًا قد دخل الزنزانة. كان يمشي ببطء.

وكزتْ مريم زوجها وهمستْ: «هيه قُمْ» ، ثمّ وكزت أيوب وسامي وهمست أيضًا: «أيوب ، سامي» ، بينما قام سامي وأيّوب على الفور احتاج رمزي إلى وكزة أخرى. نادى رمزي: «ماذا تريـ ...» «أشششششش» قالت مريم.

شخر الحارس شخرة عالية ، وتجمّد الملثّم في مكانه. سكتَ الجميع ينظرون إلى الحارس. وفي لحظة شعرتْ مريم أنّها أشبه بالسنة عاد الحارس يعزف سيمفونيّته.

زفرتْ مريم ثم ألصقت وجهها بالقضبان تنظر إلى المشهد أمامها. اقترَب الغريب من الحارس حتى وقف خلفه وبيده لوح خشبي. شهقتْ مريم عندما رفع اللوح بكلتي يديه. توقّف في الهواء للحظات ثمّ هوى به على رأس الحارس. طارَ الحارس من الكرسي وسقط أرضًا ثمّ عوى. ظنّت مريم أنّ الوادي كلّه استيقظ ، ***سيأتي الحرس وسينفضح أمرنـ*** ... هوى الغريب مرّة أخرى على رأس الحارس من جديد قبل أن تُكمل مريم فكرتها.

بينما سكن الحارس في مكانه دون حركة وقف الغريبُ على رأسه يتفقّده .. رفع الغريب يديه للمرّة الثالثة قبل أن تقول مريم: «كفاية باللهِ»! توقّف الغريب في مكانه ثمّ التفتَ إليها وخفَضَ اللوح الخشبي.

أخذ الغريبُ المفاتيحَ من عند الحارس ثم أفرجَ عنهم.

ذهبت مريم مباشرةً إلى المكتب ، وأخرجت رسائلهم .. أمسكتها كما تمسك الأم بطفلها المفقود.

خرجوا جميعًا من المبنى يركضون. قادهم الغريب إلى زقاقٍ صغير يحفّه الشجر. توقّفوا والتقطوا أنفاسهم. التفتت مريم إلى

الوراء لم ترَ أحدًا يلاحقهم. نظروا إلى الغريب باستغراب والذي قام بدوره بفك اللثام عن وجهه .. صاح رمزي: «وقسمًا إنّك عفريتة»! ابتسمتْ سارة وبرز خدّاها المتورّدان من الركض.

سمع الخمسة صوت خطواتٍ خلفهم واستداروا مرتعبين ، ليروا فؤادًا وبيده حقيبتان.

قالتْ مريم: «كيف عرفتِ أنّنا هنا»؟! قالتْ: «رأيتهم يأخذونكم إلى القصر ، فلحقت بكم من بعيد .. حمدًا لله تعالى أنّي أميرة؛ وإلا ما استطعتُ الدخول إلى القصر خلفكم ، ومعرفة مكانكم» ، ثمّ سأل سامي: «وما هذه الحقائب»؟ قالتْ سارة: «سأخبركم لاحقًا .. لنخرج الآن».

ثمّ أكملتْ سارة: «جاء دورك يا فؤاد» ، نظر سامي في حيرة: «ماذا تقصدين»؟

قال فؤاد متفاخرًا: «ألا تذكر؟ بنفسي أشرفت على بناء القصر» ، قال سامي: «ثمّ ماذا»؟ قال: «تحت أرض القصر أنفاق صمّمتها أنا. تُخرجك من القصر بسهولة».

(١٠)

بدأتْ خيوط الفجر تشرط السماء. لحق الجميع بفؤاد ، حتى وصلوا إلى جدار القصر الخلفي الذي كان محفوفًا بالشجيرات. سمع سامي فؤادا يحدّث نفسه: «من هنا. لا. من هنا. لا» ، استمرّ فؤاد يفتّش الشجيرات حتّى قال: «أها هنا»! ثمّ أزاح فروع الشجيرات التي أخفتْ لوحًا مربّع الشكل.

رفعه فؤاد ليكشف عن ممرٍّ سريّ يأخذ إلى نفقٍ في أسفل القصر ، قال فؤاد: «بنا هيّا»! وكرّرها سامي: «بنا هيّا» ، ثمّ قالت مريم بسخرية: «بنا هيّا»! وأضاف رمزي: «ومالو»! في حين اكتفى

أيّوب بالابتسامة.

أوّل ما دخلوا أسرجَ فؤاد شعلتين. أخذ واحدة وأعطى الثانية لرمزي.

كان الطريق مظلمًا لولا ضوء الشعلة الذي كشف بضعة أمتار أمامهم فقط. سرت رياحٌ باردة بين جنبات الأنفاق ، ولم يسمعوا سوى أصوات خطواتهم تطأ الصخور الرطبة.

سأل سامي: «هل هذه الأنفاق ممتدّة تحت الوادي كلّه؟ أم تحت القصر فقط»؟ قال فؤاد: «بعض الوادي ، لكن ليس كلّه» ، وصلوا إلى مفترق طرق. أخذهم فؤاد يمينًا ، ثمّ وصلوا إلى مفترقٍ آخر. اتّجهوا يسارًا وعندها قال أيّوب: «ما هذه الطرق الأخرى يا فؤاد»؟ أجابه فؤاد: «إلى أماكن مختلفة في القصر تؤدي» ، سألت سارة: «وهل يؤدّي أيٌّ منها إلى المكتبة أو القسم المحظور»؟ قال فؤاد: «لا».

كان سامي يمشي في مؤخّرة المجموعة صامتًا يتفكّر.

رأى سارة تمشي أمامه: عرّضتْ حياتها للمخاطرة من أجله. صدّقته حينما كان كل ما في الوادي يقول لها أن تبقى. وثقتْ به وهو الغريب. في المقابل ، يبدو أن هناك قوّة ما في الوادي مُصِرّة على بقائه. فكلّما همَّ بالذّهاب حدث أمرٌ يبقيه. يجب إيقاف الأميرة فيروز ومحاولاتها لإنهائه وإنهاء كل من قد يحيي الجبل في قلوب أهل الوادي.

قال سامي: «لحظة» توقّف الجميع والتفتوا إليه ، قال: «إذا خرجنا سنتعرّض لمخاطرة اغتيال أو اعتقال أخرى» ، التفتَ إلى سارة ، قائلاً: «سارة ، هل تعتقدين أن الملك فعلاً لا يتذكّر»؟ قالت: «متأكّدة .. يبدو تائهًا أغلب اليوم ، ويخبرنا أنّه يريد السّفر لكن لا يذكر إلى أين .. ولا يفتأ يتلمّس سلسلة في رقبته» ، قال

فؤاد: «سلسلة ماذا»؟ قالت سارة: «لا أدري».

قال سامي: «سأذهب إلى الملك». «ماذا»! قال رمزي ومريم في الوقت نفسه! التفتَ سامي إلى فؤاد: «هل يمكنك أن تأخذنا إلى الملك»؟ قال فؤاد: «بإمكاني» ، قالت مريم: «هذا جنون يا سامي»! أجابها سامي: «علينا فعل هذا. إن اقتنع الملك بإمكانه أن يعاوننا. أن يساعد أيّوب ، وأن يساعد سارة في تذكير والديها. وبإمكاننا الذهاب إلى الجبل أخيرًا»! قال رمزي: «لكن سيأ...» .. «أتّفق مع سامي» قاطعه أيّوب.

قال رمزي: «رأيك لا يهم» ، ثم التفتَ إلى سامي: «سامي ما فائدة هذه المخاطرة»؟! قال سامي: «يجب على أحد منّا القيام بهذه المحاولة. أيّوب لابد أن يقنع أخاه ، وأنت لابد ألاّ تفترق عن مريم ، وسارة عليها أن تقنع والديها» ، سكت لبرهة ثم أكمل: «ليس لدي أحد في الوادي فلن أعرّض غيري للخطر».

ثمّ وكأنّها تقول له: "لا يا سامي؛ أنا معك ، أنا موجودة" قالت سارة: «سأذهب معك». هزّ سامي رأسه نافيًا: «لا يا سارة» ، قالتْ: «القرار ليس قرارك ، ثمّ أنا الأميرة .. دخولك وخروجك من القصر سيكون أسهل وأنتَ معي».

أطرق سامي رأسه مفكّرا: «ما ينفع هذا يا سارة لأن ..» ثمّ سكت ... كانت مُحقّة: وجوده مع "الأميرة" سيسهّل الشيء الكثير ، كما أنّها تعرف جنبات القصر أكثر منه ، قال سامي مرغمًا: «حسنًا لكن إن حدث أيُّ شيء تصرّفي وكأنّكِ قبضتِ عليَّ». اكتفت سارة بالابتسام.

التفت أيّوب إلى فؤاد ، وقال: «هل تستطيع أن تدلّني على أقرب مخرج»؟ قال فؤاد: «نعم» ، نظر أيّوب إلى سامي قائلاً: «عليَّ أن أرى أخي للمرّة الأخيرة». أومأ سامي برأسه.

بدأ فؤاد يدل أيّوب على الطريق الذي عليه أن يأخذه.

قالت سارة: «لدي فكرة بإمكاننا تنفيذها .. لكنّا سنحتاج إلى مساعدة رمزي ومريم».

(١١)

انتهى فؤاد من شرح الطريق لأيّوب ، وانتهت سارة من شرح خطّتها لسامي ومريم ورمزي.

احتضن الرجال بعضهم البعض. واحتضنتْ مريم سارة.

وقف الجميع بصمت ينظر كلٌّ منهم إلى الآخر وكأنّه اللقاء الأخير لهم في الوادي. ولبعضهم ، سيكون الأمر كذلك.

الفصل الثالث والعشرون: سُلَّمٌ إلى القَصْر

(١)

قاد فؤاد سامي وسارة حتى وصلا إلى سُلَّم أفقي طويل اخترق سقف النفق، قال فؤاد: «مِن هنا» ثمّ أكمل: «وهنا سأنتظر».

التفتت سارة إلى سامي وقالت: «قد يكون هذا أفضل .. وجود أحد الأشامسة سيلفت الأنظار».

أومأ سامي برأسه ثم نظر إلى الأعلى. في وسط الظلمة بدا وكأنّ السلّم لا نهاية له.

وضع سامي قدمه اليمنى على السُّلّم، ثم أمسك بيده اليسرى أحد القضبان الحديدية. هزّ السلّم ليتأكّد من متانته ورضي بالنتيجة.

قال: «يبدو أنّ السلّم سيتحمّل وزننا».

اعتلى بضعة قضبان، ثم التفتَ إلى سارة وقد رآها واقفة دون حركة.

قال: «ما بك يا سارة»؟ سكتتْ ولم تُجِبْ.

سألها: «هل أنت خائفة»؟ اعتدلتْ ونظرت للأعلى، ثم قالت: «لا؛ لكن يبدو السلَّم مرتفعًا جدًّا».

ابتسمَ سامي وقال مشاكسًا: «إذًا خائفة»؟ قالت بتردد: «لا.. أنا لا أخاف». قال: «سأنزل أنا واصعدي أولاً، سأكون خلفك

إذا حدث أيّ شيء» ، قالت: «لا أنتَ أولاً» ، مدّ سامي يده وقال: «إذن هيّا سأساعدك».

(٢)

مدّ سامي يده وفي تلك اللحظة لاحت لها بقايا كلمات من حياتها القديمة. حياة ما قبل الوادي .. هل كانت أنشودة أم قصيدة أم أغنية؟

أيـا هائمًـا في الهـوى يشـكو مواجعـه
القلـبُ سـكناكَ والأعطـافُ مرعـاكَ
هـذي يـدي في الهـوى مـدَّت بـلا حـذرٍ
فامـدد يـدًا في ريـاضِ الحـبِّ ألقـاكَ
الخـوفُ داءٌ يميـتُ الحـبَّ يقتلـهُ
قـل لي مـتى تعـرفُ الإقـدامَ دنيـاك؟

لم تتذكّر سارة بقية القصيدة ، لكنّ توقيتها كانَ مناسبًا جدًّا. وكأنّها في رواية وحاك الكاتب هذا الموقف خصوصًا ليستعرض هذه الأبيات.

(٣)

بالنّسبة لسامي ، كان ذهابه إلى القصر مخاطرة ، لكن أسبابا كثيرة كانت تدفعه لفعلها: مساعدة الوادي ، مساعدة مريم ورمزي ، مساعدة أيّوب وأخيه. وآه نسيت: سارة. بالنّسبة لسامي؛ كانت سببًا كافيًا لأيِّ شيءٍ.

تصبَّبَ عرق من جبينه ، وتسارعت نبضات قلبه وهو يصعد السلّم. أمسك أحد القضبان بيده اليمنى ومسح العرق من جبينه بذراعه اليسرى. نادى: «هل أنتِ على ما يرام»؟ أجابتْ سارةٌ من

على بعد بضعة أمتار في الأسفل: «نعم» ، ثمّ أضافت: «أنا بخير».

تلاشتْ شعلة فؤاد من تحتهم ، ولم يبقَ سوى الظلام الدامس. نادي سامي: «فؤاد»! لم يجبه أحد .. صاح مرّة أخرى دون جدوى. *أين ذهب؟* سمع سامي أنفاس سارة من تحته وتفكّر: *متى ينتهي هذا السّلّم؟!* جاءه الرّد مباشرةً إذ بعد ما بدا أنّه ساعة في الظلام الدامس رأى من فوقه نورًا خافتًا.

(٤)

صعد سامي وسارة آخر قضبان السلّم ، ووقفا على ما يُشبه حافّة مرتفع. نظر مع سارة إلى الأسفل ولم يريا سوى السواد. التفتَ إلى مصدر الضوء وتبيّن أن الضوء كان يخرج مما يشبه أطراف إطارٍ مربّع الشّكل من أحد الجدران.

مشيا بصمتٍ حتّى وصلا إلى الإطار.. أنصتَ سامي ولم يسمع شيئًا. نظرتْ سارة من فتحة الإطار ثم همستْ: «يبدو المكان خاليًا» ثمّ التفتت إلى سامي: «الغرفة المقابلة هي قاعة الطعام الرئيسة في القصر .. لا يستخدمونها إلا في المناسبات». همَّ سامي بالدخول قبل أن يتوقّف. التفتَ إلى سارة وقال: «سارة».

تحت الضوء الخافتْ رأى سارة مطأطئة رأسها والخجل يقطُر من وجنتيها الحمراوتين. نظر في عينيها وكاد أن يغرق .. *أيُّ ريحٍ طيّبة ألقت بي إليكِ؟*

مرّتْ لحظات يبحث عن الكلمات ثم قال: «لن أتركك تتزوّجين من يزيد». ارتسمتْ ابتسامة على محيّاها ، وقالت: «أعلم ذلك يا سامي».

(٥)

دفع سامي الباب الخشبي لكنّه لم يتحرّك. حاول مرّة أخرى

دون جدوى. أخيراً حاول إزاحته جانبًا وتحرّك. نظر الاثنان إلى الحجرة تحسّبًا لوجود أحد: لا أحد. دخل سامي الغرفة أوّلاً ثمّ أشار إلى سارة بالدخول.

كان المدخل السرّي عبارة عن لوحة قديمة في زاوية الغرفة. توسّط المكان طاولة طعام طويلة تكفي لقرابة ثلاثين شخصًا .. كان باب غرفة الطعام مقفلاً وفي الجهة الأخرى من المدخل السري.

أعاد سامي اللوحة مكانها ثم تأمّل الغرفة. أشار إلى دولابٍ كبير مليء بالأواني وهمس لها: «من هنا» ، ثمّ مشيا إليه.

وقفا عن يمين الدولاب متخفّيين ، قال سامي: «كيف نذهب إلى الملك»؟ سكتتْ سارة تتفكّر ثمّ لاحت ابتسامة على محيّاها؛ قالتْ: «لا يجبُ أن تذهب إلى الملك ، سامي» وقبل أن يعترض أكملت: «بل الملك هو من سيأتي إليك» .. قال: «وكيف ذلك»؟ قالت: «سأذهب إليه من غيرك؛ فوجودك قد يلفتُ الأنظار. ثم آتي به إلى هنا متحجّجةً بأيِّ شيء».

الفصل الرابع والعشرون: الإِعْلَان

(١)

لم تستطع سارة أن تأخذ كل الرسائل من غرفة الأسرار ، لكن العدد الذي أعطته لمريم ورمزي كان كافيًا لإتمام توزيعه بشكل متساوٍ حول المدرّجات الخالية. كان الصبح قد انتصف عندما بدأ رمزي ومريم بتوزيع الرسائل. وضعاها تحت الكراسي عند موضع القدم.

قالتْ مريم: «هل تظنّهما سينجحان»؟ أجاب رمزي: «منذ أتى سامي إلى هنا خرج من السجن مرّتين ، وقاتل حتّى نجا من محاولة اغتيال» قالتْ مريم: «ثلاث مرّات» توقّف رمزي عن وضع الرسائل والتفت إليها ، قائلاً: «ماذا تقصدين»؟ قالتْ: «انسجن ثلاث مرات: خرج من الزنزانة التي كنّا فيها سويّةً داخل أسوار القصر ، وخرج من المعتقل تحت الأرض عندما قُتِلَ الماحي» ، قال رمزي: «وهذه مرّتان» ، أكملتْ سارة: «ولا تنسَ عندما قضينا ليلةً في سجن المالك» ، وضع رمزي يده على جبينه وقال: «أوووه. نسيت. صاحبنا زئبقي»!

وضعتْ مريم آخر الرسائل من الحقيبة التي أعطتها إياها سارة ، ثمّ نظرتْ إلى المقاعد الخالية .. ***سيكون الاحتفال من النوعِ الفاخر ظُهر اليوم.***

(٢)

انتصف النّهار ، وجلست مريم بمعيّة زوجها في أعلى المدرّجات التي امتلأت بالحاضرين الآن. اختارا مكانًا مرتفعًا ليسهل عليهما الخروج ، ولكن المكان كان في الوقت نفسه قريبًا من

الشّرفة التي يجلس فيها الملك عادةً. تلثّم كلٌّ من مريم ورمزي ولم يُظْهِرَا سوى عينيهما والجزء العلوي من أنفيهما.

تأمّلتْ مريم الجبل الذي بدأتْ تستصعب رؤيته .. بدا شفّافًا ، تلتقطه عيناها لحظةً ويهرب من بصرها لحظات. أمسكتْ يد زوجها ونظرتْ إلى الشرفة بقلق. مسحتْ العرق المتصبب من كفّها على فخذها من حينٍ إلى آخر .. *هيّا يا سامي.*

هيّا يا ...

تعالتْ الأصوات بدخول الملك وكلٍّ من الأميرة فيروز ويزيد. وقفَ جعفر عند مدخل الشرفة ، وتوزّع الحرس حوالَيها. مدّت مريم رأسها تبحث عن سارة أو سامي .. لا أحد. نظرتْ في عيني زوجها الذي بادلها ذات النظرة .. عصرتْ يده وقد ملأت مخيّلتها صور لسامي وسارة مسجونين، *أو ربّما مقتولين.*

وقفَ الأمير ، ومشى إلى الشّرفة ، ثمّ رفع يديه مخاطبًا إياهم: «أيّها الشّعب العظيم ...» صفق النّاس له بحرارة. نظرتْ مريم إلى الملك الذي كان يصفّق أيضًا .. *هذا مؤشّر سيئ* .. ثمّ نظرتْ إلى فيروز ولمْ ترَ أية ملامح تعلو وجهها. أعلن الأمير عن احتفالٍ لن ينسوه ، ثمّ التفتَ إلى أخته ، وقال: «والشكر للأميرة فيروز صاحبة الفكرة والتخطيط؛ فقد سهرتْ الليل تجهيزًا لاحتفال اليوم. ولقد اطّلعتُ عليه شخصيًّا وأعدكم أنّكم لن تروا مثله قط»!

وبينما الأمير يخطب دخل الوزير المقنّع إلى الشرفة. تلفّت حول الشرفة باحثًا عن الملك قبل أن يقف خلفه. التفتَ إليه الملك ووشوش له بشيء ما. حركة يد الملك كانت توحي بأنّه يتساءل عن سبب تأخّره.

أكمل يزيد: «اسمحوا لي أن أدعوَ إلى الشرفة سبب هذا

الاحتفال. أميرةَ المستقبل .. أميرةَ الوادي .. الأميرةَ سارَة».

وبينما وقف النّاس يصفّقون مجدّدًا دخلتْ سارة إلى الشّرفة ، ولوّحت للجماهير بمحاذاة الأمير. زفرت مريم لرؤية سارة ، لكن هل كان القلق يعلو وجه سارة؟ لم تستطع مريم التّأكّد .. ***أين أنت يا سامي؟*** تلفّتت مريم حولها؛ لعلّه يكون واقفًا ، وكما توقّعت: لم تره.

وشوش الملك في أذن أحد الحرس فتوجّه بدوره إلى الأمير وهمس إليه. التفتَ الأمير إلى الحارس أولاً ثمّ إلى الملك في دهشة وارتسمتْ ابتسامة كبيرة على محيّاه.

صاح الأمير: «قبل البدء بالحفل أود أن أعلن عن شيءٍ لم يحدث منذ زمن». التفتَ النّاس إلى بعضهم يتهامسون. أكمل الأمير بعد أن ترك مخيّلاتهم تسرح: «سيقوم جلالة الملك والدي بإلقاء كلمة كريمة بعد سنواتٍ من الصمت». صاح النّاس احتفالاً.

التفتَ رمزي إلى زوجته وقال: «اهدي شويّة! إنت عاوزة تكسري يدّي»! سحب يدّه من قبضة مريم القويّة ، ثمّ دلَّك يده بيده الأخرى.

لمس الملك السلسلة المعلّقة في عنقه ثمّ وقف واتّجه إلى الشرفة. جلس النّاس بعد لحظات من التصفيق ثم هدأوا. تملك المشهد انتباه الأميرة فيروز التي نظرتْ بفضول. أخذ الملك يتأمّل الحاضرين دون أن يقول شيئًا. مدّ الملك بصره إلى الأعلى لأقل من لحظة ثمّ اتّجهت عيناه إلى المدرّجات. ***هل .. هل كان ينظر إلى الجبل؟***

وقف الملك معتدلاً رافع الرّأس. لاح إلى مريم خيال الملك وهو يقود البشر لهزيمة الأشامسة .. ملأت الهيبة وقفته .. وكأنّ الرجل التائه الذي ظهر أمس قد اختفى وحلّ مكانه فارسٌ مغوارٌ

يقف أمامها اليوم.

بدأ الملك حديثه: «أيّها النّاس» زلزل صوته جنبات الساحة. وقف الأمير يزيد بجانب أبيه رافع الرّأس ، «لقد عشنا في رغدٍ من العيش بعد المعركة الكبرى مع الأشامسة؛ لقد قاتلنا من أجل البقاء .. لقد بنينا حضارةً يدًا بيد .. لقد توسّعنا في الرفاهية .. لقد عشنا في أمن». صفّق الحاضرون.

انتظر الملك حتّى توقّفوا ثمّ أكمل بنبرة متأمّلة: «لقد أنجزنا الكثير ، وما زلنا ننجز. لقد بحثنا عن الثمرة ، ويبدو أننا سنبقى نبحثُ عنها. لكن لديّ سؤال» . أخذ نفسًا ثمّ زفره.. خيّم الصمت على المدرّجات ، حتى لو تحرّكت ذبابة لسمعوها. قال الملك: «ثمّ ماذا؟ ماذا بعد الأمن ، ماذا بعد المال ، ماذا بعد الثّمرة»؟ ابتداءً لم يقل أحدٌ شيئًا ، ثمّ بدأ النّاس يتهامسون. تركهم الملك للحظات ثمّ قال: «لِحُسْنِ حظّنا لدينا من يقدر على إجابة السّؤال».

(٣)

بمجرّد أنْ رأت الأميرةُ فيروز سامي يدخل الشّرفة وقفتْ ونادتْ: «اقبضوا عليه»! تحرّك الحرس وقبل أنْ يَلمسوه نادى الملك بصوته الجهوريّ: «دعوه»!

وقف الحرس مباشرةً ، والتفتوا إلى الملك طائعين؛ قالت فيروز: «هذا الرجل ومَنْ معه يقفون خلف الفوضى التي حدثتْ أمس في السّاحة». اختلط في نبرتها صوت القلق والكراهية والدهشة: ***كيف خرجوا من سجنهم؟!***

ابتسم الملك وقال: «أعلم ذلك؛ وسيقوم الآن بتبرير ما حدث ، أليس كذلك يا سامي»؟ ***هل كان يسخر ؟!***

قال الأمير يزيد: «ما الذي يجري»؟ مدَّ الملك يده ، وأشار

إلى ابنه بالجلوس: «لا عليك يا ولدي؛ فقط استمع لما سيقول».

(٤)

حالما ظهر وجهُ سامي وقف كلٌّ من مريم ورمزي يصفّقان. وبرغم فرحتهما؛ إلا أنّهم لم ينجحوا بعد. ***الوقت مبكّر جدًّا للاحتفال.*** وقف سامي عند طرف الشرفة. تأمّلت مريم المنظر. ***ماذا سيحدث؟***

(٥)

كان سامي يعلم جيّدًا أنَّه لا يستطيع الإطالة. لن تسمح له فيروز.

أمام المدرّجات الممتلئة؛ تأمّل سامي أوجه الحاضرين ، وتفحّص أعينهم ، واستمع إلى صيحاتهم. ***لم تنجح خطّة أيّوب. هاهم منغمسون في الاحتفال.*** شعر بالأسى والغضب أيضًا؛ بسبب الحال الذي وصلوا إليه. ***كادت أمّي تزيغ بسببكم.*** هل كان غضبًا أم حُرقة؟ لم يعرف تمامًا. أيًّا كانت المشاعر؛ دفعته لأن يتحدّث.

(٦)

حبستْ مريم أنفاسها ثم بدأ سامي حديثه: «هل تفكّرتم يومًا من أين أتيتم»؟ سكت للحظات: «وهل تفكّرتم لمَ أنتم هنا»؟ تهامس النّاس ، لكنَّ سامي أكمل: «وهل سألتم أنفسكم إلى أين أنتم ذاهبون»؟

نادتْ فيروز: «أبي أوقف هذا الجنون»! أكمل سامي: «قد تتساءلون ما دخل هذا في احتفالنا اليوم؟ ولمَ هذه الظّلامية في يوم فرحة؟ حسنًا ، الجواب موجود. لكن قبل الإجابة لديَّ سؤال أخير: هل ترون الجبل»؟ ثمّ مدّ يده مشيرًا إلى الجبل .. رفع

الناس رؤوسهم .. بدأت الهمسات تعلو ، ثمّ عاد البعض ينظر إلى سامي ، وآخرون يتحدّثون إلى مَن حَولهم ، وقلّة قليلة بدتْ مشدوهة.

نادى سامي: «أيّها النّاس ..» وعاد أغلبهم ووجّهوا أنظارهم تجاهه. حدّثتْ مريم نفسها: ***جيّد لم يزل يسيطر على الموقف ، لكن عليك الإسراع يا سامي.*** أشار سامي إلى المدرّجات ، وقال: «لقد تركنا لكم الجواب في ظروف. وُضِعَتْ هذه الظروف تحت بعض الكراسي . أخرجوها».

رأت مريم أحد الحاضرين يُخرج الرسالة من تحت كرسيّه؛ ثمّ تحلّق الذين هم من حوله؛ ليقرؤوا الرسالة معه. تكررّ المشهد في أرجاء المدرّجات ، قال سامي: «أعلم أنّكم ستقولون الرسالة فارغة أليس كذلك؟ الآن ارفعوها واجعلوا أشعّة الشّمس تخترقها». استدار إلى سارة ومدّ يدّه. أعادتْ سارة نسخته من الرّسالة ثم قام بوضعها تحت أشعّة الشّمس ونادى: «هكذا»!

(٧)

إن أردت تحقيق أمنيتك فاذهب إلى الجبلِ ولا تجعل الوادي مستقرًّا. وإن خالفتَ يحتجب الجبل منكَ ثم تنساه وتضيع أمنيتُك.

ولا تغرّنك السنون في الوادي فإنّها أيام في دنياك؛ ثم يأتي يومٌ يسقط الوادي، ويضِيع سعيك وتختفي مغانمك.

وتذكّر: هي رحلة واحدة فقاتِل للوصول إلى الجبل. واضحكْ في وجه الموت فإنك إن قُتِلتَ في سعيك تحقّق مرادك.

داوم قراءة الرسالة كي لا تنس الجبل. وخذ بيدِ مَنْ معك وذكّر لعلّ الناس تنتفع بتذكرتك.

(٨)

تأمّلت مريم ورمزي المجموعة المتحلّقة قريبًا منهما. همهمت الحلقة عندما ظهرتِ الحروف. بعد لحظات بينما شهق ثلاثة منهم صمتَ اثنان. رفع أحدهم عينه يتفكّر ، ثمّ أخذ خطوةً إلى الوراء ، وأشار إلى الأعلى: «ما ... ما هذا»؟!

نظر أحدهم إلى حيث أشار الأوّل ، وقال: «ماذا هناك»؟ فأجابه: «ألا تراه؟! شيءٌ ما يظهر في الأفق هناك» ، قال الثاني: «لا أرى شيئًا». أمّا الثّالث فقد أعطى الرسالة إلى الرابع ببرودٍ .. قرأ الرابع الرسالة بنهم وأطال .. ربّما أعاد قراءتها بضع مرّاتٍ ، ثم جلس مشدوهًا يحدّق في الأفق.

(٩)

استمع سامي إلى اللغط المرتفع في أرجاء المدرّج وسأل سؤاله الأخير بصوتٍ جهوريٍّ آسر: «هل ترون الجبل الآن»؟!

(١٠)

تكرّر المشهد بشكل أو بآخر في أرجاء المدرّج ، التفت رمزي إلى مريم وقال: «هيّا بنا» ، قالت: «إلى أين»؟ قال: «إلى سامي ، ستنقلب المدينة رأسًا على عقب ، وعلينا الذهاب فورًا. هيّا».

أومأتْ مريمُ برأسها ، ثمّ أخذ رمزي يدها وانطلقا.

(١١)

لم تتحرّك سارة منذ أن خرجت ووقفتْ عند الشرفة تحيي الجماهير؛ قام الملك بعدها ودخل سامي وجلس يزيد وألقى سامي كلمته وهي لم تزل واقفةً في مكانها.

كانت تتأمّل أوجه النّاس قبل أن يبدأ سامي حديثه.

أمّي ، أبي ، هل أنتما هنا؟ هل تسمعان؟

عندما انتهى سامي؛ أخذت الرسالة منه وقرأتها. برقَ الجبل أمامها ، وبرقت ذكرياتها بوضوح أكثر.

غاصتْ في أفكارها قبل أن تسمع سامي ينادي: «هل ترون الجبل الآن»؟!

شعرت بمزيجٍ من الأسى على حالها ، والقلق على أن الوقت قد أزف ، والامتنان لسامي .. وقوفه بجانبها ملأها دفئًا وطمأنينة.

(١٢)

أخذَ سامي نفسًا بعد أن انتهى.

رأى بعدها جَلَبَة تتولّد في أنحاء المدرّجات .. شعر أنّه تحدّث لمدّة طويلة. لكنّه لم يقل سوى عشر جُمَل ، أخذتْ منه أقلَّ من دقيقة ربّما.

هل أثّر فيهم؟ في بعضهم؟ في أقليّة؟ في شخصٍ واحدٍ فقط؟ لكن ، الشخص الواحد الوحيد الذي يهمّه كان يقف عن يمينه.

من دون أن تنظر إليه ، ومن دون أن ينظر إليها ، همستْ سارة: «أراه الآن يا سامي .. أرى الجبل».

(١٣)

كانت الأحداث متسارعة .. رأتْ فيروز ذاك الشاب اللّعين يتحدّث وفي لحظات بسيطة انتهى. احتاج إلى وقتٍ قليل ليُحْدِثَ كُلَّ هذا اللغط.

غلتْ فيروز حتّى لم تعد ترى أو تشم سوى الدم .. ***سيدفعون***

بدمهم نتيجة ما فعلوه، قالت فيروز: «ماذا فعلت أيّها الوغد»؟! لم يجبها الصعلوك. ثمّ التفتتْ إلى سارة: «وأنتِ الحقيرة تساعدينه»؟! التفتتْ إليها الساقطة لكنها لم تقل شيئًا أيضًا!

وفي معمعة اللغط والفوضى ، ومن دون أن تفكّر بعواقب فعلتها ، وقبل أن يستوعب مَنْ حولها أنّها كانت تحمل خنجرا ، رمتْه فيروز تجاه صدر سامي.

لم يكن يقف بعيدًا عنها .. ثلاثة ربّما أربعة أمتار؟ الخنجر حتمًا سيصيب الهدف. كان بودّها أن ترمي خنجرًا آخر على الشمطاء ، لكن في خضمِّ فوران دمها لم يفُتها أنَّ قتلَ زوجة أخيها - زوجة الأمير - كان سيعقّد الموضوع أكثر.

أمّا أن يرى الناس فعلتها فهذا لم يهمّها. ولِمَ تكترث للقطيع؟ ستدّعي أنّ الغريب هدد حياة أميرتهم الجديدة ***اللذيذة المحبوبة سارة الزّفت.***

لكنّ حظّ الأميرة فيروز لم يكن حاضرًا في تلك اللحظة ، كما لم يكن حاضرًا منذ أن قرّر أخوها المعتوه أن يرتبط بسارة؛ فبرغم أنّها رمتْ الخنجر بإتقان ، لم تتوقّع الأميرة فيروز أن لا يصيب هدفه .. لم تتوقع أن يصيب شخصًا آخر؛ شخصًا قفز ليحول بين الخنجر وصدر سامي.

(١٤)

هل كانت سارة الوحيدة التي انتبهتْ للخنجر في يد الأميرة؟

لم يكن قرار الوقوف أمام سامي آتيًا من تحليل أو تفكير .. أتى الأمرُ بالتحرّك من أعماق أعماقها.

اخترق الخنجر صدرها أوّلاً ثمّ استقرّ في قلبها. اتّسعتْ عينا سارة. كانت متفاجئة بالزائر الحديدي الغريب الذي يخالط قلبها

أكثر من غيرها. لاحت إليها تكملة تلك القصيدة من ماضيها السّحيق.

أيا هائمًا في الهوى يشكو مواجعه
القلبُ سكناكَ والأعطافُ مرعاكَ
هذي يدي في الهوى مدَّت بلا حذرٍ
فامدد يدًا في رياضِ الحبِّ ألقاكَ
الخوفُ داءٌ يميتُ الحبَّ يقتلهُ
قل لي متى تعرفُ الإقدامَ دنياك؟

أمّا الآن فقد برقت في ذهنها تكملة القصيدة:

قل لي متى تَكسِر الأسوارَ تعشقني
عشقًا يميت، فتحييني ذراعاكَ
الوصلُ يحيي غرامًا جفَّ منبتهُ
جُدْ لي بوصلٍ برمشِ العينِ أرعاكَ
كن لي غطاءً بليلِ العشقِ يدفئني
أكونُ أرضك إن شئتَ وسماكَ
كن لي حبيبًا وصُنْ وُدي بلا وجلٍ
أعطيكَ روحي ونبضُ القلب يفداكَ

"عشقًا يميتُ"؟ هل هذا هو؟

زاحم ذلك الشعور الذي ملأ قلبها: الخنجر الذي انغرس فيه. وقعتْ سارة على الأرض، ثم هوى سامي إليها .. أمسكها بذراعيه .. ***"عشقًا يميتُ، فتحييني ذراعاكَ"*** ...

اختلطَ اللون الأحمر القاني بحجابها الأبيض .. كان الجبل الآن شديد الوضوح. لم يعد يتقطّع، أو يظهر بشكل باهت. كان

حاضرًا بكلِّ ألوانه وشموخه. وقف الجبل خلفَ محيّا سامي القلق. كانتِ تودُّ أن تنطق وتقول: ***لا تقلق يا سامي، هذا محض وداع مؤقّت. أستطيع أن أرى الجبل الآن بكلِّ وضوح.***

لكنّها لم تستطع أن تتكلّم .. بدأتِ تشعرُ أنّها تُنتزع من جسدها .. تقطّع المشهد أمامها، تارةً ترى سامي، وتارةً لا ترى إلا البياض .. وكانتِ آخر ما حدّثتِ به نفسها قبل أن تفارق الحياة: ***"أعطيكَ روحي ونبضُ القلبِ يفديك".***

(١٥)

كان القصر أكثر هدوءًا من السّاحة المزعجة. وضع الملك سبّابته وإبهامه على عينيه وعقد حاجبيه آملا أن يكون كل هذا مجرّد حُلم. ابنته قتلتِ خطيبة أخيه؛ زوجة أخيه تحبّ رجلاً غريبًا! الرجل الغريب جاء من العالم الحقيقي؛ ليذكّرهم جميعًا بأنّهم يعيشون حياةً زائفة في الوادي .. هذا الوهم بناه الملك، وأصبح هو نفسه جزءًا منه!

بماذا أبدأ؟ هل أبدأ بابني الذي يريد الانتقام من أخته؟ أم بابنتي الـ.. قاتلة أم متهوّرة؟ ماذا أسمّيها؟ سأسمّيها المتهوّرة الآن. أين وصلت؟ آه، نعم، هل أبدأ بابني أم بابنتي "المتهوّرة" التي قتلت البريئة؟ وماذا عن الشاب الذي أنقذني من هذا الوهم؟

لقد انهار تمامًا ولم يتفوّه بكلمة منذ مقتل المسكينة سارة. من حسن حظ الجميع أن الحراس موجودون وإلا لقتلوا بعضهم البعض الآخر. هل أبدأ بهم؟ أم هل أبدأ بإحياء المملكة التي بنيتُها. أحييهم بالحقيقة التي ساهمتُ في إخفائها. لكن، بالطّبع لا أتحمّل الملامة لوحدي.

لقد كان لأهل الوادي أنفسهم دورٌ في هذا كلّه. أم هل أبدأ بنفسي، وأتركُ كل هذا. أترك الجمل بما حمل. أتركهم وأذهب إلى الجبل وأنقذ نفسي.

فتح الملكُ عينيه ليرى الحجرة أمامه. وضع الخنجر الذي تسبب في قتل الأميرة سارة على الطاولة. نظر إلى الخنجر مرّة أخرى ، ***هذا خنجر الوزير. لا شكّ أن ابنتي سحبت الخنجر من حزامه دون أن يلحظ ، وكيف يلحظُ وهو ... ما بالُ هذا الطويل ذو الأذنان الكبيرتان يحدّق بي؟***

لقد أتى هذا الطويل مع المرأة ذات الوجه المنمّش ليقفا مع صديقهما سامي. وقفا بجانبه أثناء دفن المسكينة. ***صديقان مخلصان ، لكن لا أحبُّ نظراتهما.***

أمَرَ الملك بأن تُودَعَ فيروز في حجرة وأخوها في أخرى وأن يُقفَل عليهما الباب حتّى يتسنّى له أن يقرر ما عليه فعله. مدّ الوزير أدهم دفتره الأصفر الذي طالما استخدمه للتواصل. قرأ الملك ما كُتبَ فيه ثم قال: «لا ، أريد أن يبقى سامي ورفاقه معنا في الغرفة لنقرِّر سويًّا ما الذي ينبغي فعله».

كان الملك يجلس في قاعة الطعام الرئيسة بمعيّة الوزير أدهم والغرباء الثلاثة. أدار الملك الكرسي الذي كان عند رأس الطاولة وجلس عليه. وقف الوزير عن يساره: يلبس قناعه وبيده الدفتر الأصفر كما هي عادته. اصطفّ الغرباء الثلاثة أمامه وبقيت الطاولة الخالية من وراء ظهره.

قبل لحظات؛ أمر الملك آخر حارس بالخروج من الغرفة بإيعاز من الوزير أدهم الذي فضّل أن يكون الاجتماع خاليًا من أيِّ غريب ، أمر الملك: «سامي ورفاقه ليسوا غرباء».

التفتَ الوزير إلى الوراء ونظر إلى الباب الذي كان في الطرف الآخر من الغرفة الكبيرة. لم يبقَ أحدٌ سواهم.

خفض الوزير رأسه وظلَّ واقفًا.

قال الملك: «حسنًا علينا أن..»؛ «اسمح لي جلالة الملك»

قـال رمـزي مقاطعـًا: «لا نريـد البقـاء هنـا .. هـذه مشـكلة أنـتم تسبّبتم بها ولا دخل لنا فيها» نظر الملك إلى رمزي متفاجئًا .. لم يعتد أن يخالفه أحدٌ بهذه الصراحة.

ابتسمَ الملك: «أتفهّم ذلك .. لكن علينا أن نعيد النّظام قبل أن تـذهبوا» ، قالـت مـريم: «أيّ نظـام؟! أنـتَ ومـن معـك علـيكم الذهاب إلى الجبل فورًا». التفتَ الملك إلى الوزير وابتسم ساخرًا: «انظر يا أدهم: فكرة واحدة فقط كافية بأن تطيح بهيبة الملك والقصر والحرس».

الأفكار بإمكانها أن تكون خطيرة ، وبإمكانها أن تكون أكبر مخدّر. من الجيّد أننا أخرجنا الحرس؛ لا نريد أن تلوّث تلك الفكرة طاعتهم لي. ثمّ جاءته فكرة أخرى: ***تخيّل لو أنّ كل من في الوادي عرف حقيقتها. والله لضبطونا ضبطًا!***

التفتَ الملك إلى رمزي ثم أكمل: «اسمع ، كان من الضروري إظهار الحقيقة كخطوة أولى. لكن المسألة ليست بهذه البساطة. نعم علينا الذهاب إلى الجبل ، لكن هناك دولة قائمة لابد من التأكّد أنّنا نتخذ الإجراءات اللازمة حتى يخرج الجميع بأمان ، وحتى نعيد القناعة للذين لم يقتنعوا بعد. وهذا يتطلّب تضافر جهود كثيرة تنظيمية ، وإعلامية ، واجتماعية ، وأمنية ، وحتّى ..» قبل أن يكمل حديثه ، انتبه الملك إلى أنَّ الطويل ذا الأذنين وزوجته اتّسعتْ أعينهما فجأة ، في حين بقي سامي ينظر إلى الأثير شارد الذّهن والتفكير.

«ما بكم»؟ وقبل أن يلتفت ، أحسّ بحديدة حادّة تلامس عنقه برفق.

(١٦)

رأت مريم الخنجر بيد الوزير ولم تظن أنّه كان سيضعها

على رقبة الملك .. عندما حدث ذلك شهقتْ وأمسكتْ بيد زوجها .. ألم يكن رفيق الملك منذ اليوم الأوّل؟ ألم يفقد قدرته على الحديث فداءً لقضيّة الملك: الثمرة؟

ربّما لهذا السبب تحديدًا يقوم الوزير بتهديد الملك؟ ضيّع حياته لأجل الثمرة ، ويقوم الآن بالتخلّي عنها؟ ماذا عن سنوات الخدمة والبحث المضني؟

نادى الملك بثقة: «أيّها الوزير ، أدهم ماذا تفعل»؟! لم يَخرج صوتٌ من خلف القناع منذ أن لبسه لأوّل مرّة. ***كيف يتوقّع الملك أن يجيبه وهو لا*** .. وقبل أن تكمل مريم فكرتها ابيضَّ وجه الملك فزعًا.

جاءه صوتٌ من خلف القناع يقول: «الوزير أدهم»؟ كان الصوتُ هادئًا متلذّذًا بكلّ حرفٍ ينطقه: «خارج الخدمة مؤقّتًا أدهم».

«ماذا»؟! حاول الملك أن يلتفتَ لكنّ الرجل ضغط بالسكّين على رقبته ، ثم قال متسلّيًا: «أنا؟ أنا ملك هذا القصر الحقيقي» ، التفتَ إلى رمزي ومريم وسامي وقال: «رفاقي ، أهلاً؛ ما زلتم تحدثون الفوضى أراكم همم»؟ لم ترَ مريم وجهه لكن تخيّلته يتبسّم خلف القناع.

قال رمزي في حيرة: «من أنت»؟ ردّ عليه الرجل بخلع القناع.

(١٧)

بعد أن كشف الرجل عن وجهه؛ بدأ بخلع حذائه الذي كان يصل إلى ركبته. انتبهت مريم أن للحذاء كعبًا عاليًا كما كان مبطّنًا بطبقات تجعل لابسه يبدو أطول مما هو بالفعل. حالما خلعه الرجل ولامستْ قدماه الأرض صار أقصر بكثير.

قال الرجل: ‹‹هاه يا أصدقائي ، الآن عرفتموني››؟ كانت أعينهم المتّسعة وحواجبهم المرتفعة كفيلة بالإجابة: كانوا يعرفونه جيّدًا. قال رمزي: ‹‹ماذا تفعل هنا››؟!

الفصل الخامس والعشرون: المَلِكْ طَارِش

(١)

كانت الهزيمة قاسية على الأشامسة ، ووقعها أشدُّ على ملكهم وآخر ملوك آل طيكل: الملك طارش؛ أو كما يحلو للأشامسة تسميته: الملك طارش الكبير. لُقِّبَ بـ(الكبير) كما لُقّبَ آباؤه من قبل ، ولم يأتِ اللقبُ عبثًا؛ فقد كان الملك طارش أكبر الأشامسة حجمًا ، كما كانَ حال أسلافه.

في أسطورة يتناقلها الأطفال ، قيل: إنّ أحد أجداده تزوّج ملكة إنسية فارعة الطول. كان "عرق" الإنسية قويًّا وتلقّفه جيلٌ بعد جيل من آل طيكل. وبرغم أنّ هذه القصة تبرر طوله الرّفيع عند الأشامسة ، إلا أنّه في أعين الإنس كان مجرّد رجل قصير قصرًا عاديًّا.

في عهد الملك طارش- وبسبب هزيمتهم من الإنس- شُرِّدَ قومه من الوادي إلى غابة الألف ألف ألف نخلة. الغابة التي يفصل بينها وبين الوادي البحيرة الخالية.

سكنوا الكهوف المظلمة بدلاً من البيوت المشيّدة .. بدلاً من أن يشربوا الماء من الأنهار الجارية صاروا رهينة الأمطار المتباعدة.

أكلوا التمر وسعف النّخل والحشرات بدلاً من سمك الأنهار ولحم الأبقار وبَيض الدجاج ولذّات الوادي الكثيرة. كانت الغابة خالية من كل شيء: لا أنهار ولا طيور ولا حيوانات. لا شيء سوى الأشامسة والحشرات والنخيل والكهوف التي سكنوها.

لقد كانت فترة ملكه نقطة سوداء في تاريخ مملكته العظيمة .. ما الذي يقوله قومه عنه الآن خلف الأبواب المغلقة؟ لم يكن بحاجة إلى هذا السؤال؛ فقد كانت نظرات قومه كافية. وإن لم تكفِ تلك فقد بدأ بعضهم يتذمّر علنًا. لقد فقد كلَّ شيءٍ بسبب الإنس. بسبب جابر ورفاقه. حتّى مفتاح الوادي الذي توارثه جيلاً بعد جيل.

صار رجلاً ذليلاً بعد أن كان ملكًا عزيزًا.

قطع عهدًا على نفسه أنّه سينتقم .. سيجد طريقةً ما للعودة. لن يذكّرهم بالجبل أو الحكيم ، وسيبقي بعضهم في وهمهم ويجعلهم عبيدًا ، وسيبيد البعض الآخر .. سيحرمهم من كلّ شيء.

(٢)

كان الضَّيْمُ ينهش جسد الملك طارش الذي بدأ يفقد الرغبة في النوم والأكل .. صار انطوائيًّا لا يحدّث أحدًا بشيء ، مهووسًا بالعودة. جاب غابة الألف ألف ألف نخلة باحثا عن طريقة عودة. مرّت الأشهر فالسّنون وهو يمشي بلا هوادة ، يبحث عن حل. يجوب الغابة من غير دليل. وفي يومٍ من الأيّام سمع أصواتًا في أعماق الغابة.

(٣)

لم يكن الأشامسة مصدر الأصوات؛ فقد تركهم الملك في مكانٍ بعيد عن هذا الجزء من الغابة .. مشى الملك طارش ببطء تكاد تلامس أطراف قدميه الأرض. تخفّى خلفَ نخلة وألقى نظرة وإذا به يرى بشريين واقفين في ساحة بيضاوية خالية من النخيل .. تحلّقت حول البشريين مجموعة من الصخور متباينة الحجم.

بَدَوَا تائهَين مذعورين ، في يدِ كلٍّ منهما رسالة .. تلك

الرسالة التي تسمح بدخول الوادي .. تلك الرسالة .. ***تلك التذكرة!***

سمع الملك طارش صوت حركة في الجهة الأخرى من السّاحة .. اتّسعتْ عيناه لرؤية "المالك" وجنده المتلثّمين. سيق البشريّان إلى جهة الوادي حتى لم يعد لهما أثر.

ومع استقرار آخر غبرة من خيول "المالك" رأى الملك طارش في هذا المشهد بريقَ أمل.

(٤)

عاد طارش إلى تلك السّاحة في اليوم التّالي ، والذي يليه ، والذي بعده دون أن يأتي أحد. تعدّدتْ المواسم وتبدّلت الفصول دون أن يرى أحدا .. لا البشر ولا المالك ولا جنده .. لم يكن طارش يعلم متى يأتي البشر وكيف. مرّتْ السنون وهو يقطع الساعة أو أكثر حتّى يصل إلى الساحة دون كلل.

أصيب الملك بإحباط؛ فصار يأتي كلّ يومين ابتداءً ، ثمّ كلّ أسبوع ، ثمّ كلّ شهر. وأحيانًا يرى آثارًا جديدة على الساحة الخالية من النّخيل تشير إلى أنّ مجموعة جديدة أتت وذهبت أثناء غيابه؛ فيُجنّ جنونه. ثمّ يعاود يأتي يوميًّا حتى يفقد بعض الأمل وتقل مرّات زيارته للمكان.

ظلّ يسير شاردًا فوق أديم الأرض منطويًا على نفسه. مرّت سنون أخرى ثم بدأ قومه يستخفّون به. عيّروه؛ حتى فقد هيبته. قرّر الملك أن يعتزلهم ولم يجد مكانًا أفضل للعيش من بقعة مجاورة للسّاحة. عاش الملك وحده لسنوات طويلة حتّى ظنّ أنّه سيفقد عقله. وفي ليلة مكتملة البدر جاء اليوم الموعود.

(٥)

غلبَ النّعاسُ الملكَ واضطجع على جنبه. داعبت النسائم

جبينه في ليلة وضيئة. حلُم الملك بعودته إلى الوادي تراءى له احتفال قومه فخرًا بقائدهم. يطلقون الصيحات في الأثير ، وتطير المفرقعات في السماء. لكنّ صوتَ المفرقعات كانَ غريبًا ، لأنّه لم يكن صوت مفرقعات ، ما هذا الصّوت؟

استفاق الملك طارش وأدرك أنَّ الصوت لم يأتِ من حلمه ، بل من الساحة أمامه. نظر إلى السّاحة ولم يصدّق ما رأى .. أجسادا هامدة للتو وصلت. لكن وصلت من أين؟

لا يهم. حانت الفرصة وكان الوقت ضيّقًا. عليه أن ينجز خطّته التي رسمها منذ سنين.

دخل السّاحة ، وتأمّل الأجساد الملقية بعينين متّسعتين: رجلٌ طويلٌ ذو أذنين كبيرتين ، وامرأة منمّشة الوجه ، و ... ***وجدتُّها!*** رأى الملك طارش أقصر الأجساد طولاً: شابًّا قصيرًا عند طرف السّاحة.

سحب الملك الجثّة خارج الساحة ، ثم بدأ يخلع ثياب البشري. لبس الملك حُلّته الجديدة ، ثمّ أخذ الرّسالة التي كانت مع الرجل ووضعها في جيبه. بدأ الرجل الملقى على الأرض يستفيق ، فأخرج الملك خنجره مباشرةً. نظر الرجلُ إلى الملك مذعورًا ، لكن قبل أن يصرخ وضع طارش يده اليسرى على فم الرجل وقال: «مرحبًا بك في الوادي» ، ثم طعنه في قلبه.

(٦)

انتبه طارش إلى أنّ البشر بدؤوا يستفيقون ، فعاد مباشرةً إلى السّاحة. رأى ثلاثة يقفون مع بعضهم البعض. اقترب إليهم بحذر ، وقال بنبرة متلطفة ولكن متماسكة: «مرحبًا. أنا بدر» ، قال: أوّلهم «مرحبًا. سامي» ، ثم أشار إلى رجلٍ طويل وامرأة وقال: «مريم ورمزي». بينما ابتسمت مريم نظر رمزي إليه

بارتياب، قال الملك طارش: «تشرّفنا».

(٧)

كانتِ الأحداث تسير وفقَ خطّته. أدخلته الرّسالة الوادي. استرجع الملك طارش، الوعد الذي قطعه على نفسه: ***لن أجعلهم يتذكّرون الجبل، وسأبقيهم في وهمهم، ثم سأبيدهم وأسبي بقيّتهم.. سأحرمهم من كلّ شيء!***

مشى في طرقات الوادي منتشيًا. لكنّهُ أجّل هذه المشاعر إلى وقت لاحق: الآن عليه الاجتماع ببقيّة الأشامسة. وقبل أن يخطو خطوةً أخرى رأى الماحي في الأفق. ***إن قرر الماحي أن يذكّر البشر في الوادي؛ فسيكون أكثرهم خطرًا.*** ساير الملك طارش، أو "بدر"، الماحي ذلك اليوم.

بعد أن قام بتصفيته تلك الليلة، أمر بجمع الأشامسة والاجتماع في الأنفاق السرّيّة. جاء الأمر بسيطًا: دلّوني على المهاجرين الجدد لأقتلهم بنفسي. ولا بد أن يكونوا بمفردهم بعيدين عن الأنظار. لا نريد استثارة جاسم وجنده.

وهكذا نجح بدر في تصفيتهم جميعًا عدا أربعة. أفلَتَ أيّوب من بين يديه، ولم يستطع إيجاد الثلاثة الآخرين.

عندما خرج المعتوه أيّوب إلى السّاحة عرف الملك طارش أنَّ قواعد اللعبة قد تغيّرت.

(٨)

نادى ذو الأذنين الطويلتين: «ولكن كيف توصّلت إلى سامي في تلك الليلة»؟ ابتسم بدر: «أصدقاؤكم؛ أصدقائي»، قطَّب رمزي حاجبيه: «ماذا»؟ زفر بدر زفرةً ثم قال بنبرة غاضبة: "لا تكن غبيًّا"، قال: «صديقي صحصح». انتظر الملك طارش

للحظات لعلّ رمزي يفهم لكنّه بقي في حيرته.

كان بدر يتلذّذ باللحظة هذه؛ نظر بعدها إلى مريم ورأى علامات الفهم ترتسم على محيّاها. اتّسعتْ عيناها ، وقالت: «فؤاد»؟! أشار إليها بدر بسبّابته وقال: «ذكيّة دائمًا».

(٩)

زفّ فؤاد خبر موقع سامي ومريم ورمزي إلى الملك طارش .. أمره الملك أن يبقى قريبًا منهم ، حتّى إذا ناموا ليلا بقي في مكانٍ قريب يراقبهم ويبلغه متى ما كان أحدهم وحده.

جاءه فؤاد يخبره أن سامي أخيرًا سيكون وحده. انتظر فؤاد عند شقّة رمزي ومريم كما أمره بدر .. علم أنّه سيوصل الفتاة إلى منزلها وسيعود وحده. كانت هذه فرصته. عندما عرف بدر لحق بسامي قبل أن يصل إلى شقة رمزي ومريم. كاد أن يقضي عليه لولا تدخّل الطّويل ذي الأذنين الكبيرتين.

(١٠)

بعدما ظهر أيّوب في السّاحة كان لابُدَّ من تغيير الخطة .. قرّر الملك طارش الانتقال إلى الخطوة الثّانية: إيجاد المفتاح الذي سيسمح له بتحريك السفن الهوائية؛ لقطع البحيرة الخالية ومن ثمّ فتح أبواب الوادي لقومه. كان متأكّدًا أنهم سيضعون المفتاح في غرفة الأسرار. لكن كيف يصل إلى الغرفة؟

كان هناك طريقين إلى الغرفة. الأوّل عن طريق القصر ، والآخر عن طريق المكتبة. لكن لو دخل أحد الأشامسة من القصر لسُجن مباشرةً فالأشامسة ممنوعون من القصر؛ وأما الطريق المؤدي إلى غرفة الأسرار من خلال المكتبة؛ فقد كان لا بد من الدخول إلى القسم المحظور أوّلاً لأجل الوصول إلى غرفة الأسرار.

والقسم المحظور كان مغلقًا ولا أحد يملك المفتاح سوى الملك الزّائف وبنوه؛ لذلك انتشى الملك طارش فرحًا عندما علم بسارة .. ما أجمله من خبر. أخبره فؤاد بأنّ الأميرة سارة تنوي الذهاب إلى غرفة الأسرار وكانت فرصته الذّهبية.

أصيب بدر بخيبة أمل عندما علم أن درج الملك كان خاليًا ، لكن فؤادا المخلص أبى إلا أن يأتيه بالأخبار الجميلة. بعدما سمع فؤاد سارة تقول في الأنفاق أن الملك الزّائف جابر كان يلبس دائمًا سلسلة في عنقه ولم تكن تعرف ما تخفي أوصل فؤاد سارة وسامي إلى السلم ثم انطلق ليخبر بدرًا.

كان فؤاد مخلصًا وحسن الصنع لكنّه لم يكن مقاتلاً. لو كان كذلك لأوكل له مهمّة التخلّص من سامي ورفاقه. جاء الخبر باردًا كالثّلج على قلب بدر المحترق .. حسنًا ، المفتاح في رقبة الملك. كيف السبيل إلى الاقتراب منه؟

المشكلة أن الملك الزائف وبنيه كانوا دائمًا محاطين بالحرس. لذا كان على بدر أن يبحث عن طريقة أخرى ليصل إليهم. أخبره الأشامسة أن الوزير أكثر شخص لديه حريّة للاحتكاك بالملك. وكما أن الوزير كان مناسبًا نظرًا لقُربه فقد كان مناسبًا أكثر نظرًا للقناع الذي كان يلبسه.

لو استطاع بدر اغتيال الوزير وانتحال شخصيّته سيكون وصوله إلى الملك سهلاً جدًّا. ونجح في تحقيق ذلك.

(١١)

نظر سامي إلى بدر وهو يصف الأحداث بانتشاء .. كم كانوا مغفّلين بإبقاء فؤاد بقُربهم .. ***كانت سارة على حق؛ لا ينبغي الوثوق بالأشامسة.***

لكن ، ألم يكن فؤاد رفيقه؟ كيف يخونهم؟ تذكّر سامي حكمةً قرأها: «لا تخف ممّن تحذر ، ولكن احذر ممّن تأمن».

نادى بدر: «فؤاد ، تفضّل». نظر سامي إلى باب الغرفة ولم يكن أحد هناك. هزّ بدر رأسه نافيًا وابتسامته الصفراء تعلو محيّاه. أشار بيده إلى اللوحة التي تخفي الباب السّرّي؛ خرج فؤاد ومعه أحد الأشامسة.

بينما ذهب الثاني إلى باب الغرفة وقفله ، وقف فؤاد بجانب بدر ثم نظر إلى سامي بعينين باهتتين دون أيّة تعابير على وجهه. نادى سامي: «لماذا يا فؤاد»؟ قال فؤاد باقتضاب: «أرضنا هذه. وأخذها هذا» وأشار إلى الملك بازدراء ثم قال: «واستعادتها يجب».

نظر إليه سامي مستغربًا .. بدا وكأنّه شخصٌ آخر تمامًا. صاح بدر: «هل قفلتَ الباب يا سحيم»؟ أومأ سحيم إيجابًا.

قال رمزي: «لا أفهم؛ لماذا إذن ساعدتنا في الخروج من السجن»؟ قال فؤاد: «بحاجة أنا إلى البقاء مع سارة. أسمع معلومة عن مفتاح الوادي لعلّي. ثمّ في الأنفاق أخبرتنا. الملك دائمًا يلبس سلسلة .. أخبرتُ الملك طارش. المفتاح لابد أنّه في السلسلة».

لم يزل بدر يقف خلف الملك ، وخنجره على عُنُق الملك. أمسك بدر جبين الملك وسحبه إلى الوراء ليكشف عن عنقه أكثر. مرّر أصابع يده على السلسلة التي كانت على رقبة الملك جابر ثمّ أدخل يده في صدر الملك وأخرج قرصًا ذهبيًا معلّقًا في السلسلة.

كان القرص يشبه ذاك الذي استخدمه المالك؛ لفتح بوابة الوادي .. قرّب بدر الحلقةَ من عينيه وبدأ يشدّ السلسلة على رقبة الملك أكثر: «كفى» نادى الملك جابر. لكن بدرا لم يكن يسمع. كان مسحورًا بالحلقة. نادى الملك جابرا مجدّدًا: «أنتَ ...» ثمّ غصّ

وهو يحاول أن ينتزع الحلقات الحديدية من على رقبته. انتبه بدر لما يحدث ، وقال متهكّمًا: «أنتَ؟ أنتَ ماذا؟ تخنقني»؟ بدأ الملك يركل الفراغ أمامه. فتح فَمه وأغلقه محاولاً استنشاق الهواء.

قال بدر: «مفتاح الوادي جعلته عند قلبك. الوادي جعلته في قلبك. لكنه لم يكن لك يومًا»؛ تلوّى الملك حتّى وقع على الأرض لكنّ فؤادًا ثبّته كي لا يفلت. شدّ بدر على الحلقات الحديدية ، وقال: «وها هو الوادي يهلكك». غرغر الملك واحمرّ وجهه ، وقال بدر في تلذّذ: «مممممم». بينما أشاحتْ مريم وجهها بقي سامي ورمزي ينظران غير مصدّقين.

(١٢)

كان جسد الملك ملقًى على الأرض .. زالت الحُمرة عن وجهه وظهرت علامات بنفسجية على عنقه تشبه الحلقات الحديدية التي كانت تخنقه.

نظرَ الملك طارش إلى الثلاثة أمامه ، وقال – وهو يتلاعب بالخنجر – : «نبدأ بمن الآن»؟ وقف رمزي أمام مريم واقتربَ سامي منهم. نظروا إلى الملك ، ثمّ إلى فؤاد. قال بدر: «إليه لا تنظروا .. إليّ انظروا .. إلى الملك انظروا» ، قال رمزي: «ولمَ تريدون قتلنا؟ نحن لم نفعل شيئًا ، بل بالعكس ، نحن دعونا الناس لترك الوادي». قال بدر: «لقد حرمني البشر من مملكتي .. ومِن الجبل سأحرمهم». ثمّ أكمل: «مرّتان حاولتُ قتلك يا سامي .. لكن لا فرار الآن».

قال سامي: «مرّتان»؟ قال الملك: «الأولى أفلتَّ منّي بسبب ذي الأذنين هذا» ، مشيرًا إلى رمزي. ثم وكأنّه للتوِّ؛ تذكّر أمرًا مهمًّا ، قال: «أوه. صحيح. لم أخبركم. من تظنُّ أعطى فيروز الخنجر»؟ وأشار إلى الخنجر الذي كان بيده؛ «الخنجر كان

موجهًا إليك لكن الأميرة الجديدة سارة منعت ذلك».

استرجع سامي الأحداث .. لقد رأى علامات الغضب على الأميرة بعدما ألقى كلمته في السّاحة. لكنّه لم ينتبه من أين جاءت بالخنجر. اتّسعتْ عيناه. ولأول مرة منذ مقتل سارة؛ شعر سامي بشيء آخر غير الحزن: شعر سامي بالغضب.

«أيّها الوغد» ترددت أنفاس سامي في غضب وهو عاجزٌ عن تمالكها .. توجه إليه سامي ، وقال: «سأشنقك من أعلى الجبل» لكنّه توقّف مباشرةً عندما سمع صرخة مريم من خلفه.

لم ينتبه أحد لكنّ الرجل الثّاني الذي يُدعى سحيم؛ تسلّل خلف مريم. استدار سامي ليرى سحيمًا يمسك مريم وفي يده خنجرٌ يلامس ظهرها.

توقّف سامي مدهوشًا ، ثمّ قال الملك: «لم تخبرني. بمن نبدأ الآن»؟ كان الجميع ينظر نحو بدر في تلك اللحظة ينتظرون ماذا سيفعل. ابتسم بدر وأومأ برأسه إيجابًا لسحيم. مباشرةً سمع سامي صوت جسدٍ يسقط أرضًا خلفه.

خاف سامي أن يستدير .. ***مريم .. هل يُعقل؟ لا يُمكن !***

(١٣)

في صباح ذلك اليوم انطلقَ أيّوب متلثّمًا وأخوه عمر حائر يمشيان إلى السّاحة .. انتقل عمر من عدم قناعة إلى حيرة؛ خصوصًا بعدما رأى ردود أفعال النّاس؛ عندما وضع أيّوب إعلانه: "انظروا إلى الجبل" في الساحة.

الآن ، يأمل أيّوب أن تنجح خطّة سارة في تذكير بقيّة أهل الوادي .. قبل وصوله إلى الساحة بدقائق رأى أيّوب شيئًا مثيرًا .. رأى فؤادًا يمشي مع بدر.

لكنْ ألم يذهب بدر إلى الجبل؟ ما الذي يفعله هنا؟ ومع فؤاد! قرّر أيّوب أن يتعقّبهم .. سار وراءهم إلى أن رأى الوزير يمشي في نفس الزقاق! مشى فؤاد وبدر وكأنّهما لم ينتبها لوجوده ، ولكن في لحظة مفاجئة؛ دفعاه إلى زقاق دون أن ينتبه أحد. دخل ثلاثة إلى الزقاق: الوزير وبدر وفؤاد. لكن لم يخرج إلا فؤاد والوزير.

بعد أن ابتعدا؛ خرج أيّوب وعمر من مكمنهما واقتربا من الزقاق. وجد أيّوب رجلاً غريبًا مشوّه الوجه قد مات مطعونًا بنفس الطريقة التي قُتِلَ بها المهاجرون الآخرون ، وأدرك أنّ بدرًا قد قتل الوزير وانتحل شخصيّته.

استمرَّ أيّوب وعمر يلاحقان بدرًا وفؤادًا حتّى افترقا. دخل بدر بزيِّ الوزير إلى الشّرفة ، ثمَّ توجّه فؤاد إلى المدرجات. جلس أيّوب وأخوه خلف فؤاد وأحد الأشامسة في المدرّجات .. عينٌ ترقب الأحداث في الشّرفة وعينٌ أخرى ترقب فؤادًا.

توالتْ أحداث الشّرفة وتكشّف لعمر أنّه كان يعيش وهمًا طِوال هذه السّنين. كان يجب أن يدور حديث طويل بين عمر وأيّوب لولا أنَّ فؤادًا والذي معه تحرّكا نحو الأنفاق .. واتّبع أيوب وعمر الأشامسة حثيثًا.

(١٤)

سمع سامي صوت الجثّة تسقط خلفه ، ولم يقدر على الالتفات .. كيف له أن يرى شخصًا عزيزًا يموت بعد سارة ، وفي اليوم نفسه؟ لكنَّ ردّة فعل بدر أمامه شكّكته في النتيجة التي وصل إليها ، إذ اتسعت عيناه ، ثمّ تمعّر وجهه.

التفت سامي ليرى ما حدث.

تسلّل رجلٌ طويلٌ عريض المنكبين مفتول العضلات شديد الشبه بأيّوب وأسقط سحيمًا أرضًا. أبقاه أيّوب أرضًا في حين احتضنت مريم زوجها.

في هذه الأثناء وبسرعة غريبة تحرّك فؤاد وبدر مباشرةً إلى الجهة الأخرى من الطاولة التي صارت تحول بين المجموعتين.

أمسك بدر الحلقة الذهبية بيده والخنجر بالأخرى واستمرّ يمشي مع فؤاد بمحاذاة الطاولة مبتعدًا عن سامي ورفاقه. بدأ الحرس يطرقون الباب .. نظر بدر وفؤاد إلى الباب ، ثمّ نظرا إلى اللوحة التي تخفي المدخل السرّي وانطلقا إليه مسرعين.

ركض سامي مسرعًا قبل أن يفرِّا. لم يكن يفكّر في الملك ، ولا في الوادي ، ولا في شيء سوى سارة . ***اللعين تسبّب في قتلها*** . قبل أن يصل بدر إلى المخرج قفز سامي في الهواء ويداه ممدودتان نحو بدر ، واصطدم به.

طارت الحلقة من يد بدر حتّى سقطت قرب قدمي فؤاد.

وقع بدر على وجهه ، واعتلاه سامي الذي بدأ يلكمه. لم يعُدّ سامي اللكمات لكنها كانت كثيرة! الغريب في الأمر أنَّ بدرًا لم يقاوم ، وتبيّن لسامي أنّه لم يكن هناك داعٍ لضربه .. لم يكن هناك داع لذلك أبدًا .. لاحظ سامي أنَّ الدّم بدأ يسيل من بطن بدر .. ابتعدَ سامي مستغربًا ، ووقف فؤاد مذهولاً.

اقتربَ رمزي ، وقلبَ جسد بدر ليجد الخنجر قد غرز في بطنه: عندما ارتطم به سامي وقع بدر على الخنجر. كان منظر بدر يشبه تمامًا منظر الماحي والوزير وسوسن وغيرهم. ***يا للسخرية***. ساعد رمزي سامي على النهوض. ***هل ماتَ فعلاً؟ بهذه البساطة؟*** استندَ سامي على رمزي ، ثم لاحظ أنّ فؤادًا خطا بهدوء نحو اللوحة والحلقة في يده ، ثمّ خرج من الغرفة.

قال رمزي: «سيأتي ببقيّة الأشامسة لا شك». تحوّل صوتُ الطرق على الباب إلى صوت ارتطام ، قال عمر: «لا ينبغي أن نقلق من الأشامسة؛ الآن علينا أن نقلق من الذين يقفون خلف الباب. سيكسرونه في أيِّة لحظة ، ويرون الملك ميّتًا ثم سيتّهموننا بقتله». اعتدل سامي في وقوفه وقال: «معك حق. هيّا بنا نحو الأنفاق. بسرعة». خرج سامي ورفاقه من نفس المدخل السرّي الذي هرب منه فؤاد.

استطاعوا أن يعيدوا اللوحة إلى مكانها قبل أن يتمكن الحرس من كسر الباب . وبرغم أنّ مجرّد دقيقة أو أكثر مرّت منذ هرب فؤاد إلا أنّ صوت خطواته المتسارعة بدتْ بعيدة جدًّا.

نزل الجميع بسرعة من السلّم . عندما وصلوا إلى الأرض قالتْ مريم: «علينا أن نتلثّم إذا خرجنا؛ حتّى لا يتعرّف علينا أحدٌ. لن تكون رحلةً سهلة».

الفصل السادس والعشرون: الرِّحْلَة

(١)

اخترقَ المهاجرون طرقات المدينة شمالاً نحو الجبل. اغتسلتْ أسقف المباني بضوء القمر ، ووقفتْ بهيّة براقة في عينيْ رمزي الذي كان يتأمّل المدينة بأملٍ ممزوج بحسرة .. كانَتْ تجربة رمزي مختلفة تمامًا .. لكن ، أليستْ الحياة كذلك: كلٌّ يعيشها بطريقة مختلفة؟

كان يرى في الوادي حياةً جديدة؛ فرصة أخرى ليحقّق فيها أمنيته. ألم تمشِ سارة بعد أن كانت مقعدة؟ ألم يُبصِر أيّوب بعد أن كان كفيفًا؟ ربّما شُفيَ هو وزوجته أيضًا؟ ربّما استطاعوا الإنجاب الآن؟

وماذا إن لم يحدث .. ***كانت هناك فرصة إيجاد الثّمرة؛ أليس كذلك؟*** لقد تبيّن لرمزي مدى خطئه بعد سماعه لقصّة أيّوب ، لكن ... ***أكاد ألمسها. الفرصة قريبة جدًّا تكاد تستحق المجازفة.***

انساق سائرًا خلف أصحابه. بدا له أنّه وصل الوادي صباح اليوم .. كأن لم يلبث فيه سوى يوم أو ساعة. تلاطمت أمواج الأفكار حتّى كاد أن يصاب بالدوار. تأمّل أصحابه يسعون نحو الجبل بسكينة وإصرار .. ساعده هذا المشهد على ربط جأشه وإكمال الطريق.

(٢)

مرَّت الليلة بأكملها وهم يمشون. شعر رمزي أنّها كانت ليلة طويلة جدًّا .. أطول من اللازم .. كأنّها كانت ثلاثة أيّام .. ربّما

كانت كذلك . *أليس الوقت غريبا هنا؟*

هبّت نسمة باردة مع خيوط الفجر الأولى ، وازدادت المدينة بهاءً. سمع رمزي زقزقة العصافير كأنّها تغنّي وداعًا لهم. استمرّوا في سيرهم حتى بدأت المباني تختفي شيئًا فشيئًا.

وصلوا إلى طرف المدينة ، وانكشفت أرضٌ غير ممهّدة زاخرة بالنّخيل ، ومن خلفها وقف الجبل شامخًا. نزل رمزي من دَرَجٍ حجريٍ قصير ، وأعلنت العتبة الأخيرة وصولهم إلى آخر نقطة في المدينة.

بمجرّد أن هبطوا الدرج توقّفوا جميعًا مباشرةً. حال بينهم وبين طريق الجبل شيءٌ لم يروه في حياتهم من قبل. أمال رمزي رأسه محاولاً معرفة ما هو .. امتدّت أمام أبصارهم مادّة هلامية شفّافة. تعقّبها رمزي بعينيه يمينًا ثمّ يسارًا ثم رفع رأسه؛ ليرى أنّها كانت مثل القبّة التي تطوّق المدينة بأكملها.

كيف لم ينتبه إلى هذه القُبَّة من قبل؟ لم يعلم؛ لكن الآن مع وصوله إلى طرف المدينة وقف هذا الحاجز الشفّاف بكل وضوح. نظر رمزي إلى سامي الذي بادله النظرة الحائرة أيضًا.

اقترب رمزي من الحاجز ، وتفحّصه بعينيه ، ثم مدّ أصبعه. نادتْ مريم: «انتبه رمزي»! توقّف رمزي للحظات ، ثم واصل حتى لمس الحاجز .. اخترق أصبعه المادّة السّائلة كما يكسر الحجر سطح الماء وتكوّنت تموّجات دائرية.

تفجّرتْ صورٌ لم يعهدها في مخيلته: صورته وهو يعيش في الوادي مع مريم بمعيّة طفلة في غاية الجمال ذات عينين خضراوتين وشعر كستنائي .. انتقل رمزي إلى عالم آخر .. إلى

حقيقة أخرى فيها سعادة وهناء. كانت هذه الحقيقة في غاية القرب: يستطيع شمّها ويكاد يلمسها.

أحسّ بيد مريم تلامس كتفه وفورًا؛ سحب يده من المادّة. بمجرّد أن فعل ذلك عاد إلى وعيه تمامًا. سألت والقلق يعلوها: «هل أنتَ بخير»؟

نظر رمزي إلى الأثير حائرًا ثمّ همهم كأنّه يخاطب نفسه: «سنُرزق ... طفلة ...هنا». نظرتْ إليه مريم: «رمزي. رمزي. ما بك يا رمزي»؟ رفع رمزي بصره ونظر إلى زوجته: «لا ...لا شيء».

قالتْ مريم: «كيف تقول لا شيء ووجهك أبيض كالورق. ماذا جرى»؟! التفتَ رمزي إلى زوجته قائلاً: «الوادي ... لا يريدنا أن نتركه».

قال أيّوب: «دعني أجرّب» ، ثم مدّ يده ولمس المادّة. رأى رمزي عيني أيّوب تتّسعان. كأنّه ذهب إلى عالم آخر؛ أمسَك عمر بكتفي أخيه وسحبه إلى الوراء.

نظر أيّوب إليهم عابس الوجه. قال رمزي: «هل فهمتَ ما أعنيه»؟ أومأ أيّوب إيجابًا. التفتَ رمزي إلى مريم التي نظرت إليه في حيرة ، ثم قال: «بمجرّد أن تلمسين هذا الحاجز يُخيل إليكِ أن كلّ ما تتمنّينه موجودٌ في المدينة» التفتَ إلى أيّوب وأكمل: «غمرني شعور..» ثمّ أغلق كفّه وفتحها كأنّه يحاول إمساك شيء في الأثير: «غمرني شعور شوق عارم إلى المدينة».

اقتربت مريم من الحاجز ومدّت سبّابتها ، ولكن قبل أن تلمس المادّة توقّفت ثمّ أعادتْ يدها.

قال سامي: «علينا أن نندفع فنخترق هذا الحاجز مسرعين» .. أومأ رمزي ، وقال: «صحيح .. أخشى ... أخشى أن نمشي ببطء

فلا نحتمل أثره›› نظر الجميع إلى بعضهم البعض حائرين ولسان حالهم يقول: ما الحل؟

قالت مريم: ‹‹حسنًا .. لتنجح الفكرة .. دعونا أولاً ننظر إلى الجبل بتركيز .. ثمّ لعلّنا نستحضر صورة أمنيتنا في ذهننا .. ثمّ بعد ذلك لنقم بـ ...›› اندفع عمر دون أن ينتظر تتمّة حديثها واخترق الحاجز.

نظر الجميع إلى بعضهم في صمت ، ثم علّقت مريم: ‹‹أو يمكننا فعل ما فعله عمر››. وصل عمر إلى الطرف الثاني ، ووقف على بُعد أربعة أو خمسة أمتار منهم. استند على ركبتيه وكأنّه يركع ، ثم فجأةً ، تقيَّأ.

(٣)

قفز الجميع إلى الطرف الآخر ولم يبقَ إلا رمزي .. ألقى نظرةً أخيرةً إلى المدينة .. كانتْ براقةً بألوانها ، زاهيةً بالآمال التي تحملها. أغمض عينيه وقفز.

(٤)

لم يكن رمزي استثناءً: اجتاحته صورٌ في غاية الرّوعة ، تدعوه إلى البقاء. ولم يكن استثناءً أيضًا: حالما وصل الطرف الآخر تقيّأ حتّى أخرج كل ما في معدته. ربَت عمر على كتف رمزي: ‹‹هيّا يا صديقي ، الألم بسيط››.

جلس رمزي على الأرض واستند على يديه. التقطَ أنفاسه اللاهثة وهو مغمض العينين ، ثم فتحهما ليرى الجبل أمامه. كان الجميع ساكنين دون حركة ، ***ما خطبهم؟*** التفت رمزي ومباشرةً عرف ما الخطب.

كان الجميع مشدوهين وهم ينظرون إلى المدينة. وقف رمزي

بجانب زوجته وتأمّل المنظر المهيب. هل هذه المدينة نفسها التي كانوا فيها طِوال هذا الوقت؟! كانت أصغر بكثير! كانت المباني متهالكة ، والنباتات ذابلة ، والأشجار شاحبة ، بل حتّى الدرج الذي نزلوا منه كان متآكلاً.

تحولت المدينة إلى حُطام ، وركام ، وأطلال! بمجرّد أن تجاوزوا الحجاب. تساءل رمزي في نفسه: ***هل كانت كذلك طوال مكوثنا فيها؟ هل كنّا مسحورين؟ أم هل أعمانا بريقها؟*** تأمّل المدينة الباهتة الخالية من الألوان: ***هل كنتُ سأضيع حياتي لـ ....هذا؟!***

(٥)

مشى المهاجرون نحو الجبل في صمت.

استنشقَ رمزي الهواء العليل وكأنّه يتنفّس لأوّل مرّة .. تأمّل النخيل من حوله وكأنّه يُبصِر لأوّل مرّة. سمع زقزقة العصافير وكأنّه يسمع لأوّل مرّة.

بعد بضعة دقائق .. سمع رمزي شيئًا آخر أيضًا. توقّف تمامًا ليستمع. سأل سامي: «رمزي ، ما بك»؟ توقّف الجميع الآن ونظروا إلى رمزي الذي وضع سبابته قرب فمه ثم قال: «هل تسمعون»؟

ابتداءً ، كان الصوتُ مندثرًا تحت صوت هبوب الرياح وزقزقة العصافير وحسيس أقدامهم. بعد ما توقّفوا وألقَوْا السمع ارتفع الصّوت شيئًا فشيئًا: دمدم ، دمدم ، دمدم.

قالت مريم: «ما هذا»؟! من جديد ، سمع المهاجرون: دمدم ، دمدم ، دمدم. قال عمر: «قرع الطبول»؟

لكن من الذي يقرع؟ التفتَ رمزي إلى المدينة وتفحّصها ثمّ صاح وأشار إلى أعلى الحافّة التي نزلوا منها أوّل ما وصلوا

الوادي: «انظروا»!

التفتَ الجميع إلى حيثُ يشير رمزي ورأوا آلاف الأشامسة يهبطون على الوادي كالمطر ، بل كالأمواج. برغم أن الحدث كان بعيدًا جدًّا عنهم ، إلا أنّ غزارة الأشامسة كانت واضحة بالنّسبة لهم.

قال سامي: «يبدو أن فؤادًا نجح» ، قالت مريم: «لن تكون معركة سهلة .. ستقاتل اللعينة فيروز حتى الرمق الأخير». تأمّل الخمسة الأشامسة يهبطون من فوق كالنّمل.

قال سامي: «هل تعتقدون أنّنا تركنا أثرًا»؟ قالت مريم: «أعتقد ذلك. لقد سمعتُ بعضهم في المدرجات يتواعدون على التّوجّه إلى الجبل صباح اليوم .. لو انتظرنا قليلاً ربّما نرى بعضهم».

قال سامي: «هل سيأتون فعلاً»؟ خطا عمر إلى الأمام وقال لسامي: «أنا هنا؛ بسبب ما فعلت في الساحة» وضع أيّوب يده على كتف سامي ثمّ قال: «بالنّسبة لي هذا يكفي لأن أكون مدينًا لكم».

(٦)

عندما جَنَّ الليل استعدّوا للمبيت وأخرجوا العُدَّة الموجودة في الصرّة السوداء. تغامزت النجوم من فوقهم ، وأطلّ القمر عليهم متبسّمًا .. كانوا خارج المدينة لأوّل مرّة ، لا السحاب يبطن مكرًا ، ولا النّخيل يقدّم وهمًا.

نصب رمزي ومريم خيمتهما الصّغيرة في جهة تبعد بضعة أمتار عن خيَام الشباب ، وانطلق أيّوب وأخوه يتحاوران عن الوادي والجبل والحياة ، وبقي سامي وحده عند الشّعلة يملؤه الفقد.

قالتْ مريم: «ما زلتُ لا أصدّق ما فعله فؤاد» ، قال رمزي

وهو يتأمّل النّجوم: «لقد أخذ البشر أرضه ، وسكنوا مساكنهم ، وطردوا كبارهم ، وأسَرَوا صغارهم» ، ثم ركل حجرة صغيرة على الأرض ، وقال: «ما قام به البشر يشابه تمامًا ما قامت به إسرائيل؛ فؤاد وبدر أبطال» ، قالت مريم: «لكنّهما تسبّبا في مقتل سارة وكادا يقتلوننا».

سكت رمزي يتفكّر ثمّ قال: «أتصوّر أنّه لم يكن قرارًا سهلاً. لكن كانت هذه فرصتهما الوحيدة ، ولكل حرب ضحايا».

تأمّلتِ مريم زوجها ولم تقل شيئًا. نظر رمزي إلى سامي وحيدًا والشعلة تتراقص أمامه ثم قال: «ما حدث لسارة مؤسف. أتمنّى أن يجدها إذا عدنا».

التفتت مريم نحو سامي .. توهّجت وجنتاه حمرةً وصفرةً على أثر الشعلة المتراقصة أمامه. همستْ: «أتمنّى ذلك أيضًا».

(٧)

وقف رمزي عند سامي وقال: «قُمْ هيّا» لم يجادل سامي واكتفى بالسؤال: «إلى أين»؟ مدَّ رمزي يده ، وقال: «نشُم هوا».

مشى الاثنان بين النّخيل الممتدة ، قال رمزي: «أنتَ تعلم أنّها لم تمتْ حقيقةً» ، قال سامي وهو يتأمّل الأرض: «أعلم ذلك» ، خطا بضع خطوات ، ثم قال: «الموت واحد .. حتّى إذا عدنا إلى الرياض سنواجه الموت يومًا ، وسيكون أيضًا محض فراق مؤقت ، لكنّ الفراق سيبقى أمرًا حزينًا».

استمرّا في السير قليلاً ، ثم قال رمزي: «هل تظنُّ أنّك ستلقاها»؟ أجابه سامي: «كيف لي ذلك وليست لدي أية معلومة بإمكانها أن تدلّني على عنوانها». ركل رمزي حجرةً ولم يقل شيئًا. لم يكن هناك ما يمكن فعله.

(٨)

مرّت ثلاثة أيّام وهم يسعون باتجاه الجبل ، كلّما ظنّوا أنّهم اقتربوا؛ امتدّ الطريق بهم أكثر وكأنّ الجبل يبتعد عنهم كلّ مساء.

في منتصف النّهار انقطعت النخيل فجأة وخلت الأرض من أيِّ شيءٍ سوى التراب. تصاعدتْ أبخرة من الأرض كأنّهم يمشون على قِدْرٍ يغلي. انبسطتْ الأرض الخالية أمامهم لا شيء يُظلّهم من أشعّة الشّمس.

نفثتْ أحذيتهم الغبار مع كلّ خطوة ، وبالنّسبة لرمزي لاحظ أنّه كان ينفثُ المدينة من خاطره مع كلِّ خطوة أيضًا. صار الوصول إلى الجبل فقط ما يشغله. ومع نموّ هذا الانشغال بدأ يشعر أنّه صار الجبل ، وأن الجبل صار هو. كان يتنفّس ويرى ويشمّ الجبل.

شعر بصفاء وهو ينغمس في هذه الرحلة. لم يشتكِ أحد من الطريق أو من حرارة الشمس أو من قلّة المأكل والمشرب. كانت الرّحلة أبردَ ظل وخيرَ غذاء وأشفى شراب.

تفكّر: ***ابتدأتُ هنا وغايتي الجبل ، وفي أيّام بسيطة صارت غايتي الثّمرة ، بعدها تحوّلتْ إلى تأمين مسكن ، ثمّ العمل ، ثم جمع الآرامات.***

الغايات الزائفة لا تنتهي. كلّما حقّقت واحدة تحلُّ مكانها أخرى. لأظلّ لاهثًا خلفَ ... خلف وهم. الغاية الحقيقية ليست هنا ، إنّها خارج الوادي.

وأنا أسعى نحو الجبل أستشعر المعنى في كلّ خطوة أخطوها وكلّ نفسٍ أتنفّسه ، وأدرك أن العبرة في السَّيْر نفسه لا في الأشياء البارقة التي كنت ألهثُ خلفها.

لقد نسيتُ الجبل. ولا أحد يتحمّل المسؤولية سواي.

(٩)

أمّا مريم فقد أخذت أفكارها منحًى آخر تمامًا. كانت مستغرقة تتأمّل كيف نسيَ آلاف النّاس حقيقة بحجم الجبل الماثل أمامهم.

المصيبة بدأتْ من قلّة قليلة قرّرت أن تبقى حتى استسهل الناس البقاء. بدأتْ قلّة قليلة تنادي إلى البحث عن الثمرة وتأجيل الذهاب إلى الجبل، حتى تعوّد النّاس على هذه الفعلة، ثمّ تقبّلوها، بل استساغوها!

هذا الحريق بدأ بشرارة. وهذه الشرارة كانت ممارسة النّاس للخطأ في العلن.

تذكّرت الأخبار التي قرأتها في جريدة "الوادي اليوم" عن سارقين سجنوا، أو غشّاشين اعتقلوا .. تفكّرت: ***الحريات الفردية يتم تقويضها في الوادي بحسب ضررها على الآخرين .. ومفهوم الضرر لديهم منحصر في الأضرار الملموسة في حياة الوادي؛ فيعاقبون النشّالين والغشّاشين والسارقين. أمّا الأعمال التي تضر بآخرة المجتمع فلا يعدّونها ضررًا؛ بل يتركون الناس يفعلونها بذريعة (الحرية الشخصية) أو أنّها (إيمانيات خاصة).***

أطرقت برأسها متأمّلة: ***لكن ... بمجرّد أن يفعل الإنسان فعلاً خاطئًا في العلن، فهذا مباشرةً يجعله فعلاً مستسهلا، مقبولا، ومن ثم مستساغًا أيضًا.***

أليس هذا ضررًا ينبغي تقويضه؟ أم لأنها أفعالٌ علنية لا تضر بحياة الوادي الملموسة يعدونها مقبولة؟! لكن الأفعال التي تضر الحياة المقبلة الحقيقية أكبر ضررًا من تلك التي تضرّ بحياة الوادي المؤقتة! قالت بتندّر: بما أنّهم نسوا أن حياة الوادي مؤقتة أليست هذه نتيجة

طبيعية؟ لكن ...

أخذها تفكيرها إلى منحنًى آخر: ***لكني ألوم الآخرين كثيرًا وأنسى أني المسؤولة عن ذاتي. أوليس إصلاح الذات أولى الخطوات؟ انشغلتُ بملامة الآخرين دون أن أفعل أيّ شيء. انشغلت بالبعيدين عن القريبين: كيف تركتُ رمزي ينسى الجبل؟ كنت بهذا التأمل أضيع وقتي ... لا أنا التي أصلحت بيتها ، ولا أنا التي ذهبت إلى الجبل ، فصرتُ بذلك ... مثلهم.***

(١٠)

كان هدوء الطّريق وخُلُوُّهُ من أيّ شيءٍ كالمصفّي الذي سمح لسامي أن يطير في فضاء أفكاره دون مقاطعة.

مَثُلَتْ أمامه حقيقةٌ واحدة: عندما تجرّنا الحياة للانشغال بدقائق أمورها ، فهي بذلك تُنسينا عظائم أمورها. ننظر من زاوية ضيّقة إلى لوحة الحياة الفسيحة ، فلا نرى منها إلا طرف "البرواز".

عندما تغيب الوُجهة الكُبرى تفقد الطُّرُقُ معناها. انشغل أهل الوادي بالوادي ، ونسوا حياتهم الحقيقية ، فضاعت بوصلة أولويات الأفراد والمجتمع.

(١١)

وقف سامي فجأةً ، واصطدم به رمزي ، الذي اصطدمت به مريم أيضًا ، ثم قالت: «ما بك..»! ولم يحتج أحد أن يجيبها ، فقد وصلوا إلى الجبل.

الفصل السابع والعشرون: الوَجْه البَاكِي

(١)

استقبلهم وجهٌ باك. أو على الأقل كان يشبه وجهًا باكيًا. اخترق كهفٌ بيضاويٌّ متناسق الأطراف سفح الجبل ، ومن فوق الكهف عن اليمين والشّمال فتحتان بيضاويّتان كأنّهما عينان؛ انسكبَ من إحديهما ماء ومن الأخرى تُراب.

هبوب الرياح الصادرة من داخل الكهف كانت كصوت نواحٍ مكتوم.

لم يكن هذا المنظر الشيء الغريب الوحيد .. تناثرتْ مئات – أو ربّما آلاف – الصُّرر السّوداء حولَ المكان. كانت مشابهة تمامًا لتلك التي كانت معهم .. تلك الصرّر التي أعطاهم إيّاها المالك وجنده. بالإضافة إلى الصّرر رأوا آلاف الآرامات والأدينات المبعثرة.. وكأنّهم وقعوا على كنز مفقود خبّأته قراصنة. لكنّ الكنز لم يكن مخبأً. كانت الآرامات متناثرة في العلن. تركوها هكذا وذهبوا.

شعر سامي بقشعريرة تسري في رقبته ، واقترب رمزي ومريم من بعضهما البعض. وقف الجميع أمام هذا المشهد المهيب وقد خانتهم الكلمات.

(٢)

قطعت مريم الصمت: «انظروا»!. لو كانَ للوجه الباكي لسان لكان ذلك ما كانت تشير إليه مريم. كانوا طوال الأيّام السّابقة

يمشون على أرضٍ ترابية غير ملفتة للنظر. لكن أرضية المساحة البسيطة أمام الكهف والتي امتدّت إلى داخله كانت مختلفة تمامًا .. "مختلفة" قد لا تكون الكلمة المناسبة .. كانتْ مرعبة.

قالت مريم: «إنّه..» ولم تُكمل .. ضاعتْ الكلمات .. ربضَ سامي على الأرض ، مستندًا على يده اليمنى ، ثمّ تفحّص الأرض وقال: «ما هذا»؟

اقتربَ أيّوب وقال: «كأنّه جلدُ..» ، ثم أمال رأسه وحدّق بعينيه ، وأكمل: «كأنّه جلدُ بشر». كان "اللسان" الممتدُّ من داخل الكهف إلى بضعة أمتار أمامه يشبه تمامًا جِلْدَ البشر. وكأنّ أحدًا سلخ آدميًّا وفرش جلده عند مدخل الكهف.

قالت مريم: «كجلد البشر .. بالضبط»! استمرّ سامي يتمعّن الأرض ، ثم همهم وكأنّه يخاطب نفسه: «إنّه مكوّن مما يُشبه حُبَيْبات التراب ، أو ...هل هذا طين؟ أم جلدٌ .. مطحون»؟ فضلاً عن شكل الأرض المريع ، كان هناك شيئًا آخر .. كانت الأرض تتموّج كالبحر.

رفع سامي نظره مرّة أخرى إلى "الوجه الباكي". كانت المياه الخارجة من العين اليمنى والتراب المسكوب من اليسرى يلتقيان عند مدخل الكهف وينحدران بعدها إلى داخله. وكأنّ اختلاط الماء والتراب صنع هذا "الطين" أو "الجلِد المطحون".

انتبه سامي أنّ نقشًا صغير الحجم كُتبَ تحت كلتا العينين. وقف سامي ونفض التراب من يديه ثم اقترب من العين اليُمنى التي كانت تسكب ماءً.

تجنّب سامي وطء الطين اللازب وقرأ ما تحت العين بصوتٍ مسموع: «خلق من الماءِ بشرًا».

ذهب رمزي بدوره إلى العين اليُسرى التي كانت تسكبُ ترابًا

متفاديًا لمس الجلد المتموّج في الأرض أيضًا. قرأ ما نُقِشَ هناك بصوتٍ مسموعٍ: «خلقكُم من تُراب».

(٣)

عاد رمزي وسامي واصطفا جنبًا إلى جنب مع البقية أمام مدخل الكهف . وضع رمزي كفّه الأيمن على ذراعه الأيسر المقشعر. جلسّ أيّوب على الأرض واحتضن ركبتيه وهو يتأمّل المشهد. ووقف عمر مكتوف الذراعين بصمت .. أمّا مريم فأنصتت إلى عويل الكهف بذعر.

(٤)

بعد مدّة شعر سامي أنّها ساعات قالت مريم: «ما معنى هذا»؟ تمتم سامي: «لا أدري»!

قال أيّوب: «يذكّرني هذا بشيءٍ كان يقوله لي أبي». ثمّ نظر إلى أخيه وقال: «أتذكُر»؟ حدّق عمر في وجه أخيه محاولاً أن يستحضر ما قصده أيّوب دون جدوى.

قال أيّوب: «كان أبي يقول: كلّنا من تراب .. إذا ولد المرء في أسرة غنية أو بيئة آمنة أو وُلد بهيئة جميلة أو في صحة جيّدة أو من قبيلة ذات صيت فلا فضل له بذلك .. تذكّر ذلك جيّدًا؛ كلّنا من تراب .. أيُّ فضلٍ يكون فيه الإنسان فهو بسببٍ خارجٍ عنه». سكت أيّوب ليسترجع بقيّة حديث أبيه ، ثم أكمل: «لا مجالَ للكِبْرِ .. لا مكان لأن يعتقد أحدٌ أنّه خيرٌ من غيره. كلّهم من تراب. متى ما تحرّر الإنسان من تلك الأوهام المزعجة عالية الصوت سيدخل سكون التواضع فيه ، ومتى ما استقرّ هذا السكون؛ فبإمكانه أن يستمع إلى نقصه ، ويُنصِتَ إلى الحقيقة؛ إذا ما لاحتْ أمامه».

سكت الجميع دون أن يقولوا شيئًا قبل أن يعقّب أيّوب: «أو

هكذا قال››.

قال رمزي: ‹‹يبدو أن والدك كانَ شخصًا رائعًا››.

قال أيّوب وهو يتأمّل فتحة الكهف: ‹‹كان كذلك حقًّا››.

(٥)

ما العمل الآن؟ كان هذا السؤال الحاضر عند الجميع. ‹‹علينا القيام بشيء›› قال سامي ، قالت مريم: ‹‹هل ينبغي أن نمشي على هذا الشّيء؟ أو نسبح فيه››؟ ‹‹لديَّ فكرة›› ، قال رمزي مباشرة. أخذ الصرّة السوداء وأخرج منها قطعة آرام ثمّ رماها نحو الأرض الغريبة: الجلد البشري المتحرّك. بينما قطعة الآرام تطير نحو لسان الكهف توقّفتْ فجأةً وسقطت على الأرض. ‹‹هيه››؟ تعجّب رمزي. أخرجَ قطعةً أخرى ورماها فارتدّت وكأنّها اصطدمت بشيءٍ خفيٍّ ووقعت القطعة عند قدمي رمزي.

مدّ سامي يده إلى المكان في الفراغ الذي ارتدّت عنده قطعة الآرام ولم يحدث شيء ، قال أيّوب: ‹‹دعني أجرِّب››. وهذه المرّة ، أخرجَ جلدة الخيمة التي كانوا ينامون تحتها ، ثم فتحها بكلتي يديه ورماها تجاه الكهف. اصطدمت الجلدة بالحاجز الخفي وتشكّلت على هيأة قبّة ثم بدأتْ تنزلق حتّى سقطت أرضًا.

قالت مريم: ‹‹هذا يفسّر سبب وجود كل هذه الصرر والآرامات المرمية هنا›› ، قال سامي: ‹‹إذن لا يمكن لأي شيء الدخول إلى الكهف سوانا››؟ أومأ أيّوب قائلاً: ‹‹يبدو كذلك .. كما جئنا هنا من غير شيء سندخل الجبل من غير شيء››.

وضع رمزي يديه على وركه وتأمّل ، قالتْ مريم: ‹‹متأكّد أن كل من أفنى عمره في الوادي بجمع الآرامات سيشعر بأنّه مغفّل جدًّا إذا ما قرّر الدخول إلى الجبل››.

سمـع الخمسـة دويّ الرعـد. مـدّ سـامي بصـره إلى الأعلـى واسـتقبلته قطـرة علـى جبينـه. برقـت السـماء ، وأعطـت الـرذاذ الخفيف ضوءًا أخضر بالتساقط.

لاحظ سـامي أنَّ المياه كانت تضرب الحـاجز الخفي وترتـد فاتّضـح شـكله: كـان مقوّسـًا بالكامـل مـن أمـام مـدخل الكهـف. تسـاقطت القطـرات علـى الأرض مـن حـولهم وتصـاعدت رائحـة الرطوبة المختلطة بالطين.

بعـد لحظـات ، تلبّـدت السّـماء بغيـوم سـوداء كثيفـة ، ثمّ – وكأنّها انشقّت – بدأ المطر ينهمر بغزارة. احتمى بعضهم بأياديهم وآخرون بالصرّة التي كانوا يحملونها ، لكنّ ذلك لم يكن كافيًا.

قـال سـامي: «هـل نـدخل»؟ قـال عمـر بحـزم: «هيّـا. أريـد العودة إلى منزلي». قال أيّوب: «وأنا كذلك».

اخترق عمر الحـاجز الخفي ووقف على الأرض الغريبـة أوّلاً. نظـر إليـه الأربعـة للحظـات ، ثمّ عنـدما لم يحـدث لـه شـيء تقـدّم سامي وأيّوب. مدّ رمزي يده إلى مريم ، وقال: «هيّا بنـا» ثمّ تقدّما أيضـًا.

كان الإحساس بالأرض تحتهم غريبًا .. كان الطين يتموّج إلا أنّه كان يحملهم. كأنّهم يمشون على رمال متحرّكة لم تقرّر بعد ما إذا كانت تريـد ابتلاعهم أم لا. بعـد أن مشـوا بضـع خطـوات مـن الحـاجز الشـفاف نحـو الكهف قال سـامي: «انظروا.. هنـاك شـيء مكتـوب فـوق فوّهـة الكهـف أيضـًا» اقتـرب الجميـع وقـرؤوه: «مِنْهَـا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ».

(٦)

بدا الكهـف مـن فـرط الريـاح الـتي هبَّـت داخلـه؛ كأنـه يأخـذ

نفسًا عميقًا. شعروا بالريح تدفعهم للدخول. دخل الخمسة الكهف مترقّبين. ما إن دخلوا حتّى توقّف المطر وانقشعت الغيوم ورأوا السماء مشمسة من خلفهم. لم يقولوا شيئًا واكتفوا بالنظر إلى بعضهم البعض.

لم يكن الكهف مظلمًا. رأى سامي فتحات صغيرة في سقف الكهف وجدرانه اخترقت أشعّة الشّمس من خلالها الظلمةَ. من أين جاءت هذه الفتحات الدقيقة التي امتدّت من أعلى الجبل إلى هنا؟

تأمّلوا المكان الذي بدا ابتداءً كأيٍّ كهف: ضيّقا وممتدا.

بعد مشي دقيقتين أو أكثر انبلج الممرُّ إلى مغارة متّسعة محاطة بالجدران من كلٍّ مكان. كان سقف المكان قصيرًا يكاد يلامس رأس رمزي. رأى سامي أسماء مكتوبة باللون الأبيض .. كانت أغلب الأسماء مشطوبة بخطٍّ أفقي. توزّع الخمسة يتأمّلون الأسماء المشطوبة. قرأ سامي الأسماء: ***مشعل اليتيم، محمد سعيد، سارة القاصد، فهد التام***، ثمّ أعاد سامي النّظر من جديد، ***سارة القاصد***. تأمّل اسمها وشعر بغُصّة. لمس اسمها بأطراف أصبعه في حسرة. وقفتْ مريم بجانبه ورأت اسم سارة المشطوب.

«ما الفرق بين الأسماء المشطوبة وغير المشطوبة»؟ نادى رمزي. لم يجبه أحد. بعد دقائق نادتْ مريم: «أظنُّ أنّي عرفتُ الفرق» ، ثمّ أشارتْ إلى مجموعة أسماء لم تكن مشطوبة. اقتربَ منها رمزي وقرأ: «سامي الغريب؛ رمزي حافظ ، مريم أبو النّجا». في اللحظة نفسها ، نادى أيّوب: «اسمي هنا غير مشطوب أيضًا». قال عمر: «وأنا كذلك».

أشار رمزي إلى الأسماء المشطوبة: «هذه أسماء الذين تركوا الوادي ... مَن يا تُرى أتي هنا وشطبها»؟

بدأ سامي يبحث عن اسم والدته بين آلاف الأسماء. وأنى له إيجاد الإبرة في كومة القش هذه؟ صرختْ مريم فجأةً وأشارتْ إلى موضع قدم رمزي: «رمزي»! نظر رمزي وانتبه فجأةً أنّ الأرض قد ابتلعت نصف ساقه.

نظر البقية إلى موضع أقدامهم ورأوا الشيء ذاته. وكأنَّ سطح "المياه" الطينية ارتفع. سرتْ عاصفة من القلق وهرع الجميع نحو مدخل الكهف. استطاعوا الخروج من الكهف لكن عندما حاولوا الوقوف على الأرض الترابية خارج "لسان الوجه الباكي" اصطدموا بالحاجز الخفيّ الذي اخترقوه أثناء دخولهم. سمح لهم الحاجز بالدخول ، لكنّه لم يسمح لهم بالخروج .. حاولوا مرّات عدة وفي أماكن عدة دون جدوى.

قال رمزي: «سامي ما العمل»؟! نادى سامي: «هيّا بنا إلى الدّاخل. ربّما يوجد طريق من الجهة الأخرى» ، عاد الجميع بأسرع ما يستطيعون إلا أنَّ الطين كان يسحبهم شيئًا فشيئًا. وصلوا إلى الحجرة ذات الأسماء وبحثوا فيها عن مخرج دون جدوى. تأمّلوا الجدران في هلع .. لا شيء.

قال عمر: «فلنبحث في الممر! ربّما يوجد مخرج هناك». توجّهوا عائدين إلى ممر الكهف إلا أنّ أيوب لم يتحرّك ونادى: «توقّفوا». التفتَ إليه الجميع ما بينَ حائرٍ ومستغرب ومؤمّلٍ. قال رمزي: «هل وجدتَ الطّريق»؟ قال أيّوب: «إلى أين أنتم ذاهبين؟ لقد فتّشنا في كلّ مكان. ولا مكان للخروج من هنا إلا من هذا الطريق» ، وأشار إلى موضع قدميه ، قبل أن يحتج أيٌّ منهم أكمل أيّوب: «كما جئنا إلى الوادي؛ سنخرج .. نحن لن نعيش في الوادي أبدًا. ما بكم هل نسيتم»؟

هل كان لديهم خيارًا آخر؟ لم يكن المكان كبيرًا. لم يكن هناك مخرجًا. لم يكن هناك إلا طريقٌ واحد: الأسفل. كانَ هذا ما

يمليه المنطق ، إلا أنَّه لا مكان للمنطق عند الموت.

وقف الجميع تتنازعهم مشاعر الحيرة والقلق وقلّة الحيلة. لم يكن لكل آرامات الدنيا وثمارها أن تعوّضهم في تلك اللحظة. هل كانت هذه النّهاية؟ بهذه البساطة؟ طينٌ يجتمع بطين؟ ترابٌ يلفّه التراب؟

وصل الطين إلى رقابهم الآن. احتضن رمزي مريم ولم يرفعا أعينهما عن بعضهما البعض ، قال رمزي: «أحبّك»؛ ووضعتْ مريم رأسها على خدّ زوجها. بقي أيّوب بقرب أخيه عمر في صمت.

لم تبقَ سوى أنفاس قليلة الآن. قلّب سامي طرفه في سقف الغار ، وفي لحظاته الأخيرة رأى اسمًا مشطوبًا وارتسمت ابتسامة على محيّاه.

كانتْ آخرَ الكلمات التي دارت في ذهنه قبل أن يموت: ***سامية العقيق. أمّي.***

الفصل الثّامن والعشرون: الحَكِيْم

(١)

شيئًا فشيئًا بدأ سامي يستعيد وعيه. أحسّ بمادة لزجة تحيط به من كل الجهات. فتح عينيه؛ ليجد نفسه محاطًا بسائلٍ لزج ، وشفّاف من جميع الجهات. انتقل من سكون السبات إلى قلقٍ الحركة.

رفع ظهره هلعًا؛ وكسر سطح السائل ثم أخذ شهيقًا قويًّا.

التقط سامي أنفاسه وهو يمسح السائل عن عينيه ثم نظر من حوله.

كان يستلقي في حفرةٍ قاعها من طين متشكّلة على هيئته. توسّطت الحفرة الحجرة الصغيرة التي تكوّر سقفها. نظر إلى الأعلى وانتبه أن السقف قد امتلأ بالأبخرة المتحرّكة. وكأنّها تلك التي توجد في كُرة المنجّمين السحرية.

بدأت الأبخرة تتفكّك لكن قبل ذلك هل رأى سامي شيئًا من بين الخيوط البيضاء؟ هل كُتِبَ اسمٌ ما باللون الأبيض؟ هل كان مشطوبًا؟ لم يستطع سامي معرفة الجواب. تفككت خيوط الأبخرة تمامًا.

لم يكن للحجرة مخرج سوى فتحة واحدة تشبه الباب ووجد عندها شعلةً مضيئة.

كان عاريًا تمامًا كيوم ولدته أمّه. وضع يديه على الأرض ، ورفع نفسه. شعر بدوارٍ وضعفٍ عند قدميه .. كاد أن يفقد توازنه لولا أن استند على الجدار.

بدا المكان مألوفًا. وجد عند المخرج ثوبًا أبيض معلّقًا .. لبسه ووجد حجمه ملائمـًا. خطا سامي خطوة خارج الحجرة ، ووجد نفسه في ممرٍ طويل مظلم يمتد إلى اليمين والشمال.

عن يمينه كانت هناك شُعلة تضيء آخر الممر تتجه نحوه. وقف سامي يتأمّل الشّعلة حتّى رأى طفلة لم تتعدَّ عشر السنوات تلبس ثيابًا بيضاء وتنظر إليه بسكينة. شعرها الكستنائي كاد يلامس خَصرها من طوله. لمعت عيناها على أثر الشعلة وكشف عن لونها الذي طابق لون شعرها.

هل كنتُ هنا من قبل؟

شعر سامي بالصداع ينهشه. نظر إليها للحظات ، ثم قال: «هل أعرفكِ»؟

قالتْ: «مرحبًا بك سامي». سألها سامي: «تعرفينني»!

قالت: «نعم». قال: «مَنْ أنتِ»؟ قالت: «أنا ياسمين».

التفتت ، وقالت: «هيّا» ، ثم بدأتْ تمشي من حيثُ أتت.

(٢)

كان الممرُّ مظلمًا لولا شُعلة ياسمين. التفتَ سامي ورأى حجرات عن يمينه وشماله. لم يستطع أن يرى ما بداخلها بسبب العتمة الشديدة ، لكن خُيِّل إليه أنه رأى أجسادًا داخل حُفر شبيهة بحفرته. همهم سامي: «هذه مساكننا»؟

قالت ياسمين: «صحيح». ثم عقَّب: «وأين نحن»؟ قالت ياسمين دون أن تلتفت: «أنت في الجبل».

أتبع جوابها بسؤال: «وكيف جئتُ إلى هنا»؟ قالت: «أنتَ هنا مذ وُلدتَ».

توقّف سامي مباشرةً ثم توقفت ياسمين والتفتت. قال سامي: «لكنني كنتُ في الوادي قبل قليل ، ثمّ أنا وُلِدتُ في الريّاض».

قالت ياسمين: «هنا مسكن رُوحك التي كانت هنا مذ ولدت. أمّا جسدك يكون حيث يكون».

قال سامي: «لم أفهم»!

تغيّرت تعابير وجه ياسمين لأوّل مرّة ، وظهر أنّها تتفكّر ، ثم قالت: «أنتم في دنياكم لديكم تلفاز ، صحيح»؟

أومأ سامي إيجابًا ، أكملت: «لا يوجد شخص فعليًّا داخل صندوق التلفاز ، صحيح»؟

همهم سامي: «نعم». قالتْ: «جسدك التلفاز. والبثُّ من الجبل .. والآن هيًّا»!

ما هذا؟! وما هذه الألاعيب؟!

وصلا إلى بابٍ حجريٍّ كبير أعلاه مقوّس. عن يمينه وشماله مصباحٌ مضيء. تركتْ ياسمين الباب عن يسارها وأكملتْ المشي.

قال سامي: «أليس الطريق من هنا»؟ قالت ياسمين دون أن تلتفت: «ولمَ تظنُّ ذلك»؟

سكت سامي ولم يجب. هل جيء به إلى هنا من قبل؟ ***هل جئتُ وكنتُ أظنُّ أنّني أحلم؟*** كان كلُّ شيء: الكهف ، ياسمين ، الباب الحجري ، كلّهم مألوفون جدًّا.

(٣)

وصلا إلى بابٍ آخر .. ألواحٌ خشبية طولية اصطفّت عموديًّا لتشكّل الباب. أمسكتْ ياسمين بحلقة حديدية سوداء عُلِّقت في

وسط الباب ثمّ فتحته.

خرج ضوءٌ شديد القوّة من الحجرة. أغمض سامي عينيه ثم وضع يده أمامهما ليحميهما. دخلتْ ياسمين وقالت: «تفضّل».

احتاجت عيناه بضع لحظات لتتكيّفَ مع النّور السّاطع.

وجد سامي نفسه في حجرةٍ كبيرة. كانت الجدران الحجرية تحيط بالحجرة من ثلاث جهات ، أما الجهة المقابلة للباب فكانت جدارا زجاجيًّا بالكامل. لم يستطع سامي أن يرى ما في الخارج نظرًا لشدّة الضّوء.

شمّ سامي رائحة غريبة؛ حاول أن يتعرّف عليها ولم يستطع. هل كانت رائحة خشب منشور؟ أم أوراق شجر؟ أم بهارات مطحونة؟ كانت الرائحة تنبعث من كل مكان وشعر سامي بسكينة تعتريه.

تأمّل سامي الحجرة الخالية من حوله: توسّط الحجرة محراب ، وامتدّت حوله أربعة قوائم حجرية تصل بين الأرض والسقف.

أمامه عند الجدار الزجاجي مكتبٌ خشبي مهترئ ، منصوبٌ في يمين الغرفة. رأى سامي فراش نوم ، ومن خلفه مكتبة مليئة بالكتب. مشى سامي نحو المكتبة ، وتأمّلها مكتوف اليدين .. لم تكن محضَ كتب تعتلي الأرفف ، بل إضافةً إلى ذلك مخترعات غريبة الأشكال: مثلّثة ودائرية ومستطيلة؛ معقّدة وبسيطة؛ صغيرة ومتوسّطة الحجم؛ ذهبية ونحاسية وفضيّة وحديدية. شعر سامي أنّه يقف أمام متحف مخترعات عبّاس بن فرناس أو الزهراوي. كانت الآلات لا تعمل: ساكنة تجمّع الغبار.

التفت سامي ورأى بجانب السرير سبع ساعات مصطفة على الحائط. الأولى كُتِبَ عليها: مكّة ، وكان هناك عقربين ، واثني

عشرة ساعة ، أمّا الساعات الأخرى فلم يستطع قراءتها. واحدة منها كانت لديها ثلاثة عقارب ، تتحرّك باتّجاهات مختلفة ، وأخرى فيها ست ساعات فقط. *إن كانت ساعات أساسًا!* تأمّلها سامي جميعًا متعجّبًا.

مشت ياسمين نحو الباب ، ثمّ قالتْ: «انتظر هنا». خرجتْ مباشرةً ، وأغلقت الباب قبل أن يستطيع سامي أن يوقفها ويسألها سؤالاً آخر.

بقي سامي وحده في الحجرة لا شيء يحيط به سوى أسئلته.

بدا الشّقّ الأيمن من الغرفة أثريًّا ، بل ربّما بدائيًّا .. لكن عندما انتبه سامي للنصف الأيسر من الغرفة تغيّر رأيه تمامًا. عند الجدار الأيسر اصطفّت مئات الشاشات الصغيرة فوق بعضها البعض كأنّها فُسيفساء.

اقتربَ سامي بحذر .. كانت محضَ شاشات ، لكن وجودها في هذا المكان بدا غريبًا إلى حدّ الرّيبة . مشى قرابة عشر خطوات حتى وقف أمام الشّاشات يتأمّلها: كلّها صغيرة عدا واحدة كبيرة في المنتصف.

كانت كلّ شاشة تعرضُ شيئًا مختلفًا. عدا شاشة واحدة كبيرة كانتْ مغطّاة بقطعة قماشٍ أسود. هل كانتْ لا تعمل؟ أم هل كان صاحب الحجرة لا يريد رؤية ما تبثّ؟ كانت قطعة القماش مُغبرة كأن لم يلمسها أحد منذ قرون.

تأمّل سامي الشاشات الأخرى: واحدة كانت تعرض ما يحدث في ساحة الاحتفال بالوادي ، وأخرى مقبرة الدرعية ، وثالثة تعرض الأهرامات ، ورابعة تعرض سوقًا مزدحما لم يعرف سامي أين يقع؟ وخامسة مدخل الكهف عند الوجه الباكي ، وسادسة تظهر ساحة كبيرة جدًّا جدًّا فيها آلاف المكاتب التي جلس عليها

أناس يشتغلون على أجهزة كمبيوتر ، وسابعة ...

(٤)

عرضتْ الشاشة السابعة ، ساحة فيها مئات الأشخاص الواقفين ، ومن أمامهم رجل يقف على منصّة. كأنّه حاكم أو قاض. لم يرَ سامي إلا ظهره. تقدّم من أمام هذه الجموع رجلٌ مطأطئ الرّأس .. تبادل الاثنان الحديث. ثمّ بعد لحظات ، ذهب الرّجل إلى يسار القاضي وهو يبكي.

مرّت لحظاتٌ ثم تقدّمت امرأة باتّجاه القاضي. وكما فعل الأوّل وقفت تستمع إلى حديث القاضي ، ثمَّ التفتت تدمع. هل كانت دموع فرح أم حزن؟ مشت إلى اليمين.

أثار المشهد سامي؛ وأخذ يتفحّص الشّاشة. وجد تحتها ثلاثة أزرار: الزر الأوّل: كان يحوي صورة مربّعين ، أحدهما صغير والآخر كبير. أما الزر الثاني: فكان يحوي رسم مكبّر صوت؛ في حين ارتسم على الزّر الأخير ، دائرة حمراء ويخطُّها عموديًّا خط أبيض.

الآن ، تقدّم رجلٌ منتفخ البطن ، أصلع الرّأس ، نحو القاضي وبدأ يتحدّث. ضغط سامي على الزّر الثّاني ذي رسم مكبّر الصّوت ، وامتلأتْ الغرفة مباشرةً بالأصوات!

سمع سامي الرجل السمين ، يقول: «أعطني فرصة أخرى» ، لم يسمع سامي إجابة. عاود الرجل مجدّدًا: «أرجوك! أعدني إلى الوادي وسأتّجه إلى الجبل مباشرةً ، لا أريد العودة دون ...». أرعد صوتٌ جهوريٌّ جعل كُلاًّ من الرجل السمين وسامي يقفزان إلى الوراء: «يجب أن تعود؟! وما الذي يميزك عن غيرك»؟! أجاب الرّجل وهو يرتجف: «قتلني الأشامسة»!

جاء الصوت الجهوري مجدّدًا: «كان الجبل أمامك طوال هذا الوقت؛ فتلوك وأنت نائم في فراشك الدافئ وقد اتّخذتَ من الوادي منزلاً».

بدأت دقّات قلب سامي تتسارع وهو ينظر إلى المشهد .. رأى سامي يد القاضي تمتد مشيرةً بالذهاب نحو اليسار.

ارتفع نحيب الرّجل وسمعه يتوسّل: «أرجوك ، لديّ أطفال؛ أنا آسف»! جاء صوت القاضي قاسيًا: «لا تعتذر . إن هي إلا فرصة واحدة».

(٥)

كان العرق يتصبّب من سامي منذ سماعه صاحب الصوت الجهوري أوّل مرّة؛ جلس سامي يمتزج حيرةً وقلقًا وخوفًا وهو يشاهد مصير الواحد تلو الآخر ، كأنّه يوم القيامة.

تقدّم رجلٌ طويلٌ ذو أذنين كبيرتين وبجانبه امرأة منمّشة الوجه. وقف سامي بمجرّد أن رآهما .. هل هما رمزي ومريم؟ هلعًا اقترب من الأزرار تحت الشّاشة. جرّب أن يضغط الزر الأوّل الذي حوى صورة مربّعين.

اسودتِ الشاشة للحظة: «لا..ماذا فعلتَ يا سامي»؟! لكنه استكان عندما رأى أنّ الصورة انتقلت إلى الشاشة الكبيرة التي صارت تنقل الحدث.

وقف رمزي ومريم بقُربِ بعضهما البعض والسكينة تعلو محيّاهما ، سمع سامي الصوت الجهوري يقول: «هنيئًا لكما» امتدّت يدٌ تصافح رمزي وأومأتِ مريم برأسها مبتسمة ، ثمّ توجّها نحو اليمين.

(٦)

بعد مرور عدّة أشخاص أمام القاضي لم يعد سامي يستطيع تحمّل المشهد. كان الصوت جهوريًّا مرعبًا في حين ، ومطمئنًا في حينٍ آخر. أقفل الصّوت وظلَّ يراقب الشّاشة بصمت علّه يرى أيوب أو عمر أو ... سارة.

ترك سامي الشاشات عن شماله ، ثم مشى نحو الحائط الزجاجي. اخترقتْ أشعّةُ الشّمس الأثير حتى استقرّت على المكتب وكشفت عن ذرّات متطايرة في الحجرة.

كان المشهد مهيبًا .. وقف سامي أمام الحائط الزجاجي ورأى مسطّحات الغيوم الممتدّة إلى ما لا نهاية تحجب رؤية ما تحتها. كأنّها مسطّحات من الجليد امتدّت من المدى إلى المدى.

نظر إلى الأعلى ورأى السماء منشقّة: نصفها السّفلي أزرق اللون كما هو لون السماء عادةً ، لكن نصفها العلوي أسود تمامًا. وعندما تأمّل سامي أكثر ، لاحظ أن السواد كشف عن نجوم براقة ، كأنّه الفضاء.

أين أنا؟! هل هو في أعلى جبل الوادي الذي "غرق" فيه؟ ***هل يسمّى غرقًا أم موتًا؟*** هل هو هناك في الأعلى أم في مكانٍ معلّق بين السماء والفضاء؟

أقلعتْ أفكار سامي به إلى المكان الفاصل بين السواد والزرقة. أبحر بين سماوات الأفكار المتلاطمة يتأمّل كلّ ما يحدث له.

منذ جاءته رسالة الحكيم باتت الأحداث الغريبة مألوفة بالنسبة لسامي: رسالة سحرية ، مدخل سرّي في مقبرة الدرعية ، سفنٌ طائرة ، وادٍ معلّق في سماء ، جبل يخترق الفضاء ، غرقٌ في

جلدٍ بشريٍّ مطحون ، موتٌ يتبعه حياة ، والآن هذا المشهد.

منظر السماء المنشقّة في الأفق بدا أمرًا عاديًّا. ***عاديًّا جدًّا! ماذا سأشاهد الآن؟ فيلا طائرًا؟ مثلّثا رباعي الأضلاع؟ الشمس تطلع من الغرب؟ أم ...***

قطع حبل أفكاره صوتٌ جاء من خلفه: «ولمَ يكون طلوع الشمس من المغرب أمرًا مستهجنًا»؟

عقّد سامي حاجبيه والتفتَ. لم يصدِّقْ ما رآه. كان يظنُّ ألا مكان لاندهاش أكثر مما كان. لكنّه أخطأ؛ لأنه يراه الآن أمامه بهذه البساطة!

«لماذا يجب أن تطلع الشّمس من المشرق همم؟ هل لأنَّ قوانين الكون المضبوطة تُحتِم ذلك؟ لكن ... لتكون هناك قوانين مضبوطة للكون تفيد غاية معيّنة ، لا بدَّ للكون من ضابِط يضع هذه القوانين ، أليس كذلك»؟ ابتسم المتحدّث ثمّ أكمل: «حسنًا ، أخبرني ، ألا يمكن للذي وضع هذه القوانين أن يضع غيرها؟ وما هو القانون أصلاً؟ أليس هي عادة عوّدنا الله عليها؟ إن شاء غيّرها هكذا» جمع إبهامه والوُسطى ثم حرّك أصبعيه ليُخرج صوتًا.

وقفَ سامي مشدوهًا ، هل يُعقل أن يكون هو؟ الرجل ذو العمامة الخضراء؟!

(٧)

وقف الرّجل واضعًا كفّيه وراء ظهره يتأمّل سامي ، ورغم أنّه لم يكن يلبس العمامة؛ إلا أنّ نظرته الحارقة كانت هي هي ، والنّدبة المريبة التي شقّت خدّه لم تتغيّر.

كادتْ قدما سامي تخذله .. من أين أتى؟! وهل هو من يقف

خلف كلّ هذا؟ هل الحكيم هو نفسه الرجل الذي رآه أمام مكان عمله: الرجل ذو العمامة الخضراء؟! ***وما كلُّ هذا الذي يتحدّث عنه؟!***

قال الرجل: «بإمكانك أن تقول: إنّك لم تفهم بدلاً من أن تستنكر. هممم» ، قالَ سامي: «أنتَ ..تسمع أفكاري»؟! ابتسم الرجل ثمّ قال: «مرحبًا بكَ سامي».

أشار سامي إليه وقال: «أنتَ الحكيم». نظر الرجل إلى الأسفل ثم ضحك وقال: «إن شئتَ ذلك»! «ماذا تعني»؟ سأل سامي. قال: «أوه. يطلقون عليَّ أسماء شتَّى .. ولو بحثتَ جيّدًا في الكتب السماوية والتفسير وتاريخ الحضارات ستجد ذكرًا لي» ثم ابتسم وأضاف «بلا فخر طبعًا».

فتح سامي فمه ليقول شيئًا لكن خانه التعبير. ***كُتب سماوية وتفسير؟!***

قال الحكيم: «أتعلم أنتَ تذكّرني بمن يا سامي؟ تذكّرني بـ(موسى) عليه السلام».

قال سامي: «موسى»؟ قال الحكيم: «نعم. موسى ...» سكت وكأنّه يتذكر لقاءً قديمًا ثمّ أكمل: «موسى النّبي عليه السلام. تغرّب عن دنياه وسافر. وكلّما رأى شيئًا خارجًا عن المألوف تعجب».

تفكّر سامي: ***النبي موسى؟ وما دخلُ النبي موسى عليه السلام؟***

مشى الحكيم ببطء حتى تجاوز سامي ثم وقف عند الحائط الزجاجي: «بالطبع للأنبياء مكانة لا يصلها البشر. لكن أسئلتك تذكّرني به». سكت قليلاً ثم أضاف وكأنه يدلف إلى موضوعٍ آخر: «كانت سنوات مختلفة في الماضي. البشر تغيّروا الآن. لم يعودوا

جنسًا ساحرًا. آمنوا بالرتابة وأسموها "العلوم"».

وقف الحكيم بقرب سامي وتأمّل الأثير أمامه. كان المشهد أسطوريًّا. الحكيم يقف أمام الفضاء الفسيح ويتأمّل السماء المنشقة. كشفت أشعّة الشمس عن الندبة على خدّه والتجاعيد حول عينيه. بدا وكأنّه شاهد ألف ألف معركة ، وعاش ألف ألف أسطورة.

لم يلتفتْ الحكيم إلى سامي وأكمل حديثه: «هل لكَ أن تتحمّل فلسفتي يا سامي؛ فأنا لم أتحدّث إلى إنسيٍّ منذ زمن؟ نعم أحتك بهم. أؤدي مهمّة بسيطة وأعود إلى هنا ، أمّا أن أتبادل أطراف الحديث ، فلم يعد هناك وقتٌ لذلك».

لم يجبه سامي لكنّه اكتفى بالنّظر إليه. ***مَنْ تكون؟!***

«أنتَ تستغرب من هذه المناظر هممم»؟ أشار إلى السماء المنشقّة وأكمل: «يستقرئ بني آدم العالم. يبحث فيه عن نمط متكرّر. عن أمرٍ اعتاده. عن أمرٍ عوّده الله عليه. ثمّ إن نُقل له خبرٌ صحيح عن أن الله غيّر هذه العادة ... هذا القانون المصطنع ... إن سمع خبرًا صحيحًا عن هذا قال: إنّه أمرٌ محُال. صانع القانون غيّر القانون. ولمَ يكون محالاً؟ باسم ماذا؟ العلم»؟

كتّف الحكيم يديه واستمر ينظر إلى الأفق: «العلم يا سامي ، ينظر إلى أمرٍ حدث في الماضي ثمّ يفترض أنّه سيحدث غدًا. نظر الإنسان إلى النار تُشعل الحطب في الأمس واليوم؛ ثم افترض أنّها ستحدث غدًا. ما الضرورة اللازمة لذلك؟ لمَ يفترض أنّ هناك ضرورة لأن يتكرر ما حدث»؟

ثمّ التفت نحو الشاشات ، وقال: «دعني أريك شيئًا؛ لكن لا تتعجّل في الحكم عليه. ***فما ستراه هو ما أصوره لعقلك لا على الحقيقة***، اتّفقنا»؟ مشى نحو شاشة من الشاشات الصغيرة ،

وضغط على زرٍّ تحتها فانتقل بثّها إلى الشاشة الكبيرة: «أخبرني ، ماذا ترى أمامك»؟

اقترب سامي ثم تأمّل: نقلت الشاشة مشهداً لطلاب في قاعة اختبارات. إلا أن القاعة كانت لا نهاية لها ولا بداية. كان أمام كل طالب حاسوبه – أو ما يشبه الحاسوب على الأقل! إلا أنّ هؤلاء لم يكونوا طلاباً. سأل سامي: «من هؤلاء»؟! قال الحكيم: «هؤلاء يا سامي ، ملائكة».

ملائكة يعملون على حواسيب؟! بدا الجواب سخيفاً لسامي. قال الحكيم: «ألم أقل لك ألا تتعجّل في الحكم؟ والآن قل لي: ما الذي تراه»؟

كان سكوت سامي جوابه. أكمل الحكيم مبتسماً: «هذا هو العلم. هذه هي القوانين. هذه هي العادة! هذه هي الرتابة»!

قال سامي: «لم أفهم» ، قال الحكيم: «هؤلاء الذي يعملون على الحواسيب مسؤولون عن كلّ الذرّات الموجودة في أجسام كلّ البشر. متى ما توجّهت إرادتك إلى فعل شيءٍ حرّك الملك الذرّات اللازمة لحدوث ما تتوقّع حدوثه»؛ قبل أن يسأل سامي ، تحرّك الحكيم ببطء نحو شاشة صغيرة أخرى وضغط زرّاً تحتها. اسودّت الشاشة الرئيسة للحظات ثم عادت وبثّت مشهداً مشابهاً تماماً للمشهد السّابق.

قال الحكيم: «أمّا هؤلاء؛ فهم مسؤولون عن كلّ ذرّات الخشب. ما إنْ يلامسه النّار؛ حتّى يوجّهوا ذرّاته بالاشتعال. وهناك مثلهم بعدد قطرات البحر مسؤولون عن كلِّ ذرّات الكون».

قال سامي: «ولمَ يفعلون ذلك»؟ أجابه: «ليعتاد الإنسان؛ وليشعر بالنّظام في هذا الكون» توقّف الحكيم للحظات وكأنّه يريد للفكرة أن تسكن في ذهن سامي قبل أن يُكمل: «هذه هبة ، هديّة

من الله ، لنتمكّن من العيش دون أن نفقد عقولنا. يأتي الإنسان بعدها ويعتبر هذه العادة علماً. ثمّ يستخدم هذا العلم ليكفر بالله. ولكن حين يفتح عقله وقلبه سيجد في هذا العلم الطريق إلى الله. أمرٌ مثير أليس كذلك»؟

ضغط الحكيم زرًّا لشاشة أخرى ثم ضغط زرّ مكبّر الصّوت؛ وقال: «انظر». كانت الصورة هذه المرّة قريبة من جهازٍ حاسوبي لأحد هؤلاء الملائكة. كان للحاسوب شاشتان.

بثّت شاشة الحاسب الآلي الأولى صورة لقلبٍ ينبض. بدا لسامي أنَّ الملاك كان يتحكّم بكل ذرّة في شريان ووريد القلب. كان يضغط الأزرار حثيثًا ويوجّه حركة سير الدّم.

أمّا الشاشة الثّانية التي كانت أمام الملاك؛ فقد كانت تبثّ مشهدًا لطبيب يقف عند مريض عجوز ومن خلفه أشعّة مقطعية لقلبه ، قال الطبيب: «أعلم أنّك للتو خرجتَ من العملية ، ولكننا استشرنا تسعة أطبّاء» ثمّ لفت انتباه المريض إلى الأصوات الخارجة من جهاز تعقّب نبضات القلب. كانت تصفر بشكلٍ غير منتظم. أكمل الطبيب: «كلّهم أجمعوا -وأنا منهم- أنّ هناك دم متجمّد على القلب ، وعلينا إعادتك إلى غرفة العمليات لفتح القلب مرّة أخرى وتحريك الدّماء؛ لدينا ساعات قليلة قبل أن يسد الدّمُ مجرى الشرايين؛ لا بد أن يُزال الدم المتجلط. لا بُد أن يخرج». بعد استفسارات عدّة وافق المريض على مضض.

بدأت الممرضات بفكِّ الأجهزة تمهيدًا لنزوله. استمرّ الملاك يتحرّك بانتظام كأنّه آلة وبدون تفاعل مع المشهد. انتبه سامي في تلك اللحظة أن الملاك كان يضع جهازًا في أذنه. كأنّه جهاز بلوتوث للهواتف الذّكيّة.

استمرّ الملاك يضغط الأزرار بينما رأى سامي الطبيب في الشاشة الثانية يقول للمريض: «لقد تأكدّنا ومن خبرتنا العلمية

مجتمعين: مستحيل أن يتحرّك الدم بدون التدخل الجراحي. لكن اطمئن ، نحن خبراء في هذا وقمنا بالعملية كثيرًا. وإن شاء الله ستكون الأمور على ما يرام» ، ابتسم العجوز وقال باطمئنان: «الله الحافظ. توكّلت عليه. اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد».

في تلك اللحظة توقف الملاك عن العمل ووضع سبّابته اليمنى على الجهاز في أذنه وأطرق رأسه مستمعًا. أومأ رأسه عدّة مرّات إيجابًا ثمّ خفض يده وعاد إلى العمل. رأى سامي الملاك يضغط أزرارًا مختلفة على لوحة المفاتيح. نظر سامي إلى الشاشة الأولى التي بها صورة القلب ، ورأى حركة دقيقة جدًّا تحدث.

التفت سامي إلى الشاشة الثانية وسمع جهاز تعقّب النّبض يتغيّر صوته. توقّف الطبيب وتوجّه مباشرةً إلى جهاز التعقّب يتفحّصه. التفتَ إلى الممرضة وعلى محيّاه علامات الدهشة. اتصل الطبيب بهاتفه ، وبعد لحظات؛ جاء أطبّاء آخرون. بعد مشاورات عدّة ، قال الطبيب للمريض: «لا أعرف ماذا أقول؛ لكن يبدو أن كتلة الدم تحرّكت. لا أعرف كيف ولماذا؟ ولكن...» ثم نظر إلى زميله وعلامات الدهشة والفرحة تعلو محيّاه: «لا حاجة إلى العملية! سنجري بعض الفحوصات لنتأكّد. لكن .. يبدو أنّك ستكون على ما يرام».

أغلق الحكيم الشاشة والتفتَ إلى سامي متبسّمًا. فهم سامي ما يقصد. لكنّه لم يفهم ماذا يريد؟ ما الغرض من كلّ هذا؟ حسنًا الملائكة تحرّك كل الذرّات في العالم بأوامر معلومة .. ثمّ ماذا؟ لكن... فعلاً هل يحتاجون إلى آلات حاسبة؟! قال الحكيم: «هل تعتقد أنّها آلات حاسبة حقيقية؟ إنها ترمز إلى التدبير والحكمة في هذا الكون الفسيح .. خذ الحكمة ولا تتعلّق بالصّورة يا سامي».

قال سامي: «لمَ تخبرني عن كلّ هذا»؟ قال الحكيم متجاوزًا

سؤاله: «أين أخلاقي؟ أنا لم أضيّفك بعد يا سامي. هيّا تفضّل» ، وأشار إلى مكتبه؛ تفاجأ سامي بوجود إبريق شاي وكأسين لم يكونا هناك من قبل. لم يدرِ كيف عرف أنّ الإبريق كان يحوي شايًا ، لكنّه كان يعرف فحسب.

جلس الحكيم على كرسي مصنوع من الجلد الأسود وأعطى الحائط الزجاجي ظهره. بدأت ذرّات نشارة الخشب في الهواء تدور وتتجمّع حتّى كوّنت - شيئا فشيئا - كرسيًّا آخر أمام مكتب الحكيم. أخذ سامي خطوةً إلى الوراء على إثر ما حدث.

سكب الحكيم الشاي لسامي ، وتصاعدت الأبخرة من الكأس متموّجة. قال الحكيم: «تفضّل». بحذر ، اقترب سامي وجلس على الكرسي الخالي .. نظر نظرة فاحصة إلى الحكيم ثم إلى الكأس ثم أخذه ووضعه أمامه.

ما إن تفكّر أنّه يريد سكّرًا للشاي حتى ظهر عن يمينه وعاءٌ صغيرٌ يحوي سكرًا. وضع قليلاً منه في الكأس ، ثم حرك الملعقة بحركة دائرية فتكوّنت دوّامة صغيرة على سطح الماء.

غاب بخياله بعيدًا متأملاً في البخار الصاعد للأعلى ، وفي الدوامة التي تدور بانتظام كدوامات البحر ، أبحر بخياله في الكأس وكأنه في وسط محيط لا نهاية له .. لم ينتبه إلا على صوت الحكيم يخاطبه: «ألا ترغب بشرب الشاي؟ أم تحبه باردًا»؟ تبسم سامي وارتشف منه رشفة لم يشعر بمثل طعمها من قبل. قال الحكيم مازحًا: «أتُراني ماهرًا في صنع الشاي»؟ أومأ سامي دون أن يقول شيئًا.

سكب الحكيم لنفسه شايًا برويّة ، وعندما انتهى ، اعتدل سامي وقال: «أيّها الحكيم» ، نظر إليه الحكيم وقد بدأ يحرّك السّكر قائلاً: «نعم يا سامي» ، قال سامي: «أحتاج أن تجيبَ على أسئلتي .. أريد أن أعرف حقيقة ما يحدث». ابتسم الحكيم ، ثم

قال: «تريد أن تعرف الحقيقة؟ الحقيقة خطيرة يا سامي .. يرغب في سماعها الجميع ، لكن متى ما خالفت ما يريدونه يتجنّبونها كالمرض .. لذلك علينا أن نكون حذرين جدًّا معها».

قال سامي: «لمَ تخبرني بكلّ هذا»؟ وضع الحكيم كأسه على المنضدة ، وشبك أصابعه ، ثم قال: «دعني أسألك: لماذا يبني الإنسان بيتًا من طين على شاطئ البحر وهو يعلم أنَّ الأمواج ستأتي لهدمه قريبًا؟ لماذا يلهث عطشًا خلف سراب وهو يعلم أنّه لن يرتوي»؟

قال سامي: «إن كنتَ تقصد أن حياة الوادي سراب فهذا واضح: هي حياة مؤقّتة وهمية تخدم حياتي الحقيقية .. ولذلك اللهاث خلفها لن يجدي». ابتسم الحكيم وقال: «وماذا عن حياتك الحقيقية»؟ قال سامي: «وماذا عنها»؟ هذه المرّة اتسّعت ابتسامة الحكيم أكثر وقال: «ألا ترى الشّبه بينها وبين حياة الوادي»؟

رشف سامي رشفةً وتفكّر في الجواب ، ثم قال بعد لحظات: «إذا كانت حياة الوادي مؤقتة ولذلك هي سراب ...» ثمّ نظر إلى الحكيم وأكمل: «فهل تقصد أنَّ حياتنا الدنيوية مؤقتة أيضًا ، وأنّها بذلك تكون كالسّراب»؟ أومأ الحكيم وهو يرتشف الشّاي. قال سامي: «إذا كنا نعيش في سراب ، وحياتنا الدنيوية كحياة الوادي فأين الجبل في حياتنا إذًا»؟

قال الحكيم: «الجبل الذي عليك أن تسعى إليه هو: النجاح في حياة الآخرة: حيث لا مرض ولا جوع ولا خوف ولا منغصات».

قال سامي: «وكيف يكون السّعي إلى حياة الآخرة»؟ قال الحكيم: «بتسخير الدنيا لتحقيق رضى الله .. وكل ما من شأنه ألا يحقق ذلك يعدُّ تضييعا للدنيا».

قال سامي: «هل تقول أنّك تريدني أن أتخلّى عن وظيفتي

ومنزلي وحياتي لأعيش في صومعة أو مسجد مثلا»؟

ضحك الحكيم وكشف عن أسنانه البيضاء اللامعة برغم كبر سنّه. قال الحكيم - وهو يصبُّ لسامي كأسًا آخر - : «سامي يا سامي. عبادة الله من السّعي ، وكذلك عمارة الأرض وإحياؤها دون عصيانه هي من السعي أيضًا. الإحسان في العمل طاعةً لله من السعي ، ومعاملة الآخرين بالحسنة يعدُّ سعيًا. وأي تقدّم حضاري بغاية تبليغ رسالة الله سعي. حتّى الأكل اللذيذ إذا نوينا أن يعيننا على طاعة الله يعدُّ سعيًا. حتّى المرء إذا أتى زوجه بدلاً من أن يأتي الحرام يعتبر سعيًا. فهمت؟ هي ليست دعوة إلى ترك الدنيا ، بل دعوة إلى تسخيرها للهدف الأسمى».

نظر سامي إلى كأسه الخالي متأمّلاً؛ فقطع عليه الحكيم تفكيره بصوت الشاي منسكبًا والبخار يتصاعد منه بانسياب. عاد سامي يتفكّر: برغم أنّه لم يكن يجيب عن أسئلته الحاضرة مثل: لماذا أنا هنا؟ ومن أنت؟ وكيف أتيت بإبريق الشاي من العدم؟ إلا أنَّه أثار فضوله.

أكمل الحكيم: «البشر يا سامي في حالة ذهول عن حقيقة الدنيا وموضعها بين الأولويات .. ماذا سيحدث يا ترى لو تيقنّا واستحضرنا معنى الآية أدناه يوميًّا»؟ ثمّ تجمّعتْ ذرّات صفراء وكوّنت ورقةً تشبه ذات الورق الذي صنعت منه الرسالة.

أعطى الحكيم الورقة إلى سامي فأخذها وأمسكها بكلتي يديه ثم قرأها بصمت ، وكأن الآية تخاطبه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[الحديد: ٢٠].

قال الحكيم: «إذا عرفتَ غاية وجودك؛ ستتحرّر من الدنيا وتسخّرها للنجاح في الآخرة. وإن لم تعرف غاية وجودك ستلهث خلف سراب الدنيا حتّى تصير عبدًا لها .. أرأيتَ السّخرية»؟

أومأ سامي برأسه متأمّلاً كلامه. وضع الحكيم ذراعيه على الطاولة وقال: «ترتيب الأولويات يا سامي له أثرٌ ثوري على حياة الإنسان؛ فتعريف المصلحة والمفسدة سيتغير تماما بناءً على ...» ثمّ رفع يده وقبض سبّابة يده اليمنى وكأنّه يقول (أوّلاً) ، وأكمل كلامه قائلاً: «مكانة الآخرة في هرم الأولويات» ثم قال – وقد ضمّ الوسطى إلى السبابة – وقال: «ويقين الناس بأن الدين هو خريطة النجاح في الدنيا والآخرة ... فبدلاً من التضحية بالدين من أجل مزيد من المال أو التقدّم الاقتصادي سيتم تسخير المال والاقتصاد من أجل خدمة الدين ونيل رضا الله. وبدلاً من وضع أنظمة تحقق تقدّمًا ماديًّا لكنّها تُغضب الله ستقوم المجتمعات بوضع أنظمة تُسَخِّر المادّة لنيل رضا الله .. أيُّ أثرٍ ثوري سيتسبب به هذا الأمر»؟ لم تكن جملته الأخيرة تساؤلاً بل كانت تندّرًا.

قال الحكيم: «بل حتى تعريفنا للمصيبة سيتغير بناء على هرم الأولويات الجديد. ترى ، كم من حقيبة دنيوية ثقيلة ستصبح خفيفة»؟

ثمّ باغت الحكيم سامي بقوله: «أخبرني يا سامي ، كيف شعرت عندما قُتلت سارة». ما ... ما هذا السؤال؟!

ترك الحكيم سامي وكأنه وقع على الجُرح الذي لم يندمل في حياته بعد. بعد لحظات قال الحكيم: «لا بأس يا سامي. ألا ترى تجاعيد السنين على وجهي؟ لم أعد أستطعم شيئًا في الحياة سوى ما بقي لي من ذكريات مع الشاي ، فهو سلوتي وذكرياتي وليس مجرد ما تراه بعينيك داخل الكأس».

قال سامي والوجْدُ واضحٌ في نبرة صوته: «أشعر كما يشعر

أيُّ شخص فقد ...» فقد ماذا؟ حبيبًا؟ أكمل سامي جملته: «فقد قريبًا: أشعر بالحزن».

وضع الحكيم يده اليمنى عند ذقنه وقال: «دعني أسألك سؤالاً آخر: بعدما شعرت بالحزن ، هل تغيّر شيءٌ عندما أدركت أن حياة الوادي هذه حياة قصيرة. وأنّك بانتظار حياة "حقيقية" بعد عودتك»؟

جزء منه كان حزينًا بالفعل لفراقها. لكن عندما تفكّر في حقيقة حياة الوادي القصيرة الصغيرة: خفّف ذلك عنك. كيف لا وهي لم تمت حقيقةً. هي حيّة تُرزق. بل ربّما - ربّما - يراها مجدّدًا.

سأل الحكيم «لعلّي أسألُ سؤالاً أسهل. عندما أدركت حقيقة حياة الوادي ، كيف وجدتَ الوقوف في الساحة ومعارضة آلاف النّاس»؟ سكتَ سامي متفكرا ثم وجد نفسه يقول: «أسهل ممّا توقّعت».

ابتسم الحكيم وقال: «هل بدأتَ تُدرك ما أحاول إخبارك؟ كل شيء يتغيّر -حتّى الموت أو مواجهة آلاف الناس- متى ما تغيّرت نظرتُك لحقيقة الحياة التي تعيشها يا سامي» أخذ رشفة أخرى وأكمل: «هل لديك فكرة كيف يمكن لهذا المفهوم البسيط أن يحرّر العالم من أسر الدنيا»؟

(٨)

كانت الأسئلة تحشر عقل سامي. لم يخبره بكل هذا؟ ولمَ أتى به إلى الوادي؟ وماذا حدث لأمه؟ وهل كان الجبل معلّقًا في السّماء؟ وما هذا المكان الذي هو فيه الآن؟ ومن هو الحكيم؟

وكأنَّ الحكيم شعر بوطأة هذه الأسئلة على سامي فقال:

«أنتَ في مكانٍ بإمكانك الدخول والخروج منه إلى العالم».

التفت الحكيم وهو جالس ثم تأمّل السّماء وأكمل: «هذا المكان مفتاح. وأعمق أعماقه يحوي أشد نهاية لعالمك يا سامي». مع خروج هذه الكلمات؛ ظهر حملٌ ثقيل على ملامح الحكيم.

دون أن يلتفت أكمل وكأنّه يحدّث نفسه: «لقد حاولت طِوال هذه السنين منع قدومه .. حاولتُ بشتّى الطّرق أن أبقيه في سجنه؛ لكنَّ الإنسان ... ينسى دائمًا» ، خرجت الكلماتُ الأخيرة بصوتٍ خافتٍ بالكاد استطاع سامي سماعه.

عندما توقّف الحكيم ، قال سامي: «ما الذي يقبع في أعماق هذا المكان»؟ قال الحكيم: «يقبع أكبر خطر يعرفه العالم» ، قال سامي: «وما هو»؟ خفض الحكيم صوته وقال: «أعورٌ دجّال؛ وإنَّ من فتنته أن معه جنة ونارًا؛ فناره جنة وجنته نار. وإنَّ من فتنته أن يقول: "أرأيتَ إن بعثتُ لك أباك وأمك أتشهد أني ربك"؟! فيقول: "نعم" فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه؛ فيقولان: "يا بني اتبعه؛ فإنه ربك". وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فيقتلها: ينشرها بالمنشار حتى تلقى شقين ، ثم يقول: "انظروا إلى عبدي هذا فإني أبعثه. وإن من فتنته أن يأمر السماء أن تمطر؛ فتمطر ، ويأمر الأرض أن تنبت؛ فتنبت».

تيبّست قدما سامي وهو يستمع إلى وصف الحكيم.

ارتعدتْ فرائص سامي ثم استدرك: «لكنّه مكبّل ، أليس كذلك»؟ قال الحكيم: «نعم. لكن قيوده تضعف كلّما ضعف النّاس. ولا يضعف النّاس إلا إذا نسوا غايتهم. ولا ينسون غايتهم إلا إذا انتُكست الأولويات؛ تصبح الدنيا همّهم ويهملون الآخرة .. ولم أرَ زمانًا كان فيه النّاس هكذا أكثر منه اليوم».

لم يزل الحكيم يتأمّل الفضاء .. تخيّله سامي يعيش هنا

وحده منذ الماضي السّحيق. كائن أسطوري يحارب كائنًا أسطوريًّا آخر.

وقف الحكيم وقال: «هل تريد أن تراه»؟ اتّسعت عينا سامي دهشةً. قال الحكيم ليهدّئ من روع سامي: «لا تخف؛ لن نذهب إليه» ، ثمّ مشى باتّجاه الشّاشات الصغيرة مجدّدًا.

سأل سامي: «من هذا الذي كان يحاكم الجموع»؟ قال الحكيم: «هذا أحد الملائكة كما صورته لك» ، سأل سامي: «وماذا كان يفعل»؟ قال الحكيم وكأن الجواب واضحٌ جدًّا: «يحاكمهم. إن التزموا بالرسالة؛ ينالون مرادهم. وإن لم يلتزموا؛ يعودون كما أتوا».

قال سامي: «ماذا عن أمّي»؟ توقّف الحكيم في مكانه وقال: «أمّك؟ سامية العقيق؟ أوه يا سامي ، لا تقلق على والدتك يا سامي. هيّا معي».

مشى الحكيم ، وتجاوز أغلب الشاشات حتى وصل إلى الشاشة المغطّاة بقطعة قماش سوداء. توقف الحكيم للحظات. هل كان متردّدًا؟ انحنى الحكيم وسحب القماش.

(٩)

نقلتِ الشاشةُ مكانًا مظلمًا. لم يستطع سامي أن يميِّز ما يرى أمامه. انحنى الحكيم وضغط على زرٍّ لينقل المشهد إلى الشاشة الكبيرة. حالما ميّز سامي المشهد ، خطا إلى الوراء مذعورًا.

نقلت الشاشة صورة أعظم إنسان رآه قط ، وأشدّه وثاقًا. مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه. أحمر البشرة ، شديد جعودة الشعر. أجلى الجبهة عريض النحر ، أحدَب الظهره ، أعور

العين اليمنى كأنها عنبة طافية.

رأى جسم المخلوق يعلو وهو يسحب أنفاسه. كان تنفّسه كصوتِ هدير النمر. كانتْ عينُه الوحيدة تنظر مباشرةً إلى الشاشة وقد ملأتها كراهية الدنيا وما فيها.

شعر أنّ نظرة هذا الغول تقتل شيئًا ما في سامي رويدًا رويدًا.

وكأنَّ شيئًا يغلّف قلبه سوادًا ، ببطءٍ لكن بإحكام؛ شعر بضيقٍ في التنفّس وجثى على ركبتيه. لم تعد قدماه تحتمل حمله. لكنّه مع ذلك لم ينفك بصره عن عين الرجل الوحيدة.

شعرَ أنّه يطير إلى عالمٍ آخر. بل يغرق في عالمٍ أسود. ظلماتٌ بعضها فوق بعض. ومع ذلك الشعور اسودَّتْ الشاشة فجأة. أمسك الحكيم كتف سامي. لم تكن لمسة عادية. شعر سامي بأن الحياة بدأتْ تدب في أوصاله مجدّدًا ، وأنَّ السواد الذي نُكتَ على قلبه بدأ بالانحسار ، وأنَّ الضيق الذي أغلق حنجرته بدأ ينجلي.

أمسك الحكيم سامي وأجلسه على الكرسي. لم يزل قلبُ سامي مضطربًا من هول المشهد. قال الحكيم: «هوِّن عليك يا سامي». ظهر فجأة كوبُ ماء بارد أمام سامي ، قال الحكيم: «هيّا اشرب». شرب الماء دفعةً واحدة دون أن يتساءل من أين أتى الكوب.

التقط سامي أنفاسه وهو ينظر إليه ويتساءل. هذا الحكيم الأسطوري الذي يقول أنّه قابل النبي موسى عليه السلام مَن يكون؟

هدَّأ قليلاً من روعه ، ثمّ انكشفت معلومة فجأةً في ذهن سامي واتّسعتْ عيناه: ***قابل النبي موسى؟ هل يكون الخضر؟! لكن... يستحيل ، هل هو جنّي متلبّس بهيئة إنسي؟! أم هو من خلق الله الكثير***

ابتسمَ الحكيم ابتسامة أبوية ثم قال: ‹‹لا تقلق يا سامي؛ أنتَ في مأمَن هنا›› ، قال سامي – وما زالت نظرة الدجال حاضرة في مخيّلته – : ‹‹وأين "هنا"››؟ أجاب الحكيم: ‹‹هنا مجمع الأرواح. عندما كنتَ في الوادي ، كان جسدك يسير في المدينة ، أمّا روحك فلم تزل هنا. مرتبطة عبر الأثير بذاك الجسد من الطين›› ، أمسك ذراع سامي ثم أكمل: ‹‹هناك في فم الجبل ، أنت لم تمت؛ فقط فقدت الاتصال بالجسد›› ، قال سامي: ‹‹هل يعني ذلك أنّي لن أفارق الجبل››؟ قال الحكيم: ‹‹أوه. كلّنا سنترك الجبل في اليوم الموعود. ونهاجر جميعًا إلى عالم البرزخ. وبعدها إلى يوم الحساب››.

نظر سامي وكأنّه لا يصدّق ما يسمع .. بدت الفكرة غريبة جدًّا بالنّسبة له. ابتسم الحكيم: ‹‹لا تتعلّق كثيرًا بالجبل ، أو بالملائكة على الحاسوب. لا تتعلّق بالصّور التي رسمتها لك. أنا أصوّر فكرة لأنّك بحاجة إلى صورٍ لتتخيّل ما أحاول شرحه. لا تفترض أبدًا أن ما ينطبق على عالم الملموسات؛ ينطبق على عالم الأرواح ... عالم ما وراء المادّة. حتّى كوب الماء هذا يا سامي›› ، ثمّ أشار إلى الكوب في يده: ‹‹أنتَ لا تحتاجه. الرّوح لا تعطش للماء. لكنّ الكوب هنا ليساعدك على الهدوء ، كما ساعدتكَ الصور على فهم ما كنت أشرحه››.

ارتعدَ سامي إذ رأى نفسه فجأةً يطير في وسط الفضاء والكرة الأرضية من تحته. بدأ الكوب يتلاشى من يده كما تتطاير حبيبات الرمل ، قال الحكيم: ‹‹وكما تلاشى هذا الكوب من أمامك سيتلاشى جسدك ، وستتلاشى الدنيا ، وكلُّ ما جمعته فوقها ، وكما انطلق سؤالك مدويًا في الوادي عندما قلت: "هل ترون الجبل الآن؟ "سيأتي السؤال عندما تذهب الدنيا كالهباء المنثور: "هل عملت

لآخرتـك"؟ وستُسـأل أيضًـا: "هـل قاتلـت كـي لا ينسـى النـاس الآخرة"››؟

رأى سـامي الكـرة الأرضـية مـن تحتـه تتلاشـى أيضـًا ، ثمّ الكواكب والنّجوم ، ولم يبـق سـوى الحكيم أمامـه الـذي قـال: ‹‹لقـد أرسـل الله إلـيكم الإسـلام مخلّصـًا؛ لينقـذكم مـن أسـر الـدنيا؛ ليكشـف لكم حقيقتها: هـي جسـر للآخـرة ، وسـاحة اختبـار .. هـي وسيلة لا غاية››.

نظر سامي إلى نفسه ، ورأى أنه هو أيضًا بدأ يتلاشـى ، قـال الحكيم: ‹‹والآن دعـني أجيـب عـن سـؤالك الـرئيس: "لمَ جـيء بكـم إلى الوادي"؟ جيء بكم كي تُحيوا مركزية الآخرة في نفوسكم. حتى إذا ما استوعبتم ذلك سعيتم إلى إحيـاء مفهوم مركزيـة الآخرة في مجتمعاتكم››.

نادى سـامي: ‹‹ولكن ...›› ثم نظر إلى نفسه ووجد أنّـه لم يبـق منه سوى نصفه العلوي. رفع رأسه ينظر إلى الحكيم في هلـع ووجـدَ أنّه أيضًا بدأ بالتلاشي. نادى سامي: ‹‹ولكن لمَ أتيت بي أنا وحـدي إلى حجرتـك؟ والبقيـة عـادوا››؟ لم يخـبره أحـدٌ بـذلك ، لكنّـه كـان يعلـم في قـرارة نفسـه أن جـميعهم: رمـزي ومـريم ، وأمّـه وسـارة ، وأيّوب وعمر؛ كلّهم عادوا إلى الدنيا. ابتسم الحكيم: ‹‹أبحـث عمّـن يخلفـني .. هـذه الندبـة جـاءت مـن سـيف الـدجال في معركـة قبـل قرون؛ وبسببها في كلّ سنّة يموت جزءٌ منّي›› ، ثمّ أشار إلى النّدبة.

أكمل الحكيم: ‹‹وأنت يا سامي .. أنتَ الوحيـد الـذي لم يـتمنَّ شـيئًا .. هـل كنـتَ فاقـد الأمـل؟ أم هـل كنـتَ معـوّلاً علـى نفسـك لتحصـل علـى مـا تبحـث عنـه؟ رمـزي تمنّـى الطفلـة ، وكـذلك مـريم بـرغم ارتيابهـا .. سـارة كانـت تريـد أن تمشـي مجـدّدًا. أيّـوب تمنّـى الشفاء ، وطلب عمر البـراءة. أمّـا أنـت ...›› ثمّ برقت عينـا الحكيم وأكمـل: ‹‹أنـتَ لم تطلـب شـيئًا. كنـت معتـدًّا بنفسـك أنّـك سـتجد

والدتك وحدك. هذا أثارني ، فراجعتُ ملفّكَ. راجعته جيّدًا وسرّني ما رأيت. أنتَ مرشّحٌ جيّد يا سامي». قال سامي: «مرشّح»! ابتسم الحكيم: «مرشح لخلافتي .. هذا بالطبع إن أثبتَّ نفسك». قال سامي: «كيف ذلك»؟! أجاب الحكيم: «زَكِّ نفسك ومَن حولك لعلّك تأتي إلى هنا مجدّدًا» ثم كما أتى الحكيم فجأة اختفى .

نظر سامي إلى الأسفل ولم يبقَ منه سوى بصره. بدأ الضوء يسطع من كل الجهات حتّى اضطر سامي أن يغمض عينيه .. كان آخر ما مرّ في ذهنه هو: *آتي إلى هنا ...مجدّدًا؟ لأخلفك؟!*

الفصل التّاسع والعشرون: الحَيَاة الدُّنْيَا

(١)

دائمًا ما يذهبُ سامي الغريبُ إلى عوالم أُخرى في أحلامه؛ وفي ليلة الأمس ذهب إلى عالم آخر أيضًا ، لكنّ هذه المرّة ذهب دُون أن ينام.

(٢)

صحا سامي ، كما يصحو كثيرٌ من الناس: بالكاد يتذكّر أين كان وأين هو. احتاج إلى لحظات؛ ليستوعب أنّه كان على سريره في الشقّة: (٤٢) ، عمارة الهدى ، حيّ المربّع من مدينة الرياض. كما احتاج إلى لحظات أكثر ليستوعب أين كان قبل ذلك .. بدون شك لم يكن يحلم .. لكن كيف وصل إلى سريره بعد أن كان ... ***أين كُنت؟***

وقف عند النافذة ونظر إلى الطرقات من تحته .. انبعثت أصوات السيارات التي تسير على الأسفلت كأصوات الأمواج تذهب وتأتي. ***لم يتغيّر شيء.*** ما زالت الطرقات مزدحمة. ما زال الناس يسعون في رزقهم .. لا زال الجو حارًّا .. كان ذهنه خاليًا من أيّ شيء عدا تأمّل المدينة.

غسل سامي وجهه ، ثمّ نظر في المرآة. هو هو. لم يتغيّر. ***لكن... الكثير تغيّر.***

خرج من غرفته ولاحظ أن الوسائد على "الكنبة" كانت مرتّبة ، وكانت المنضدة تلمع. لم يرَ بقايا جرائد مرمية على طاولة

الطعام أو "كاسات" متّسخة. كانت الشقة نظيفة مرتّبة. هل عادتْ والدته؟!

تسارعت دقّات قلبه وهو يتوجّه إلى حجرة أمّه. فتح الباب؛ ليجد .. حجرة خالية .. فتّش سامي في الشّقّة. كان حالها كحال حجرة والدته: خالية.

(٣)

جلس سامي على "الكنبة" المرتّبة لا يعلم ماذا عليه فعله. نظر إلى "الروزنامة"؛ ليجد أن اليوم كان الجمعة. يوم واحد فقط منذ ذهب إلى الدرعية .. ***يوم واحد فقط؟ كل ما حدث لي ولرمزي و..***

وقف سامي فجأةً: «رمزي! مريم»! توجّه نحو مدخل الشقّة وكاد أن يخرج لولا أن رنّ جرس الهاتف. «ألو .. أهلاً سامي كيف حالك»؟ ***الصوتُ مألوف .. لكن من ...آه.***

قال سامي: «د. محمد .. أهلاً» ، قال الطبيب: «أهلاً سامي .. مممممـم .. لا أعـرف مـا أقـول .. مممممـم أود أن أقابلـك في المستشفى عند سلمى .. هل بإمكانك المجيء الآن»؟ قال سامي: «بالطّبع .. لكن هل هناك ...» «أنا مضطر للذهاب .. مممم أراك إذا وصلت» .. ثم أغلق السمّاعة.

نظر إلى هاتفه مشدوهًا.

خرج سامي من شقّته .. طرق باب شقّة رمزي ومريم: ما من مجيب. شعر في تلك اللحظة أنَّ كل من يعرفهم اختفوا .. والدته .. رمزي .. مريم .. ثمّ أضاف أيّوب ، وعمر. وأسرّ في نفسه الاسم الأخير.

(٤)

أدار سامي سيّارته ، وتوجّه إلى المستشفى. اشتغلت إحدى

المحطات الإذاعية مباشرةً ، وارتفع صوت المذيعة التي كانت تدير برنامجًا حواريًّا. كانت الضيفة الأولى ، تقول:

«هناك الكثير من الحريات الشخصية التي يتم انتهاكها باسم الدين .. قناعات الإنسان الدينية والممارسات الناتجة عنها أمورٌ شخصية بين المرء وربّه؛ فلا يحقّ لأحدٍ أن يأتي آخر في الشارع ويقول له: افعل أو لا تفعل .. لا بد أن يتقبل الناس حقيقة الاختلاف ، وأن يتركوا لهم حرية فعل ما يشاؤون».

حاولت الضيفة الثانية أن تقاطع: «لكن ...» إلا أنّ السيّدة الأولى أكملت حديثها: «الأولوية للحريّات الفردية أولاً وأخيرًا. هذا ما ينبغي أن نقدّسه؛ فالذي يريد أن يفطر في نهار رمضان علنًا ، أو التي تريد أن تتزيّن وتلبس ما تريد ثم تتمكيج وتخرج هي حرّة ...» ، ثمّ قالت بقية جملتها بشكل متقطّع ، تخيّل سامي أنّها كانت تضرب الطاولة بسبّابتها بعد كل كلمة: «هي.. قرارات.. فردية.. شخصية.. لا.. دخل.. للناس.. فيها. لا نريد وصاية أحد على أحد».

قالت المذيعة: «ما رأيك د. عائشة في كلام الأستاذة فاتن»؟

قالت د. عائشة: «الأخت فاتن قالت كلمة مهمّة: الأولوية للحريات الفردية أولاً وأخيرًا. وأعتقد أن هذا ناتج عن غياب تام لفهم غاية وجودنا» ، قالت المذيعة: «وما هي»؟ قالت د. عائشة: «الغاية هي النجاح في الآخرة ، والنجاح في الآخرة يكون بالطريقة التي أملاها ربُّ الدنيا والآخرة .. ينبغي أن نقاتل كمجتمع للنجاح .. ثمّ إنَّ الإيمان بضرورة تحقيق الحد الأقصى من الحريات ليفعل الفرد ما يريد في العلن دليل أن هناك تصور أن هذه الحياة هي كل شيء في عين الأستاذة فاتن» ، أكملتْ د. عائشة: «بمجرّد أن يصبح العمل في العلن .. لم تعد مسألة شخصية .. ما دام في العلن

أصبح يؤثر في الآخرين .. والأخلاق معدية يا سيّدتي. فقيم وهويّة الفرد تُشكِّلُها قِيَم وهويّة المجتمع الذي يحيط به؛ وتلك الهويّة مرتبطة بممارسات وأخلاق المجتمع؛ وممارسات وأخلاق المجتمع هي نتيجة أخلاق كلِّ فردٍ فيه؛ وأخلاق الفرد مرتبطة بقِيَمِه وهويته ، وبالتّالي هناك دائرة تأثير وثيقة التّرابط.

فمثلاً لو وضعتَ شخصًا في بيئة لا يوجد فيها أي مدخّن فإن هذا الإنسان سيتعامل مع تلك الممارسة بطريقة مختلفة تمامًا عمّا لو كان الشّخص نفسه يعيش في بيئة كلّها أناس يدخنون في العلن .. ولو كان شخصًا يعيش في بيئة أفرادها يُكثرون من القراءة فلا شك أن هذا الشّخص في الغالب سيكون أكثر إقبالاً على القراءة من نفس الشخص لو ترعرع في بيئة مليئة بأفرادٍ لا يقرؤون.

الشّاهد من هذا أنَّ كلَّ عملٍ علني يقوم به الفرد ، يؤثر مباشرةً على بيئته. ولـمَّا كان للفرد أثرٌ على المجتمع كان لزامًا عليه أن يكون مسؤولاً ومحاسبًا عن أعماله العلنية ، وبالتالي للمجتمع الآن حق الانتقاد والعمل على تغيير الممارسات السّلبية وتحفيز الممارسات الإيجابيّة بما توفّره الدولة من صلاحيات.

انتشار الخطيئة يُحدِث تراكما ، والتراكم يُحدِث تبلّدًا شعوريا ، ومن ثم يحدّث تكيّف ، ومن بعد التكيّف تصبح الخطيئة واقعًا وجزءًا من هويّة المجتمع لا تستطيع نقده أو محاربته».

قالتْ المذيعة: «ما رأيك يا أستاذة فاتن»؟

قالت فاتن: «هذا نموذج يبيّن لنا أهمّية فصل الدين عن الدولة .. الآخرة ، الحجاب ، الدين .. هذه قضايا شخصية .. دعونا نعيش كما يعيش العالم»!

تمتم سامي في نفسه وهو يسمع هذا النقاش وقال: «ماذا عن الجبل يا فاتن»؟

قالتْ الدكتورة عائشة: «اسمحوا لي أن أسأل الأستاذة فاتن ، ألا تقوم المجتمعات على محاربة التلوّث؟ أو محاربة رمي النفايات في الشّارع»؟ قالت الأستاذة فاتن: «بلى ، ولكن هذه أمور تضرّ بالآخرين فمن الطبيعي أن نستهجنها».

قالت الدكتورة عائشة: «ولمَ تحصرين مفهوم الضرر بالإضرار بالبيئية أو الأضرار المادية؟ هذه أضرارٌ تصيب الحياة القصيرة هذه التي نعيشها ، ماذا عن الضرر الأكبر الذي سيصيب الحياة الأبدية التي ستأتي لاحقًا»؟ قالت الأستاذة فاتن: «أنا ضد فرض الوصاية على المجتمع .. الدول المتقدّمة تخلّت عن هذا النّموذج وهاهم متقدّمون».

قاطعتها الدكتورة عائشة: «هذا كلام حالِم .. كلُّ المجتمعات تفرض وصايتها لحفظ مصلحةٍ عُليا أو مجموعة من القِيَم التي يحملونها .. يفرضون درجة معيّنةً من اللباس في الأماكن العامة .. يفرضون على الآباء تعليم أبنائهم ومعاملتهم بطريقة معيّنة .. يفرضون لبس حزام الأمان برغم أنّها قضية شخصية .. يمنعون الانتحار برغم أنّها قضيّة شخصيّة .. كلّهم يؤمنون بمُثُلٍ عُليا صاغوها لأنفسهم .. أما في حالنا فلدينا مُثُلٌ عليا صاغها اللّه .. لمَ نستحيي منها»!

قالتْ الأستاذة فاتن: «كل الأمثلة التي ذكرتها دكتورة عائشة تُترجم إلى أضرار مادية واضحة ، فلا بأس في ذلك. أما..»

قال سامي مرّة أخرى: «فاتن لا ترى الجبل».

(٥)

وصل سامي إلى المستشفى . أخذ يعدو عَدْوًا حتّى وصل إلى غرفة أخته سلمى.

استقبلته سلمى بابتسامةٍ ورفعت يديها: «سامي»!

نظر إليها يتفحّصها: كان العلاج قد أرهقها. ارتسمت هالات سوداء تحت عينيها إلا أنّها احتفظتْ بجزءٍ من بريقها. احتضن سامي أخته وقد امتلأ شوقًا إليها. دمعتْ عيناه لكنّه نجح في مسحهما قبل أن يعود ويتأمّل وجه أخته الصغيرة. نادت: «وينك أمس ما جيت»؟

وين كنت أمس؟ فعلاً .. أين كان؟ وهل كانت محض ليلة؟ كلمح البصر؟ مسح على جبينها، وقال: «آسف حبيبتي .. كيفك الحين»؟ دخل الدكتور محمد الغرفة في تلك اللحظة وبيده أوراق يقلّبها وعن يمينه ممرّضة أيضًا تنظر إليها.

رفع الدكتور رأسه وانتبه لسامي، وقال: «سامي، مرحبًا بك».

مدّ الدكتور يده، وصافح سامي، ثم أكمل: «أجرينا فحوصات إضافية، ووجدنا مممم انحسارًا كبيرًا للمرض» .. لم يصدّق سامي ما سمع .. قال: «عفوًا دكتور ماذا تقصد»؟ قال الدكتور: «أقصد أنّه بهذه الوتيرة مممم ستكون الابنة سلمى خالية من المرض بحلول نهاية الأسبوع. مبروك!». التفتَ سامي إلى سلمى: «أسمعتِ يا سلمى»! ابتسمت سلمى ثمّ احتضنها سامي مجدّدًا.

تراقص قلبه فرحًا. لم يكن يتصوّر أن يحدث هذا التغيير في وقتٍ قصير. هذا يعني أنَّ .. ***أمّي عادتْ! لكن أين هي؟!*** قال سامي: «سلمى، هل رأيتِ ماما»؟ قالتْ «نعم! سامي! ماما جَت اليوم الصبح! بعد غياب شفتها وحضنتها. ربّي سمع دعائي»! قال سامي: «وينها طيّب»؟ قالتْ سلمى: «قالت بتروح تجيب قهوة من تحت وبترجع». قال سامي: «حبيبتي؛ بَروح

أشوفها وبرجع ، طيّب»؟

مشى سامي بين أروقة المستشفى متوجّهًا إلى مقهى المستشفى. تسارعت نبضات قلبه ترقّبًا. مرّ بقسم العظام ، ثم النساء والولادة ، ثم دخل في ممر لقسم العلاج الطبيعي.

كان الممر مزدحمًا ، وقف طبيبان عند إحدى الغرف ، وقال أحدهما للآخر: «إنّها معجزة .. معجزة بالفعل .. بهذه الوتيرة باستطاعتها العودة للمشي خلال أسابيع». توقّف سامي .. ***هل تكون*** ... سمع الطبيب يقول: «لكن ، كيف استطاعت أن تعود! كلُّ التقارير أفادت باستحالة عودتها»؟! هزّ الطبيب الثّاني رأسه في حَيرة.

مِنْ داخل الغرفة سمع سامي صوتًا يهمهم أغنية كان يعرفها. أغنية سمعها في الوادي. همهم الصوت الأغنية وسمع سامي كلماتها في رأسه: «صوتك يناديني».

الفصل الثلاثون: البِدَايَة

(١)

«كيف تختم رواية لا تريد إنهاءها»؟

أعلم أنّها قد لا تكون أفضل رواية كتبت .. لكنّها عزيزة على قلبي .. أقوم كلَّ يوم ، أشقُّ صفحات الأمس وأعيد كتابة الخاتمة سائلاً نفسي: وهل ثمّة (خاتمة) مُرضية لأي كاتب؟

ثم أجد نفسي أُبحر إلى سؤال آخر: وهل ثمّة (شيء) يملأ عين البشر؟

هذا السعي الحثيث خلف نهاية لائقة غير موجودة ، يذكّرني بطريقة أو بأخرى بالحياة الدنيا: ما هذا الشعور في أعماق أرواحنا الذي يدفعنا كل يوم لنسعى حثيثين في الدنيا؟ إنّه أشبه بالفراغ الذي يبتلع كل شيءٍ نرمي تجاهه ولا زال يشعرنا بالقلق ، والجوع ، والعطش.

لكن ... التعطّش إلى ... ماذا؟

حقيقةً لا أدري .. وكأنَّ الرّوح تريد أن ترحل بنا بعيدًا إلى مكانٍ لا يصله الجسد ، حيث تنعتق من أسره لتلتقي به في حفرة تسمّى القبر .. ماذا أسمّي هذه الرغبة الحثيثة في السفر إلى ذاك المكان البعيد الذي يقع وراء الغيوم وبعد النجوم وخلف السماوات؟ لا أعلم.

وكيف لي أن أعلم وأنا لا أتذكّر أين كنتُ قبل أن أُرزق هذا

الجسد ... قبل أن أرى الدنيا؟ لكنّي ... أشعر بحنين كبير. ربّما يكون هذا الحنين هو الفراغ الذي يبتلع كل ما أرمي تجاهه.

أقوم كل يوم ، وأسعى إلى اللّقب الجديد ، والسفرة المقبلة ، والمرأة الحسناء ، والمولود القادم ، والبيت الكبير ، والوجبة اللذيذة ، والسيارة الجديدة ، ومزيدٍ من ... المزيد؟

أقوم وأسعى لكلّ هذا الـ[مزيد] ، لكنّه يفشلُ فشلاً ذريعًا في إخماد هذه النّيران المتّقدة في داخلي. وكأنّي أملأ الفراغ بمزيد من الفراغ!

تُرى ، إلى ماذا يرمزُ هذا؟ ماذا يعني أن يكون كل ما أسعى إليه في حياتي لا يسمن روحي ولا يُغنيها؟ هل يعني أنَّ ما أسعى إليه لا قيمة له؟ وسخ مثلاً؟ أم يعني أن حياتي لا معنى لها؟ أم ... هل تكون قيمة حياتي مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالشيء الذي أسعى إليه؟

فكرة مستفزّة جدًّا .. ما هو ذاك الذي يستطيع إسكات صخب الأنين الذي يصدع في أرجاء رُوحي؟

أتفكّر مليًّا قبل أن أجيب . أقلّب صّفحات ذاكرتي بأصابعي المتّسخة بـ[أشياء] الدنيا لعلّي أجدُ الجواب. وعندما وجدته ، شعرتُ أنَّ الجهاز المسؤول عن مشاعري يتخبّط. كيف لا ، وهو يطلق هذه الكمّية من المشاعر المتناقضة فيَّ؟ أنا مستفزٌّ ، ومسرور ، ومتململ.

مستفزٌّ لأنّه لا يمكن أن يكون حل لغز الحياة بهذه البساطة. ومسرور لأنّي قد أكون وجدتُ الجواب أخيرًا. ومتململٌ لأنّي جرّبتُ هذا الحل الـمُنْسَىَ في الماضي ، لكنّه حلٌّ يحتاجُ إلى جهد ووقت ، وقد خُلِقَ الإنسان عجولاً: لا يرضى إلا بالحلول السّريعة.

الحل بسيط لكنّه متعب. لكن: أليست ألذُّ الأمور تلك التي تأتي بعد الشّقاء؟ الحل ليس فكرة أو قناعة ، الحل ليس شيئًا أقتنيه ، الحل ليس [شيئًا] أصلاً!

[الروح] قلقة عطشانة ، تدعوني - بل تستفزّني- كل يوم للقيام بأيِّ شيء. فماذا أفعل؟ أقفز ساعيًا في عالم [المحسوسات] بحثًا عن دواء. لكن عالم [الأرواح] شيء ، وعالم [المحسوسات] شيءٌ آخر. لا يمكن إصلاح الرّوح إلا بما يمسّ الرّوح. فكِّر في المسألة قليلاً. لو كنتَ مريضًا تسكنُ العراق ماذا يفيد دواءٌ في الصّين؟

لكن ما هذا العالم الآخر؟ وما الرّوح؟ لا يمكن لعقلي أن يتصوّر الجواب. هذه ليست أُحجية ، هذا أمرٌ طبيعي. فالعقل يلعب في ساحة [المحسوسات] ، ولا يجيد اللعب خارجه.

لا أستطيع أن أتصوّرَ ماهيّةَ الروح لكنّي أشعر بها .. صحيح أنّي مُثقلٌ الآن بالـ[أشياء] ، مثقلٌ بآخر لباسٍ وسفرة ، مثقلٌ بعملي ومنزلي ومأكلي ومشربي. لكنّي في قرارة نفسي ... أشعر بها! في وسط هذا الرّكام أشعر بها. أقسم بالله. وأظنّك تشعر بها أيضًا في أعماقك. أليس كذلك؟ هل تسمع الأنين؟ هل تشعر بالنّيران المتّقدّة؟

حسنًا ، عقلي لا يتصوّر الرّوح إلا أنّه بإمكانه أن يدلّني على الجواب. كيف؟ كأن ترى رسمةً جميلة في مُتحف. إن سُئلت عن مصدر الرسمة ، سيرى عقلك الإحكام والغائيةَ والاتقان فيها ويستنتج أنها من صنع رسّام ماهر وإن لم يره. ثمّ يقودك عقلك بعد ذلك لتقرأ الوصف الذي وضعه أمين المتحف في أسفل اللوحة.

وستعرف حينها هويّة الرّسام.

وفي متحف هذا العالم المُعجز المُحكَم يوجد أيضًا من يمكنه أن يهدينا إلى طريقة معالجة أرواحنا .. وبالتأمّل في أرجاء هذه الفسيحة ، أتيقّن أنَّ للكون خالقا ذا صفات كاملة .. بل لو تأمّلتَ في ذاتك: من أصغر شريط (دي إن إيه DNA) مُحكمٍ في أعماق خلاياك ، وحتّى أكبر عضلة منسوجة خصّيصًا لك .. لو تأمّلت ذلك ستعرف مباشرةً أنَّك أمام خالقٍ عظيم. والخالق عليم بخلقه. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

وخالق الرّوح لا شكّ أنَّه يعلم طريقة علاج هذا القلق. بعد بحثٍ أجد الإجابة واضحة أمامي لا شكّ فيها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾. ويضيف ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾.

الذكر إذًا. علاج هذا القلق هو الذكر. لكن ما المقصود بالذكر؟ عندما بحثت ، وجدتُ أن الذكر يكون بالصلاة الدائمة ومداومة قراءة القرآن وكثرة الذكر كالتسبيح والتهليل والاستغفار. كما يكون الذكر أيضًا بتذكر اللّه سبحانه في كلّ ما تفعل لتقترب منه.

إذًا ، العلاج يكون بـ[السعي] الدائم غير المتوقّف إلى اللّه.

هذا هو الحل. بسيط جدًّا ، أليس كذلك؟ أذكرُ محاولاتي الأولى: مملّة ، رتيبة ... ابتداءً. لكن مع السّير الدّائم شيءٌ ما - ومن دون مقدّمات - تحرّك. كالزّر: ينضغط وتنفتح الأنوار. تجتاحني لذّة تشبع روحي أخيرًا ، وطمأنينة تسكت الأنين؛ أرتوي من كل ركعة؛ أجد جنّة في كلِّ سجدة؛ وأستلذُّ بكل حرف ينطق.

لكن سرعان ما أجدني مرميًّا إلى عالم [الأشياء] ، وتختل

الموازنة مجدّدًا. وإن لم أتدارك نفسي أجدني عدتُ إلى البداية. وتبدأ المكابدة من جديد.

هل علمتم لمَ الحل مستفز لهذه الدرجة؟ لأنّه ليس معقّدا ، لا إكسير في معبدٍ أسطوري ، ولا ثمرة في وادٍ معلّقٍ في السّماء. حلٌّ بسيط سمعناه منذ صغرنا. لكنّنا لا نريد أن نرى الجبل. تجرّنا تفاصيل الدّنيا لتنسينا الحقيقة العظيمة الماثلة أمامنا. هل تجرّنا تفاصيل الدّنيا فعلاً؟ أم ربّما نحن الذين نتشاغل بها؟ أم أنَّ الحياة هي هكذا؟ [C'est la vie]؟ مكابدة ، ثم نجاح ، ثم فشل ، ثم عودة من بعد ذلك؛ وهكذا تدور؟ قد يكون كذلك ...

وعلى كلّ حال أعتقد أنَّ الخطوة الأولى للعلاج تبدأ بـ[ـالقناعة] ، وتستمر بـ[ـالسّعي]. فبالقناعة الخاطئة تضيع بوصلة السّعي. وبانعدام السّعي تختفي القناعة ... أساسًا هل تسمّى قناعة إن لم تنعكس على أفعالي؟

وأيُّ قناعة أتحدّث عنها؟ قناعة: مركزية الآخرة وضرورة النجاح فيها. ولا يتحقق النجاح إلا بالسير الحثيث إلى الله؛ فما من شيء سيجلب الطمأنينة للروح إلا هذا الأمر. لن يُنجيها من الاحتراق إلا السّير. وأقتنع لحظتها أنه يتوجّب علي المقاتلة من أجل إيقافِ أيِّ شيءٍ من شأنه أن يعرقل طريق السّير سواء كانَ في داخلي أم حواليَّ.

قرأتُ مرّة للرافعي يقول: «إن الذي يعيش مترقبًا النهاية يعيش مُعدًّا لها ، فإن كان مُعِدًّا لها عاش راضيًا بها ، فلا يستطيع الزمن أن ينغِّص عليه ما دام ينقادُ معه وينسجم فيه ، والإنسان التعيس هو من يحاول طرد نهايته»

لم أتعرّف على هذه القناعة إلا في رحلتي الأخيرة إلى الوادي المعلّق في السّماء. ولم أكتشف مدى قدرة هذه القناعة الهائلة على

تحرير الإنسان من أسر الدنيا وأسر من يمشي عليها؛ فقد حوَّلَتْ كل شيء من غاية إلى وسيلة. قَلَبَتْ كل المفاهيم رأسًا على عقب. غيّرت معنى الموت ، والحرّية ، والعبودية ، والتجارة ، والمال ، والحياة. صارت الآخرة هي الغاية من وراء كلِّ شيء.

لم أترك مهنتي ، لم أترك أهلي ، لم أتقوقع في كهف ﴿ولا تنسَ نصيبك من الدنيا﴾ كل ما حصل هو أنّي لم أقدّم الدنيا على مرضاة ربّي ، وأبقيت هذه القناعة حاضرة. والطريقة الوحيدة لإبقائها حيّةً حاضرة هي السّعي.

وكأنَّ كلاً من [القناعة] و[السّعي] يبقي الآخر حيًّا. وكأنَّ كلاً من [القناعة] و [السّعي] تُبقي روحي حيّة».

(٢)

هكذا ختم سامي الغريب روايته التي نشرها. سمّاها: «الوادي المعلَّق في السّماء». صنّفت دار النشر الرواية تحت قسم الروايات الخيالية؛ لكنّها لم تكن كذلك؛ كانت مذكّرات تحكي حقيقة.

(٣)

شُفِيَت أخته ، والتأمّ شملهما بوالدتهما. عاش رمزي ومريم مع أطفالهما الثلاث ، عادَ عمر بريئًا ، وأيّوب مُبصرًا ، وسارة ماشية. هؤلاء هم جنود الحكيم. يحاربون الدجّال من دون أن يشعروا .. يحاربونه في أنفسهم ، وفي أهليهم ، وفي مجتمعاتهم .. يقاتلون من دون أن يشعروا ... إلا سامي ، كانَ يشعر بذلك .. كيف لا؟ وقد قابل الحكيم بنفسه .. رآه بعينيه. ورأى ذلك الكائن الأسطوري الآخر .. ذاك الذي يقوم النّاس – بل نسيان الناس –

بتحرير قيوده كلَّ يوم.

(٤)

كان دائمًا ما يذهب إلى "الدرعية" ، يبحث في المقبرة وما حولها .. يجوبها بعد شروق الشمس أو قبل غروبها ، لكنّه لم يرَ ممرّاتٍ سريّة ، ولم يجد بابًا لا يُفتَح ، ولم يقع على ثمرة لامعة في المقبرةٍ القاحلة.

من حين إلى آخر ، بحثَ في كتب التفسير والتاريخ عن هويّة الحكيم: أصحاب الكهف ، الخَضِر ، المهدي المنتظر ، ذو القرنين ، عيسى عليه السلام.. ***من تكون يا صاحب العمامة الخضراء؟***

وفي ليلة من الليالي ، رأى سامي في منامه رؤيا: كان في الكهف المظلم في جبل الأرواح .. مشى نحو المخرج لكنّ الباب كان موصدًا.

نظر إلى السقف ورأى خيوط الأبخرة تلتف في دوّامة متحرّكة. انكشفتِ الأبخرة وظهرت غرفةً كبيرة في قصرٍ أسطوري .. جلس ملك القصر على العرش ومن حوله الإنس والجن والحيوان والطير والحشرات. رأى كائنات لم يرها قط: إنسيًّا برأس ذئب ، وحصانًا بجسد بشر ، شجرةً ذات أرجل ، وشعلةً نارية على هيئة ذئب ، كلّهم قد انحنوا باتّجاه الملك وأذعنوا له.

اسمه الملك سليمان. كيف عرف سامي أن اسمه سليمان؟ لم يدرِ. نادى الملك وقال: من يأتيني بعرشها؟ قال جنِّي أنا آتيكَ به قبل أن تقومَ من مقامك؛ أومأ الملك سليمان برأسه مستأنسًا بجواب الجني.

رأى سامي باب القاعة ينبلج فجأة والتفتَ نحوه كل الحاضرين.

دخل رجلٌ؛ يلبس ثوبًا طويلاً.

لم يستطع سامي تمييز وجهه ، لكنَّ عينيه كانتا تلمعان صحّةً وعنفوانًا. هل كانت تلك ندبة على عينه اليمنى؟ دخل وبيده اليمنى كتابٌ أخضر عتيق. نادى الملك: «من تكون»؟ وجّه الحرس رماحهم نحو الرجل الغريب. قال الغريب: «أنا الذي لديّ علمٌ من الكتاب. أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك». وقف الملك سليمان مشدوهًا.

في لمح البصر ظهر عرشٌ في وسط القاعة. شهق الحاضرون ، وبعضهم تراجع إلى الوراء. قال الغريب: «هذا من فضل ربّي».

اختفى المشهد فجأةً ، وعادت الأبخرة تتلوى في السّقف؛ وفي السرعة نفسها وجد سامي نفسه في حجرة نومه مستفيقًا ، بعدما غمره العرق.

ظلّت الصورة تتردّد في ذهنه طوال تلك الأيام. ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[النمل: ٤٠]. ***علمٌ من الكتاب ...علمٌ من ... علمٌ ...***

كان أوّل حلمٍ يرى فيه الكهف. لا لم يكن حلمًا. كان هناك ... كان داخل الجبل .. لم تكن رؤيا. كان رسالة من الحكيم ليُخبره كيف السبيل إلى الوصول إليه. وكان الجواب أن عليه أن يتحصّل على: «﴿عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾. ***ما الذي تريدني أن أتعلّمه؟***

(٥)

مرّت سنوات دون أن يجد للحكيم طريقًا. بدأ ضوؤه يخفُت.

(٦)

دُعي لمناقشة كتابه يوم الخميس في قسم الفلسفة في جامعة

الرياض .. بعد الحديث عن انعكاسات مفهوم مركزية الآخرة على النّفس ، حاول سامي أن يشرح انعكاسات المفهوم على تنظيم المجتمع.

ختم سامي محاضرته قائلاً: «تخيّلوا معي أنّكم مسافرون ووصلتم إلى مطار التوقّف ، وستتوجهون بعدها إلى أجمل مدينة في العالم»؛ تأمّل أوجه الحاضرين ، وقال: «أيّ الوجهات أجمل بالنّسبة لكم»؟ نادى أحدهم: «سنغافورة»؛ قال الثاني: «طوكيو» صاح الثّالث: «المالديف»: نادى الآخر: «ديزني لاند»؛ على إثر ذلك ضحك بعض الحاضرين.

قل سامي: «حسنًا؛ تخيّلوا أنّكم مسافرون إلى مدينة خيالية فيها كلّ ما تشتهون. وتخيّلوا أنّكم الآن في محطّة التوقّف. وأُعطيتم فيزا لمدّة ٧٢ ساعة. وبعدها يجب أن تغادروا المحطّة. هذه المحطّة هدفها نقل المسافرين إلى الطائرة التي ستأخذكم إلى الرحلة النهائية إلى مدينة الأحلام. ولذلك ، المحطة مليئة باللّوحات والمكاتب الإرشادية ، ومكبّرات الصوت التي تعلن عن مواعيد الرحلات ، وموظّفين يذكّرون المسافرين ويرشدونهم. تخيّلوا أيضًا أن في هذه المحطة أماكن للأكل ، والتسلية. جميل»؟

أكمل سامي: «الآن. ماذا لو طالب مجموعة من المسافرين أن تُزَالَ هذه المكبّرات الصوتية واللوحات بحجّة أنّها مزعجة. وماذا لو طالبوا بإغلاق المكاتب الإرشادية وافتتاح مزيد من المطاعم أو أماكن الترفيه؟ أو ماذا لو ....».

كان سامي يسأل وهو يتخيّل الصّورة أمامه. كان منغمسًا في رسالته. لم تأتِ صورة الحكيم في مخيّلته منذ سنوات. ولذلك وفي خضم حديثه؛ توقّف تمامًا. لفتَ انتباهه رجلٌ يجلس في آخر القاعة.

ما هذا الشيء المخطوط على خدّه الأيمن؟ بدت لسامي ندبة

تشبه ندبة الحكيم تمامًا. لكن ملامحه الأخرى كانت مختلفة. ***لا يمكن أن يكون هو***. كان الغريب يبتسم ويهزّ رأسه إيجابًا. وكأنّه يثني على كلام سامي بابتسامته.

انتبه سامي أنّه قد توقّف عن الحديث للحظات. شعر بأعين الحاضرين تنظر إليه في ريبة. استمرّ سامي في الحديث ، عينٌ على الفصل ، وأخرى على الطالب الغريب في آخر القاعة.

أكمل: «ماذا لو قرروا تركيب مكبّرات خاصة بهم تبث الموسيقى أو مقابلات ثقافية لتزاحم صوت إعلانات الرحلات؟ بعد كل هذا ... تخيّل أنّك قرّرت الوقوف ومنعهم. ماذا لو أجابوك وقالوا "لا دخل لك. كلٌّ مسؤول عن نفسه. وليست مسؤوليّتي إن فاتتك الرّحلة" ماذا نفعل؟ ماذا لو قالوا "رغبتك في السّفر قضيّة شخصية بحتة ، لا ينبغي أن تنعكس على المطار" ماذا ستفعل؟ أوّل ما ستشير إليه أنَّ هذا المكان اسمه: "مطار" ، والمطار له وظيفة. وكل ما قد يخلّ بهذه الوظيفة بحاجة إلى وقفة».

نظرَ مرّة أخرى إلى آخر القاعة ولم يرَ الرجل الغريب. تلفّتَ سامي؛ بحثًا عنه لكنّه لم يكن هناك .. نظرَ إلى باب القاعة في آخر الغرفة وكان ثابتًا لم يتحرّك. جاءه صوت المحاوِر يناديه: «أستاذ سامي»؟ قال سامي وعينه على المخرج: «لا ... لا شيء. سأترك هذه الفكرة بين أيديكم وأودُّ أن تربطوها بمحور نقاشنا».

أنهى سامي اللقاء بشكل مفاجئ: شكرهم على عجالة ثم وقف. لم ينتبه سامي لصوت همسات الحضور المستغربة. انطلق يعدو نحو المخرج يبحث عن الغريب.

خرج سامي من القاعة والأسئلة تتقافز في صدره: ***هل هو الحكيم؟ هل أنتَ الخَضِر؟! لكنّك لستَ نفس الرجل في قصّة الملك سليمان ...*** تلفّتَ ولم يجد أمامه سوى سيل من الطلاب خارجين

من قاعاتهم؛ ولم يجد سامي سوى ذكرى في صدره كان يظنُّ أنّها دُفنت ...

(٧)

في صباح اليوم التالي ، وبينما سامي يقرأ القرآن ، وتحديدًا ، سورة الكهف: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

سمع صوتًا عند الباب والتفتَ نحوه. أمال رأسه ليرى أمرًا غريبًا: وجد بين الباب والعتبة مظروفًا أصفر اللون. مشى ببطءٍ نحو الباب يتأمّل. انحنى سامي ووجد المظروف قد كُتِبَ عليه: «إلى سامي الغريب». التقطه سامي ثم اعتدل في وقفته .. فتحه ليجد فيه رسالة خالية ، صُنعت الورقة من مادة ورقية صفراء مألوفة وعليها زخارف رآها من قبل.

كانت أشعّة الشّمس تخترق النافذة .. تكشف عن ذرّات الأثير المتراقصة .. ***هل ستكشفي عن أمرٍ آخر؟*** توجّه للنافذة بدقّات قلبٍ متسارعة .. قبل أن يضع الرسالة تحت أشعّة الشّمس التفتَ إلى الحجرة المجاورة.

عاشا زوجين وصديقين وعاشقين .. رُزِقا بمولود ، لم يتجاوز عمره بضعة أشهر؛ احتضنت سارة القاصد الطفلَ وداعبته. ربتت على رأسه وأخذت تهمهم له: صوتك يناديني ...

ابتسم سامي وسرتْ فيه طمأنينة .. شعر بأشعّة الشمس على يديه تناديه أن يضع الرسالة عليها .. وفعل ذلك.

بدأتْ الحروف تتشكّل ثم أخذَ سامي يقرؤها. ارتسمتْ

ابتسامة على محيّاه ونظر إلى النافذة وقد تيقَّن أنَّ كلَّ ما مَرَّ به هو بداية؛ محض بداية ...

تمَّ هذا العمل بفضل اللّه أولاً ثمّ بفضل أمّي ملهمتي، وأبي عزوتي، وأخواتي عضيداتي، وزوجتي شريكتي.

أشكر كُلاًّ من زوجتي ماجدة، وصديقي عبدالرحمن البسّام، والأستاذة أسيل العقيلي، والأستاذ أحمد حسن الذين راجعوا تفاصيل التفاصيل وأثروه بمقترحاتهم. كما أشكر كل من تطوّع لمراجعة الكتاب وأفادني بانطباعه: شكرًا صديقي عابد صابر، شكرًا د. أشعار الباشا، شكرًا أستاذة هناء الماضي.

أشكر الأستاذة مها خلاوي لتصميمها غلاف الرواية في مدّة قياسية. كما أشكر ياسر الحوّاج الشريك الإداري في شركة SALT Creative الذي تحمّلني لأشهر طويلة للخروج بتصوّرات عديدة حول الغلاف أيضًا.

أشكر د. خالد الدريس الذي تشجّع لنشر الرواية في مركز دلائل.

أخيرًا أشكرك على قراءة "الوادي المعلّق في السّماء". يهمّني جدًّا معرفة رأيك: فضلاً تفضّل بزيارة موقع جود ريدز (GoodReads)، وابحث عن الرواية أو الكتاب، واترك تعليقك، وأعدك أنّي سأقرؤه، كما سيسعدني مناقشته على تويتر @i_mishary

إن أصبت فهذا من فضل ربّي، وإن أخطأت فمن نفسي.